2020

2.1.2020

جيمس بالدوين

غرفة جيوفاني

ترجمة فيء ناصر

جيمس بالدوين

غرفة جيوڤاني

ترجمة فيء ناصر

غرفة جيوفاني

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

غرفة جيوڤاني

تأليف: جيمس بالدوين

ترجمة: فيء ناصر

تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-110-9

روايات REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)

الطبعة الأولى 2018

القصباء - مبنى D

هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+

ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

info@rewayat.ae

www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2018

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Giovanni's Room

Copyright © 1956 by James Baldwin.

كلمات

KALIMAT GROUP ▪ مجموعة كلمات

إلى لوسيان:

أنا الإنسان، كنتُ هنا، وتعذّبت

والت ويتمان

القسم الأوّل

الفصل الأوّل

أطلُّ ليلًا من نافذة هذا المنزل الكبير في جنوب فرنسا، على اللّيل الذي قادني إلى أكثر الصّباحات رُعبًا في حياتي. أحمل كأس شراب في يدي، وثمّة زجاجة خمر على الطاولة، حيث أضع مرفقي. أنظر إلى انعكاس هيئتي على زجاج النافذة، في ومضات العتمة. انعكاسي طويل، أطول من سهمٍ شاخص، وشعري الأشقر يلمعُ في الظلام. وجهي يشبه وجهاً التقيته عدّة مرّات سابقًا. أسلافي احتلّوا قارّة، اندفعوا إلى السهوب يتقدّمهم موتٌ ثقيل، حتى وصلوا إلى محيط يدير وجهه عن أورُبا، ويرنو نحو ماض معتم.

دون شك، سأكون ثملًا عند حلول الصباح، لكن ذلك لن يغير شيئا. يجب أن أستقل القطار إلى باريس في كل الأحوال. سيكون القطار كما هو، يتزاحم الناس فيه من أجل راحتهم، وحتى الوقورون منهم سيتزاحمون على مقاعد الدرجة الثالثة الخشبيّة، ذوات مساند الظهر المستقيمة، سيكونون كما هم، وأنا سأكون كما أنا.

سنمرّ بالأرياف الشماليّة المتماوجة ذاتها، تاركين خلفنا البحر وأشجار الزيتون وإشراقة السماء الجنوبية العاصفة، نحو ضباب باريس ومطرها. أحدهم سوف يعرض عليّ مشاركته شطيرته،

وآخر سوف يقدّم لي رشفة من نبيذه، وثالث سوف يطلب مني عود كبريت. سيتجول الناس في ممرّ القطار وينظرون عبر نوافذه، وإلى انعكاساتنا عليها.

في كل محطّة، سيفتح موظّفوا القطار ذوو الزي البنيّ الفضفاض والقبّعات الملوّنة أبوابَ المقصورات كي يسألوا: «هل العدد مكتمل؟»[1] وسوف نهزّ رؤوسنا جميعًا بالموافقة، فيبتسم بعضهم إلى بعض ابتسامة باهتة مثل متآمرين، بينما يستمرون في عملهم. سينهي اثنان أو ثلاثة منهم عملهم أمام باب مقصورتنا، يتصايحون ببذاءة فيما بينهم بأصوات مُجهَدة، ويدخنون سجائر رخيصة لا تُحتمل. وستجلس فتاة قبالتي وتتساءل في سرّها لماذا لم أغازلها؟ وستسحب نفسها لتجلس على طرف المقعد حين يأتي الجنود. سيجري كلّ شيء كما جرى سابقًا، غير أنني سأكون أكثر سكونًا هذه المرّة.

وهذا الريف ساكنٌ أيضًا هذه الليلة، الرّيف المنعكس على صورتي في زجاج النافذة. يقع هذا المنزل على مقربة من منتجع صيفيّ صغير، ما يزال فارغًا، لم يبدأ موسم السياحة بعد. يقع المنتجع فوق تلّ صغير، يتيح لمن يُشرف منه قُدرة رؤية أضواء المدينة وسماع هدير البحر. استأجرناه أنا وحبيبتي **هيلا** حين كنّا في باريس من خلال معاينة صوَره قبل عدّة أشهر. غادرَت هيلا منذ أسبوع. هي في أعالي البحار الآن، في طريقها عائدة إلى أمريكا.

أستطيع رؤيتها، أنيقة جدًّا، متوترة، ولامعة، تحيطها الأضواء التي تملأ بهو الباخرة عابرة المحيطات، تشرب بسرعة وتضحك

---

(1) الكلمات والجمل المائلة وردت باللغة الفرنسيّة في النّص الأصل. (المترجم).

وتراقب الرّجال. كانت تلك حالها حين التقيتها أوّل مرّة، في حانة في منطقة سانت جيرمان دي بري[2]، كانت تشرب وتراقب، ولهذا السبب أُعجبتُ بها، فكّرتُ بمتعة مرافقة فتاة مثلها. هكذا بدأنا، كان حبّنا يعني لي كل شيء؛ أما الآن فلستُ متأكّدًا هل عناني الأمر كثيرًا فعلًا؟ لا أعتقد أنّه عناها كثيرًا أيضًا، على الأقل ليس قبل أن تذهب في تلك الرحلة إلى إسبانيا وتجد نفسها وحيدة هناك تنتابها الحيرة. ربما كانت تريد الشّرب ومراقبة الرّجال طوال حياتها. لكن حدث ذلك بعد فوات الأوان. كنتُ أنا مع جيوفاني حينها. سألتها أن تتزوجني قبل أن تغادر إلى إسبانيا؛ ضحكتْ، وأنا ضحكتُ أيضًا، لكن ذلك الضّحك، بطريقة ما، جعل مشروع الزواج أكثر جديّة بالنسبة لي، فألححتُ عليها؛ ثم قالتْ إنّه يتحتّم عليها السّفر بعيدًا والتّفكير في الأمر.

في آخر لقاء لنا، خلال ليلتها الأخيرة هنا، وبينما كانت تحزم حقيبتها، قلت لها إني أحببتها وأقنعتُ نفسي بذلك. لكني أشكُّ الآن. فكّرتُ كثيرًا بمُتعة ليالينا في السّرير، بتلك البراءة العجيبة والثقة المتبادلة، التي لا يمكنها أن تعود مجددًّا، والتي جعلت تلك الليالي بهيجة وسعيدة جدًّا، لا تمتّ للماضي بصلة ولا للحاضر، ولا للزمن الآتي. تلك الليالي لا تمت بصلة إلى حياتي ذاتها، منذ أن وقعَت مُعظم المسؤولية المباشرة لأزمنة حياتي على كاهلي. أفكّرُ بتلك الليالي التي عشناها تحت سماء غريبة، لا أحد يراقبنا، ولا عواقب تترتّب علينا، وهذه هي الحقيقة الناصعة لخرابنا، فلا شيء أكثر وطأة وثقلًا من الحريّة حينما يحوزها المرء. وأعتقد، لهذا

---

(2) حي في وسط باريس مجاور لنهر السين. م.

السبب، أنني سألتها الزّواج منّي: كي أعطي نفسي شيئًا أرتبط به. وربما كان هذا هو سبب موافقتها على الزواج مني وهي في إسبانيا. لكن الناس يصابون بالحزن لأنهم لا يستطيعون تلفيق علاقاتهم وارتباطاتهم، واختلاق الأصدقاء والأحبّة، مثل عجزهم عن اختراع أبويهم. الحياة تمنح هذه العلاقات والروابط وتأخذها مرّة ثانية، وتكمن المشقّة الكبرى في أن تقول للحياة: نعم.

حين قلت لهيلا إنّي أحبيتها، كنتُ أفكّر بأيّامنا معًا، قبل أن تحدُث لي تلك الأمور المروّعة التي لا عودة عنها. حينما تكون العلاقة عابرة فهي لا تعني سوى أنها عابرة. الآن، ومنذ هذه الليلة، منذ هذا الصّباح الآتي، ودون أن أُعطي أهميّة لعدد الأسرّة التي سأمارس عليها الحبّ حتى أصل إلى سرير مماتي، أعاهد نفسي على عدم الخوض في أيّ علاقة صبيانيّة فاتنة عابرة، والتي هي في حقيقتها، عندما يُمعن المرء التفكير فيها، شيء أكثر قليلا من استمناء ناطق ذي صدى. الناس ذو طبائع متباينة كثيرًا في هذا الجانب، ولا يجوز معاملتهم بسطحيّة واستخفاف. أنا أيضًا تتباين طباعي إلى درجة صرتُ معها غير جديرٍ بالثقة، وإلا ما كنت وحدي في هذا البيت، هذه الليلة، وما كانت هيلا وحدها في أعالي البحار. وما كان جيوفاني في طريقه إلى الموت بالمقصلة، في ساعةٍ ما بين هذه الليلة والصّباح الآتي.

من بين كل الأكاذيب العديدة التي رويتها، وعشتها وصدّقتها، أندم الآن على كذبة واحدة –رغم انتفاعي منها – وهي تلك الكذبة التي حكيتها لجيوفاني، لكنها فشلتْ في جعله يصدقها، وكذبتي هي إنني

لم أنم مع أيّ فتىً قبله. وقد قرّرتُ أني لن أكذب مرّة أخرى. هناك شيء رائع في المشهد الذي أستدعيه الآن لنفسي، كنت قد هربتُ من مواجهته، بعيدًا جدًّا، وسريعًا جدًّا، حتى عبرت المحيط هربًا، فقط كي أجد نفسي تتضاءل مرّة أخرى أمام الرّقيب في فنائي الخلفي الذاتيّ. لقد ازدادت ضآلتي الآن وكبُرَ الرّقيب في داخلي.

كنت قد نسيتُ ذلك الفتى، **جَوي**، سنوات طويلة؛ لكني أراه بوضوح تام هذه الليلة. حدث هذا منذ بضعة سنوات خلت. كنت مراهقا، وكان هو في عمري تقريبًا، يكبرني أو يصغرني بسنة. كان فتى لطيفا، وسريعا وشديد السّواد، وضَحوكًا دائما. وكان أقرب أصدقائي بعض الوقت. بعد ذلك استحوذتْ عليّ فكرة أن وجود صديق مقرّب منّي هو دليل دامغ على تلوّثي الداخلي. لذلك نسيته. لكني أراه جيّدًا هذه الليلة.

حدث ذلك في الصّيف، في العطلة المدرسيّة. ذهب والداه إلى مكان ما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وكنتُ أقضي تلك العطلة الأسبوعيّة في بيته الذي كان في بُقعة من بروكلين قريبة من كوني آيلاند. في تلك الأيام كنّا نسكن بروكلين أيضًا، لكن بيتنا كان في حيٍّ أرقى من الحيّ الذي يقطنه جوي. أظنّنا استلقينا على الشاطئ للسباحة بعض الوقت ومراقبة الفتيات نصف العاريات في لباس السباحة. كنا نصفّر لهن ونضحك. كانت طريقتنا في التصفير تروق للفتيات دون شك، ومع ذلك كنّ يغضضْن الطرف ويتجاهلننا، وأنا واثق لو أن إحداهن قد أظهرتْ أيّ استجابة لصفيرنا، لَمَا وَسِعنا عُمق المحيط كلّه كي نُغرق فيه خجلنا وارتباكنا. وحين بدأت الشمس بالغروب، أخذنا نتمشّى في الممر الخشبي باتجاه بيته، بملابسنا

الداخلية الرّطبة تحت سروالَينا.

كانت البداية تحت صنبور الاستحمام، كما أتذكّر. خالجني إحساس بشيء ما – بينما كنّا نتمازح في الحمّام ذي البخار الكثيف، نلسعُ بعضنا بأطراف المناشف المبلّله – إحساس لم يسبق لي معرفته، غامض ودون غاية، ضمّنا معًا. أتذكّر ذلك النفور الثقيل في نفسي من ارتداء ملابسي، عزَوته إلى الحرارة. لكنّنا ارتدينا ملابسنا أخيرًا، وتناولنا طعامًا حانةدًا من البرّاد، وشربنا كثيرًا من البيرة. وربما خرجنا لمشاهدة فيلم، لأني لا أجد سببًا آخر لخروجنا من البيت. وأذكر أننا مشينا في شوارع بروكلين الاستوائيّة المظلمة، بينما الحرارة تنبعث من الأرصفة ضاربةً جدران المنازل بقوّة تكفي لقتل إنسان، وبالِغوا العالم كلّهم يصخبون في منعطفات الشوارع، وأطفال العالم كلّهم يجلسون على الأرصفة أو المزاريب أو يتعلّقون في مخارج الطوارئ الخلفيّة للبيوت. كانت ذراعي على كتف جوي. وكنت مزهوًّا، على ما أذكر، لأن رأسه منخفض عن مستوى أذني بقليل. وبينما كنا نتمشّى، كان جوي يُطلق نكاته وملاحظاته الحانةعة البذيئة، فنضحك. أتذكّر المرّة الأولى منذ وقت طويل، أتذكّر ولعي بجوي تلك الليلة، وشعوري بالطيبة والنُّبل. كان الهدوء يخيّم في الشوارع الطويلة ذاتها عند عودتنا، كنّا هادئين، وعندما دخلنا شقّتهم غشانا النعاس. خلعنا ملابسنا في غرفة جوي وآوينا إلى السرير. نمتُ فترة لا بأس بها، كما أذكر. لكني صحوت كي أجد مصباح الغرفة مضاء وجوي يتفحّص مخدته باهتمام شديد.

«ما المشكلة؟»

«أعتقد أنّ بقّ الفراش عضني.»

«يا قذر، أهناك قمل في فراشك؟»

«أعتقد أنّ واحدة قرصتني.»

«وهل قرصتك بقّةُ فراش من قبل؟»

«لا»

«حسنًا، اخلُد للنوم إذًا، أنت تحلم.»

نظر إليّ بفم فاغر وعينين سوداوين كبيرتين، كأنّه للتوّ اكتشف أنّي خبيرٌ بِبَقّ الفراش. ضحكتُ ومسكتُ رأسه، والله وحده يعلم عدد المرات التي أمسكت فيها رأسه بتلك الطريقة من قبل، عندما كنّا نلعب معًا، أو عندما يزعجني. لكن حينما لمسته هذه المرة، شيء ما حدث له ولي، شيء ما جعل هذه المسكة تختلف عن أيّ مسكة سابقة. لم يقاوم، مثلما كان يفعل عادة، بل انقاد إلى المكان الذي سحبته اليه، قبالة صدري. وشعرت بقلبي يدقّ عاليًا وسريعًا، بينما كان جوي يرتجف أمامي، ومصباح الغرفة ساطع الإنارة ويبعث على الحرارة. بدأت بالحركة محاولًا اختلاق جوٍّ للمزاح، فتمتم جوي شيئا ما، وأحنيتُ رأسي للأسفل كي أسمعه. لكنه رفع رأسه في اللحظة التي أحنيت عندها رأسي، ورُحنا نقبّل بعضنا كما لو كانت مصادفة. بعدها، ولأول مرّة في حياتي، أعرتُ انتباهاً لجسد إنسان آخر، ورائحته. طوّقَتْ ذراعا كلّ منّا جسد الآخر. كأنّني احتضنتُ بين يديّ طيرًا نادرًا مُنهكًا يوشك على الموت، ومعجزة ما حدثتْ، فوجدته. كنت مرتعبًا جدًّا؛ ومن المؤكّد أنه كان مرتعبًا مثلي، فأغمضنا أعيننا. استعادة تلك الحادثة هذه الليلة بهذا الوضوح وهذا الألم، هو دليل على عدم نسيانها أبدًا. أشعر الآن بالخَدَر، بإثارة لا تُحتمل، كما شعرت بذاك الهياج والإثارة

السّاحقة حينها، عطشٌ حارّ وعظيم، وارتعاش وحُنُوّ مؤلم جدا، خُيّلَ لي أن قلبي سينفجر، لكن بعد جرعة الألم الصاعقة تلك، أتى الفرح؛ لقد منحنا بعضنا الحبور في تلك الليلة. وتراءى لي حينها أنّ عُمرًا بأكمله سوف لن يكفي كي أمارس الحبّ مع جوي. لكن ذاك العمر الذي تمنيته كان قصيرًا، ومُقتصرا على تلك الليلة فقط، وانتهى في الصباح التالي. صحوتُ بينما كان جوي ما يزال نائمًا، متكوّرًا مثل طفل قبالتي. بدا مثل طفل حقًّا، فمه نصف مفتوح، وخدّاه متورّدان، وقد غطّت الوسادةُ شعرَه المجعّد ونصفَ جبهته المدوّرة المبلّلة. التمعتْ رموشه الطويلة قليلا في شمس الصيف. كنّا عاريين وشراشف السرير مجعدة عند أقدامنا. كان جسم جوي البنيّ مبلّلًا بالعرق، كان أجمل كائن وقعت عليه عيناي حينئذ. أوشكتُ على لمسه كي أوقظه لكن شيئا ما منعني، تسلّل خوف مفاجئ إليّ، ربما لأنّه بدا بريئًا جدًّا ومستلقيًا بطمأنينة على السرير، وربما لأن جسده كان صغيرًا بالنسبة إلى جسدي، فشعرتُ فجأة بمقت شديد لشراهة جسدي ورغبته اللجوجة التي بدأت تتعاظم في داخلي. لكن فوق كل ذاك، كنت خائفًا وكأنّ الخوف المقيم في داخلي يردّد: لكن جوي مجرّد صبيّ! وفجأة انتبهتُ إلى قوّة فخذيه وذراعيه وقبضتيه المرتخيتين. أصابتني غرابة وقوّة ذلك الجسد ولغزه بالخوف العارم. وبدا لي كما لو أنه مغارة سوداء مفتوحة ستعذبني إلى حدّ الجنون، مغارة سأفقد فيها رجولتي. لكني أردتُ معرفة لغز ذلك الجسد، والشعور بقوّته، عبر جسدي نفسه. تحوّلَت قطرات العرق التي رشحت في ظهري، إلى قشعريرة. وحين تفحصتُ فوضى السرير الّذيذة، وأدلّته الوضيعة، شعرتُ بأسوأ

مشاعر الخزي والعار. فكّرتُ بما ستقوله أم جوي حين تنظر إلى أغطية السّرير. فكّرتُ بعدها بأبي أيضًا الذي ليس له أحد سواي في هذا العالم، فقد ماتت أمي حين كنت صغيرًا. فُتحتْ مغارة سوداء في ذهني، مليئة بالإشاعات، والظنون، مليئة بحكايات لا تكاد تُسمع، حكايات نصف منسيّة، ونصف مفهومة ومليئة بمفردات قذرة. ظننتُ أنّي أرى مستقبلي في تلك المغارة. كنت خائفا وعلى وشك البكاء لشعوري بالرعب والعار، البكاء من عدم فهم لماذا يحصل لي كل هذا، ولماذا يحصل فيّ كل هذا. فاتّخذتُ قراري. نهضتُ من الفراش واغتسلت وارتديت ملابسي وأعددتُ الفطور قبل أن يستيقظ جوي. لم أخبره بقراري؛ خشيت من ضعف إرادتي. ولم أجلس لتناول الفطور معه، لكنّي شربتُ قليلا من القهوة واختلقتُ عُذرًا للذهاب إلى البيت. كنت أعرف أن عذري لم ينطلِ على جوي؛ لكنه كان يجهل كيف يعترض أو يلحّ؛ كان يجهل أنّ ذلك هو ما كان يحتاج فعله حقًّا. وبعد ذلك، لم أره مدّة طويلة. في ذلك الصيف، وقبل تلك الليلة، كنت ألتقيه كل يوم. لم يأت هو لرؤيتي، كنت سأفرح لو فعل، لكننا سلكنا طريقَ الوداع، الحلّ يكمن في انزواء وانكفاء واحدنا عن الآخر حين كُنّا غير عارفين بكيفيّة التوقّف. عندما رأيته أخيرًا صدفة، في نهاية الصّيف، اختلقتُ قصّة طويلة عن فتاة ما أواعدها. وحينما بدأت المدرسة مرة أخرى، تصاحبتُ مع أولاد أجلاف وأكبر منّي سنًّا. وهذه الصحبة أزعجت جوي جدًّا وأصابته بالحزن، وجعلتني فظًّا أكثر. رحل جوي أخيرا، بعيدا عن الحيّ، وعن المدرسة، ولم أره مرة أخرى. في ذلك الصّيف شعرت بالوحدة وبدأت رحلتي معها: الوحدة، والتي قادتني إلى هذه النافذة

المعتمة التي أقف عندها الآن.

مع ذلك، عندما يبحث المرء عن اللحظات الحاسمة والمصيرية في حياته، تلك اللحظات التي تُغيّر الزمن الذي سيأتي بعدها، سيجد نفسه يقتحم، بألم عظيم، متاهة من الإشارات المزيّفة والأبواب التي تصطفق فجأة. حقا لقد بدأت رحلة حياتي في ذلك الصيف، تلك الرحلة التي لم تُرشدني إلى أصل المعضلة التي وجدتُ نفسي فيها. المعضلة التي تواجهني في انعكاسي الذي أراه على زجاج النافذة كلّما هبط الليل. المعضلة العالقة معي في غرفتي، وهي دائمًا معي، وستبقى دائما معي، ومع ذلك تظل مجهولة بالنسبة لي أكثر من تلك التلال الغريبة في الخارج.

عشنا في بروكلين، كما قلت، وعشنا في سان فرانسيسكو أيضا، حيث ولدتُ، وحيث دُفِنتْ أمي، وعشنا فترة وجيزة في سياتل، وبعدها في مدينة نيويورك. بالنسبة لي، نيويورك هي منهاتن[3]. بعدها انتقلنا من بروكلين إلى نيويورك مجدّدًا، وفي الوقت الذي أتيتُ فيه إلى فرنسا، كان والدي وزوجته الجديدة قد انتقلوا للعيش في كونيتيكت[4]. في تلك الفترة، كنت قد اعتدت العيش بمفردي في شقّة على الجانب الشرقيّ من منهاتن. في تلك الأيّام التي كبرتُ فيها، كنا نعيش ثلاثتنا معًا، أبي وأخته غير المتزوّجة وأنا، أمّا أمي فقد حملوها إلى المقبرة حين كنت في الخامسة. لا أتذكرها إلا نادرًا، لكنها تتجسّد في كوابيسي، محاطة بالديدان، بينما شعرها جافّ، مثل أسلاك معدنيّة، وخفيف ومتفرّق، مثل أغصان يابسة،

---

(3) تتكوّن مدينة نيويورك من خمس مناطق: منهاتن، وبروكلين، وكوينز، وبرونكس، وستيتن آيلاند. م.

(4) مدينة في الجزء الشماليّ الشرقيّ من الولايات المتحدة الأمريكية على ساحل المحيط الأطلسي. م.

تجذبني بقوّة لتضمّني إلى جسدها المتعفّن، ذلك الجسد المقزّز النّاعم المفتوح مثل شَرخ هائل يريد ابتلاعي حيًّا، وكلّما تخدّشتُ بكيتُ بصوت عال، عندها يُسرع أبي أو عمّتي إلى غرفتي لتهدئتي. لم أكن أجرؤ على وصف ذلك الحلم الذي بدا غير وفيٍّ لذكرى أمي، فأقول إنني حلمتُ بمقبرة، ما يجعلهما يستنتجان أنّ موت أمي قد ألقى بظلاله المشوّشة على مخيّلتي، وربما شعرا أنّي حزين لفقدانها، وربما كان ذلك صحيحًا، ربما أنا حزين لفقدها حتى الآن.

كانت علاقة أبي بعمّتي سيئة جدا، أحسست بهذا دون أن أعرف لماذا وكيف، وأحسستُ أيضًا أن معركتهما الطويلة كانت بسبب أمي الميتة. أتذكر حينما كنت صغيرا جدا، في ذلك البيت في سان فرانسيسكو، كانت صورة أمي الفوتوغرافيّة موضوعة على الرّف الذي يعلو الموقد في غرفة المعيشة الكبيرة، كأنها كانت تسيطر على المكان برمّته. راقبتنا جميعًا روحُها في صورتها تلك، وهيمنت حتى على الهواء في ذاك البيت. أتذكر الظلال حين تتجمع في زوايا تلك الغرفة، تلك الظلال التي كانت تشعرني أني في منزل غريب وليس منزلي. كان أبي يسبح بذلك الضوء الذهبي الذي يُسكَبُ عليه من مصباح طويل يقف بجانب كرسيه المريح. كان يقرأ الصحف، ويتوارى خلف جريدته عنّي، ما يجعلني أتهوّر كي أُلفت انتباهه. في بعض الأحيان كنت أزعجه جدًّا وينتهي نزاعنا بأن أُحمَل خارج الغرفة والدموع تسيل من عينيّ. أتذكره يجلس منحنياً إلى الأمام، يضع مرفقيه على ركبتيه، ويحدق باتجاه النافذة الكبيرة التي تعزل حِبر الظلام عنّا في الليل. طالما تساءلتُ عمّا كان يدور في خلده. ودائما، أراه في عينيّ ذاكرتي، مرتدياً كنزة صوفيّة بنيّة دون كمّين،

وربطةُ عنقه مُرخاة قليلا، بينما شعره ينسدل فوق وجهه المربع المتورّد. كان أبي من أولئك الناس سريعي الضحك وبطيئي الغضب؛ لكن غضبهم يُثير العجب عندما ينفجر، كأنّه حمَمٌ تنبعث من بركان خامد ستجرف البيت كلّه.

أخته تلك، **ألين**، أكبر منه قليلًا، وأكثر سوادًا، ومتأنّقة على الدوام أكثر ممّا يجب، ومتصنعة، ولها وجه وجسم في بداية التصلّب، مع كثير من المجوهرات التي ترنّ وتقرقع فيما بينها، تجلس على الأريكة تقرأ؛ كانت تقرأ كثيرا، كل الكتب الجديدة، وتعتاد الذهاب إلى السينما، وإذا لم تفعل فإنها تحوك الصّوف، بدت لي وكأنّها تحمل دائما حقيبة كبيرة مليئة بإبر الحياكة غريبة الشّكل، أو تحمل كتبها، أو كليهما. كنت أجهل ما كانت تحوك طوال الوقت، لكنها حتماً قد حاكت لأبي أو لي هدايا في المناسبات. لكني لا أذكر تلك المنسوجات مثلما لا أذكر الكتب التي كانت تقرؤها. ربما قرأتْ الكتاب نفسه طوال الوقت، وربما حاكت طوال الوقت الوشاح ذاته أو الكنزة ذاتها، أو الله وحده يعلم ماذا كانت تحوك طوال تلك السنوات التي عشناها معًا. في أحيان نادرة كانت تلعب مع والدي لعبة الورق؛ وأحيانا أخرى كانا يتحدثان مثل صديقين يُغيضان بعضهما، لكن مزاحهما ذاك كان خطيرًا، فدائما ينتهي بشجار. وأحيانا كان يأتي ضيوف ويُسمَحُ لي بالجلوس معهم ومراقبتهم وهم يحتسون الكوكتيل. كان أبي حينها في أفضل حالاته، لم يودّع شبابه بعد، طليق المزاج، ويتمشى في الغرفة المزدحمة بالضيوف وكأسه في يده، يصبّ الشراب للضيوف ويضحك كثيرا، يعامل الرجال كلّهم كما لو أنهم أشقّاءه، ويغازل النساء. أحيانا لا

يغازلهن بل يتبختر أمامهن مثل ديك. كانت ألين تراقبه دائما، كأنما خشيتْ أنه سيفعل شيئًا مروّعًا، راقبته وراقبت النساء ولكنها مع ذلك كانت تستجيب لغزل الرجال بطريقة غريبة ومستفزة. كانت أنيقة، كما يقولون، لتجلب الإنتباه اليها بفمها الذي تفوق حمرته الدماء، وترتدي ثياباً إمّا ضيّقة جدّا أو غير مناسبة لعمرها. وكأس الشراب في يدها يهدّد بصوت عال ومتصاعد، بأنه سيسقط ويتحول إلى شظايا في أيّ لحظة قادمة. كانت تخيفني، عندما كنت ولدا صغيرا، حين أراقبها في تلك الحفلات.

لكن لا يهم ماذا كان يحدث في تلك الغرفة، فأمّي أيضًا كانت تراقب. بدت عبر إطار صورتها، شقراء شاحبة ذات عينين داكنتين رقيقتين وجهة معتدلة، وفم ناعم مشدود. لكن هناك شيئا غريبا في الوضعية التي تستقر بهما العينين في الرأس، والطريقة التي تحدقان فيها مباشرة إلى الخارج، شيئا كأنه سخرية شفافة جدا، تتضح أكثر عند التمعن في شكل الفم. تنضح من صورتها أيضًا تلك الهشاشة المتوترة التي تخفي تحتها قوة وصلابة عنيدة ومتعددة الأشكال، تشابه نوبات غضب والدي الخطيرة غير المتوقعة تماما. كان والدي نادرا ما يتحدث عنها، وعندما يفعل كانت تغشاه أشياء غامضة تظهر على وجهه، يتحدّث عنها بصفتها والدتي فقط، وفي الحقيقة ربما كان يتحدّث عن نفسه. كانت عمتي ألين تتحدث عنها أكثر وتقول عنها إنها كانت أمراة مميّزة، لكن حديثها ذلك أصابني بعدم الراحة وتأنيب الضمير، فشعرت أنّي لا أستحق أن أكون ابن أمرأة عظيمة مثلها.

بعد سنوات، حينما أصبحتُ رجلا، حاولت حمل أبي على الحديث

عن أمي كثيرا. كانت ألين قد ماتت وهو كان على وشك الزواج مجدّدا. كان يتحدث عن أمي بالطريقة ذاتها التي تحدثت بها ألين عنها، وربما كان حديثه يجري بلسان ألين. أذكر مرة، حين كنت تقريبا في الثالثة عشرة من عمري، تشاجر أبي معها ليلًا، كان شجارهما عنيفا بعض المرات بالطبع، لكني أتذكر تلك المشاجرة في تلك الليلة بوضوح لأني كنت سببها.

كنت نائما في فراشي في الطابق العلوي، والوقت متأخر نوعا ما، لكني صحوت فجأة على وقع خطوات أبي في الممر المؤدي إلى مدخل البيت، تحت نافذة غرفتي. وكنت قادرا على معرفة أنه ثمل قليلا، من نبرة صوته وإيقاعه. وأذكر، في تلك اللحظة، أن شعورًا بالخيبة والأسى تسلّلا إلى داخلي بشكل غير مسبوق. لقد رأيت أبي سكرانا عدة مرات من قبل ولم يخالجني ذلك الإحساس، بل على النقيض، فأحيانا يُضفي السّكر على أبي مرحًا وجاذبية كبيرتين، لكن في تلك الليلة شعرت بشيء ما، شيء فيه، يستحق لأجله الازدراء.

سمعته يدخل. بعدها سمعت صوت إلين.«ألستِ في فراشك بعد؟» سألها أبي. حاول أن يكون لطيفا وتجَنُّبْ إثارة المشاكل معها، لكن صوته كان خاليًا من المودّة، ومليئا بالحنق والتوتر فقط.

«أظن أنه من الأفضل أن ينبّهك أحد إلى ما تفعله بابنك» قالت ببرود.

«ماذا أفعل بابني؟» وأوشك أن يقول شيئا قبيحا؛ لكنه ألجم نفسه، وقال بهدوء ثمل مستسلم ويائس: «عن ماذا تتحدثين يا إلين؟»

«هل حقًّا تعتقد أنّ...» سألته إلين – وكنت واثقا أنها تقف في مركز الغرفة، يديها معقودتان أمامها، تقف منتصبة جدًّا وثابتة –:

«...أنّك ذلك النوع من الرجال الذي يتمنى أن يكونه حين يكبر؟»
لم يقل أبي شيئًا، فتابعَت: «وهو يكبر كما تعلم!» ثمّ أكملتْ بنبرة حاقدة: «هذا أكثر ما أستطيع قوله لك»
«اذهبي إلى فراشك يا إلين» قال أبي بنبرة مُرهقة جدا.
داهمني إحساس، منذ أن سمعتهما يتكلّمان عني، أنه يتوجّب عليّ النزول إلى الطابق الأرضي وإخحانة إلين أنه مهما يحدث من سوء فهو بيني وبين أبي، وإننا سوف نحلّه بيننا دون مساعدتها. شعرتُ أيضًا أن إلين لا تحترمني، لأني ابداً لم أتفوه بكلمة واحدة عن أبي أمامها. كنت أسمع وقع أقدامه الثقيلة وغير المتّسقة، بينما كان يغادر غرفة الجلوس باتجاه السلالم. «لا تظنّ أني أجهل أين كنتَ!» قالت إلين.
ردّ أبي: «كنت أشرب في الخارج. والآن أريد أن أنال قسطًا من النوم، هل تمانعين؟»
قالت إلين: «كنتَ مع تلك الفتاة، **بياترس**، وذاك هو المكان الذي تذهب إليه دائمًا والذي تنفق فيه نقودك كلّها ورجولتك كلّها واحترامك لنفسك كلّه أيضًا» نجحتْ في إثارة غضبه. فبدأ يتلعثم: «إذا كنتِ تظنين أنّي– سأقف هنا– أقف– أقف هنا– وأجادلك بشأن حياتي الخاصة– حياتي الخاصة!– إذا كنت تظنين أني سأتجادل معك بشأنها، فأنت أبعد ما تكونين عن رشدك.»
ردّت إلين: «بكلّ وضوح، ما تفعله بنفسك لا يعنيني، لستَ أنت من يقلقني، الذي يهمّني هو أنّك الشخص الوحيد الذي له سلطة على ديفيد، ليس لديه أم، ولا سُلطة لديّ عليه، وهو يطيعني ويسمعني طالما يعرف أن ذلك يرضيك. هل تظن حقا أنه من الجيد لديفيد

أن يراك تترنح في البيت طوال الوقت؟» وأضافت بعد دقيقة بصوت مُترع بالعاطفة: «لا تخدع نفسك، لا تخدع نفسك بالقول أنه يجهل أين كنت، لا تظنّ أنه لا يعلم شيئا عن عشيقاتك!»

كانت عمتي إلين بالطبع مخطئة. لقد جهلت كلّ شيء عنهن، ولم أفكر مُطلقًا بهن. لكني بدأت التفكير بهن طوال الوقت منذ ذلك المساء. ونادرا ما قابلتُ أمرأة دون أن أتساءل مع نفسي: هل أبي (كما قالت إيلين) على علاقة بها؟

«أنا متأكّد أن ديفيد لديه عقل أنظف من عقلك» قال أبي وصعد السلالم بعدها، وحلّ الصّمت، كان ذلك أسوأ صمت عرفته في حياتي حينئذ. فكرت بما كانا يفكران فيه، كلّ على حدة، في تلك الليلة. وكيف سيبدو أبي وعمتي عند الصباح حين أقابلهما.

«... واسمعي! إنّ كلّ ما أتمناه لديفيد هو أن يصبح رجلا. وعندما أقول رجلا، إلين، لا أعني معلّمًا في مدرسة أيّام الآحاد!» قال أبي فجأة، بصوت أخافني، وهو يقف في منتصف السلّم. «الرجولة لا تعني أن تكون ثورًا. تصبح على خيرا» ردّت إلين بعد فترة وجيزة.

«تصبحين على خير» قال أبي بعد لحظة.

وسمعته يترنح وهو يعبر باب غرفتي.

منذ ذلك الوقت، احتقرتُ أبي وكرهتُ إلين بكلّ عنفوان المراهقة البغيض ومكرها الغامض. من الصعب عليّ قول لماذا، أو معرفة السبب، لكن مشاعري السلبية تلك سمحتْ لكل تنبؤات إلين لي بالتحقّق. كانت تقول أنه سيحين وقت ما، لا يمكن لأي شخص فيه أو أي شيء أن يسيطر عليّ، ولا حتى أبي. حلّ ذلك الوقت دون شك. حدث ذلك بعد جوي. تلك الليلة معه هزّتني عميقًا، وكانت

السبب الذي جعلني كتومًا وقاسيًا. لم أكن قادرًا على الحديث بما جرى معي وجوي لأيّ كان، لم أجرؤ حتى على الاعتراف به لنفسي؛ وبينما خُيّل إليّ أنني نسيتُ أمر ما حدث تلك الليلة مع جوي، بدا الآن أنه كان طوال الوقت مستقرًا في أعمق أعماق ذهني، وما يزال هناك، شنيعًا ومتعفنًا مثل جثة متحلّلة. تلك الحادثة غيّرتني، صيّرتني عصبيّ المزاج وغليظًا. لم يمض وقت طويل بعد ذلك، وكنت أنا من يعود مترنّحًا إلى البيت في ساعة متأخرة، أنا من كانت إلين تنتظره، أنا وإلين كنّا نتشاحن طوال الوقت سواء سهرتُ داخل البيت أو خارجه.

وقف أبي على الحياد، تَقبّلَ الأمر، كأنما كنت أمرُ بفترة لا بد منها كي يكتمل نضجي. كان يتظاهر أنه يأخذ الأمر ببساطة. ورغم مزاحه الذي تطلّبه التضامن الذكوريّ المشترك، كان مرتعبًا، ويشعر بالخسارة الوشيكة. ربما لاعتقاده أنّ سلوك التغاضي هذا من شأنه أن يقرّب بعضنا من بعض أكثر حين أنضج. بينما هو الآن يبحث ويحاول العثور على أيّ معلومة أو خبر عنّي، رغم أني حلّقتُ بعيدًا عنه. لم أرد له أن يعرفني، كما لم أكن أريد من شخص آخر أن يعرفني. ثم كان يجب عليّ تحَمُّلْ أبي مثلما يتحمل اليافعون كلّهم آباءهم. كنت قد بدأتُ بمحاكمته ومحاسبته، وقسْوَةُ تلك المحاسبة حطّمت قلبي، وكشفتْ عن مدى حبّي له، على الرغم من أني لم أقلْ له ذلك في حينها، وكيف كان ذلك الحب يموت جنبًا إلى جنب مع براءتي.

كان أبي المسكين مرتبكًا وخائفًا، وغير قادر على تصديق احتمال وجود خطئ أو مشكلة كبيرة بيننا. وما كان هذا بسبب عدم

معرفته شيئا عني، أو عدم درايته عن المشكلة؛ بل كان بسبب خشيته من مواجهة حقيقة أنه ربما ترك أو أهمل شيئا، في مكان ما، شيئا مبهما أو غيرمحسوب، شيئا ما في منتهى الأهميّة بشأني. وبما أن كلانا كنا نجهل أدنى فكرة عن ماهية هذا الشيء المهم، وبما أننا اضطررنا إلى البقاء في تحالف ضمنيّ ضدّ إلين، فقد لجأنا إلى البقاء في حِلفٍ وديّ أيضا. كان أبي يفتخر أحيانا ويقول أننا لسنا أبًا وابنه، بل كنا صديقين. وأظنّه أحيانا قد صدّق ذلك. لكني لم أصدّقه. لم أكن أريد أن أصاحبه؛ بل أردتُ أن أكون ابنه. ما حدث بيننا من تضامنٍ رجوليّ أرهقني وأرعبني في الوقت نفسه. كنت أشعر أنّ على الآباء تجنّب الصّراحة التامة مع أولادهم. لم أكن أريد معرفة – وفي كلّ الأحوال ليس من فمه – أن جسده كان فتيًّا مثل جسدي. هذه المعرفة لم تقرّبني منه، ولم تشعرني أنني ابنه أوصاحبه، بل جعلتني أشعر بالخوف وأنني أحشر نفسي بما لا يعنيني. كان يعتقد أننا متشابهين. ولم أستطع حتى التفكير في هذا، كما لم أكن أريد لحياتي أن تكون مثل حياته، وأن عقلي سينمو بطريقة عادية وباهتة جدًّا، ودون مطبّات أو منعطفات صعبة وحادّة مثل عقله. لم يرغب أن تفصلنا أيّ مسافة؛ وأرادني أن أعتبره رجلًا مثلي. لكني **كنت أريد المسافة الرّحيمة بين الأب وابنه**، والتي كانت تُجيز لي أن أحبّه.

كنت ثملا ليلة ما، مع أصدقاء آخرين في طريق العودة من حفلة خارج المدينة، تحطّمت السيارة التي كنت أقودها، ولم أكن قد حصلتُ على رُخصة القيادة بعد، وكان الخطأ بسببي. عجزت عن المشي بسبب السُّكر الشديد، ولم يعرف من كان معي بذلك، لأني

من أولئك الناس الذين يُحسنون الظهور بمظهر رابطي الجأش بينما هم في الحقيقة على حافة الانهيار.

لفتَ انتباهي شيء غريب على مسافة مستوية من الطريق السريع، وفقدتُ السيطرة على السيارة. انبثق عمود الهاتف، ورغوة بيضاء مُبهمة، من الإسفلت المظلم في اتجاهي؛ سمعتُ صراخًا وهديرًا ثقيلا بعدها، وصوتَ تشقّق. انقلب كل شيء بعدها إلى اللون القرمزي، ثم للحظة واحدة، سطع نور حول الظلام حوّله إلى نهار، لكني بعدها انحدرتُ إلى ظلامٍ لم أجرّبه من قبل.

لابد أني بدأت أفيق أثناء نقلنا إلى المشفى. أتذكر حركات وأصوات خفيضة، بدت كأنها بعيدة جدًّا ولا علاقة لي بها. أفقتُ بعدها في حيّز بدا مثل قلب الشتاء؛ سقف أبيض عال وجدران بِيض، ونافذة جليديّة قاسية ومُنحنية، كما لاحَتْ فوقي. لابد أنّي حاولت رفع نفسي، أتذكر أزيزًا مروّعًا في رأسي، وثقلًا فوق صدري، ووجهًا ضخمًا يجثم فوقي، كان ذاك الوجه يسحبني إلى الأسفل مرّة بعد مرة، فاستنجدتُ بأمي، وبعدها حلّ الظلام مجدّدًا.

حين استعدتُ وعيي أخيرًا، كان أبي واقفاً بجانب سريري. وكنت أعرف أنه واقف هناك حتى قبل أن أراه، قبل أن تقع عيناي عليه. أدرتُ رأسي بتأنٍّ نحوه. وعندما رآني أفقتُ، اقترب بحذر من السّرير، مُشيراً إليّ أن أبقى ساكنًا. بدا أنه تقدّم في السنّ كثيرًا. أردتُ أن أبكي. وللحظة حدّق واحدنا إلى الآخر. «كيف تشعر؟» همس أخيرًا.

أحسستُ بالألم عندما حاولتُ الكلام، وشعرتُ بالخوف. لابد أنه رأى الخوف في عينيّ، قال بصوت خفيض متوجّع، ونبرة

حادة مدهشة: «لا تقلق ديفيد. ستكون على ما يرام. ستكون على ما يرام.»

كنت ما أزال غير قادر على الكلام. أراقبُ وجهه ببساطة. قال محاولا الابتسام: «حظّك كبير يا صغيري، أنت أكثر من تعرّض للأذى!»

«كنتُ ثملًا،» قلتُ أخيرًا. وتمنّيتُ أن أخبره بكلّ شيء، لكن الكلام كان عذابًا لا يُطاق. سألني وهو يزمّ شفتيه بقوّة وبنبرة مُثخنة بالحيرة – كان هذا أمرًا يسمح لنفسه أن يحتار تجاهه: «ألا تعرفْ أنه ليس من المستحسن أن تقود السيارة وأنت سكران؟ أنت تعرف أشياء كثيرة أصعب من هذه!»

ثم «لماذا؟ كان من الممكن أن تموتوا جميعًا» وارتعش صوته.

«أنا آسف» قلتُ فجأة: «أنا آسف» ولم أكن أعرف لأجل ماذا أسِفت.

«لا تعتذر، فقط كُن حذرًا في المرّة القادمة.» قال ورَبَتَ على منديله بين راحتيه؛ ثم نشر المنديل ومدّ يده ومسحَ جبيني. «أنت كل ما لديّ، فقط كن حذرًا» قال بابتسامة خجولة متوجعة.

«بابا،» قلت، وبدأت أبكي... وإذا كان الكلام عذابًا، فالبكاء أفظع، ومع ذلك لم أكن قادرا على التوقف. كان وجه أبي قد تغيّر، بدا عجوزًا جدًّا وفي الوقت نفسه شابًّا جدًّا دون تكلّف. أذكر دهشتي الشديدة للعاصفة الصامتة القاسية التي عصفتْ بي، وإدراكي أن أبي كان يعاني طوال الوقت لكن بصمت.

«لا تبكِ، لا تبكِ، لا شيء يستحق البكاء لأجله» قال وداعب جبيني بذلك المنديل السخيف كما لو كانت فيه قوّة شفاء سحرية.

«كل شيء سيكون على ما يرام» وأوشكت على البكاء مجدّدًا: «لا يوجد خطأ، أليس كذلك؟ لم أقترف أيّ خطأ، أليس كذلك؟» كان طوال الوقت يمسّد جبهتي ويخفيها بذلك المنديل.

«كنّا سكارى، كنّا سكارى» قلتُ. وظننتُ أنه تفسير لكل شيء.

«عمّتك إلين قالت أن الخطأ هو خطئي، تقول أني أخطأت في تربيتك» قال ذلك مزيحًا ذلك المنديل – شكرًا للرّب – وأعاد بوهنٍ كتفيه إلى وضع الاستقامة. «لا شيء في قلبك ضدّي، أليس كذلك؟ صارحني إذا كنت تخفي شيئًا؟»

بدأت دموعي تنشف على وجهي وصدري. أجبته: «لا، لا شيء... صدقًا.»

«لقد فعلتُ ما وسعني فعله، حقًّا لقد فعلتُ كل ما أستطيع» قال لي. نظرتُ إليه. وأخيرًا ابتسم وقال: «ستبقى طريح الفراش فترة من الزّمن، لكن حينما تعود إلى البيت، حتى وإن كنت مستلقٍ على ظهرك، فإننا سنتصارح مجدّدًا، ها؟ وحاول بحقّ الجحيم أن تجد حلًّا لما يمكن أن نفعله لأجلك عندما تنهض على قدميك. حسنٌ؟»

«حسنٌ» قلتُ، لأنني أدركتُ من أعماق قلبي أننا لم نتحدث من قبل، ولن نفعل. وأدركتُ أيضًا أنه يجب ألّا يعرف ذلك. حينما عدتُ إلى البيت تحدّث معي عن مستقبلي لكني حينها كنتُ قد اتّخذتُ قراري. لا أريد مواصلة دراستي الجامعية، ولا أريد البقاء معه ومع إلين في ذلك البيت. وقد ناورتُ أبي جيّدًا إلى الحدّ الذي جعلته يؤمن معه أنّ بحثي عن عمل واستقلالي بنفسي هو الحصيلة المباشرة لنصائحه وعِرفانًا لفضله عليّ. وبالطبع حالما غادرتُ البيت صار التعامل معه أسهل كثيرا. وتلاشت أسباب إحساسه بأني

أُبعده عن حياتي، لأني كنت قادرًا دائمًا، حينما أحدثه عن نفسي أو حياتي، أن أخبره بما يودّ سماعه. وكانت علاقتنا تسير بشكل حسن فعلًا، لأن الصّورة التي كنت أرسمها لوالدي، عن حياتي، كانت بالفعل الصورة التي كنت أستميتُ أنا نفسي لتصديقها.

ولأني واحدٌ من أولئك البشر – أو كنتُ واحدًا منهم – الذين يفتخرون بقوّة إرادتهم، وقابليتهم على اتّخاذ القرارات والمضيّ في إنجازها. لكن هذه الفضيلة، مثل معظم الفضائل، مبهمة. فالناس الذين يؤمنون بأنهم أقوياء الإرادة وأنهم يسيطرون على مصائرهم، هم ببساطة يخدعون أنفسهم بالاستمرار في هذا الإيمان، وقراراتهم ليست قرارات على الإطلاق – القرار الحقيقيّ يجعل المرء متواضعًا، ويعرف حينها أنه تحت تأثير أشياء كثيرة ليس في المستطاع تسميتها، ويرجو رحمتها – فهم يجهزون منظومة الأعذار والأوهام التي صُمِّمَتْ كي تُشعرهم إنهم كما هم، وأن العالم من حولهم هو من يتغيّر. كان هذا حتمًا هو قراري، اتّخذته مبكّرًا جدًّا، في سَرير جوي.

كنت قد قرّرت عدم فسح المجال لأيّ شيء في العالم لأن يُشعرني بالخجل أو الخوف. وقد نجحتُ بامتياز في ألّا أُعير العالم أيّ انتباه، وألّا أنظر إلى نفسي، وأن أبقى في الحقيقة أُراوح مكاني. أحيانًا، كان البقاء ساكنًا، لا يمنع العوائق الغامضة، والمطبّات التي تُشبه مطبّات الطائرة وهي تصطدم بالجيوب الهوائية. كان هناك عدد من تلك المطبات، وكنت مخمورا فيها كلّها، وكلّها دنيئة، لكن واحدة من تلك السّقطات كانت مخيفة جدا عندما كنت في الجيش، حيث تورّطت مع شابٍّ أقتيدَ لاحقًا إلى المحكمة العسكريّة. إنّ هلعي من

العقوبة التي قُضيت عليه كان أقرب ما دفعني إلى مواجهة مخاوفي الداخليّة والتي أرى مثيلاتها تُضبّب عيون الرّجال الآخرين.

ما حصل هو أنني، بكل استيائي وضجري اللاواعي، أُرهِقتُ من اللّف والدوران على الذات، وتعبت من بحور الكدر والغمّ والكآبة التي تُسبّبها الكحول، وأُرهقتُ من الفظاظة والخداع، وكُلّ الحميميّة والصّداقات التي لا معنى لها، وأُرهقتُ من التجوّل في غابات نساءٍ يائسات، وأُرهقتُ من العمل، ذلك الإرهاق الذي أطعمني القسوة بكلّ معنى الكلمة. لذلك ربما، كما نقول في أمريكا، أردتُ أن أجد نفسي. وتلك عحانةة مُثيرة، لا تحضُر كثيرًا في لغات الشعوب الأخرى طبقًا إلى معارفي المحدودة. تلك العحانةة بالطبع لا تعني ما تقوله حرفيًّا، إنها تخترق نوعًا من الشّكّ المزعج الذي يُصيب المرء فيدفعه للاعتقاد بأن هناك شيئًا ما وُضع في مكان غير مكانه. أظنّ الآن أنه لو كانت أمامي أيّة إشارة بسيطة تقول لي إنّ النّفسَ التي كنت سأجدها ستكون هي النّفس ذاتها التي أنفقتُ زمنا طويلا في صراعها والهرب منها، لكنت بقيت في البيت. لكني، مرّة أخرى، ظننتُ أنني من أعماق قلبي أعرف تمامًا ما كنت بصدد فعله عندما ركبتُ تلك الباخرة المتّجهة إلى فرنسا.

الفصل الثاني

عرفتُ جيوڤاني خلال سنتي الثانية في باريس، كنتُ مُفلسًا. طُردتُ من غرفتي في صباح اليوم نفسه الذي التقيتُ جيوڤاني في مسائه. لم يكن عندي كثير من النقود، حوالي ستة آلاف فرنك فقط. لكن موظفي الفنادق الباريسيّين لهم طُرُقهم الخاصّة في شمّ رائحة الفاقة، ويفعلون بعدها كما يفعل أيّ أحد آخر لتجنّب الرائحة الكريهة؛ يرمون كل شيء نتنٍ إلى الخارج.

كان أبي يملك حسابا مصرفيا فيه مالٌ يعود لي، لكنّه رفض إرسال المال لأنّه كان يريدني أن أعود إلى أمريكا، وأستقرّ هناك. كلّما كان يقول ذلك، كنت أفكر في رواسب قاع بحيرة راكدة. وقتئذ، لم أكن أعرفُ كثيرًا من الناس في باريس، وهيلا كانت في إسبانيا. معظم من عرفتهم في باريس كانوا، كما يقول الباريسيون، من الوسط، رغم أن ذاك الوسط كانت لديه شكوكه حول انتمائي له، وتعمّدتُ أن أثبت لهم ولنفسي أني لستُ من جماعتهم، لكني رافقتهم وقتًا طويلًا وأظهرتُ نحوهم تعاطفًا وتسامحًا كان يسكنني، كما ظننتُ، ولم يسبّب أيّ شبهة لي. كتبتُ إلى صديق أسأله أن يُقرضني بعض المال، بالطبع إن المحيط الأطلسي واسع وعميق، والمال لا يهرع إليك من طرفه الثاني بسرعة، ولذلك لجأتُ إلى دفتر

عناويني. جلستُ في مقهى يُطلّ على الشارع، أرتشفُ قهوة فاترة، وقررتُ مهاتفة أحد معارفي القُدامى الذي كان يلحّ عليّ كي أتّصل به، رجل أعمال أمريكي هَرِم، لكنّه مولود في بلجيكا، اسمه **جاك**. كان يملك شقّة كبيرة مريحة يحتفظ فيها بأنواع خمرٍ عديدة ومال كثير. أصيب بالدهشة، كما ظننتُ، من اتّصالي غير المتوقع به، وقبل تبدّد روعة الاتصال وفجْأته لإفساح المجال للتفكير بالغرض من اتّصالي كي يأخذ حذره منّي، دعاني لتناول العشاء. وربما شتمني في سرّه بعد ذلك، حين مدّ يده إلى محفظة نقوده، لكن الوقت كان قد فات. لم يكن جاك سيّئًا جدا، قد يكون جبانا ومغفّلًا، لكن الجميع تقريبًا إمّا مغفّلون أو جبناء، وأغلب الناس هم الاثنين معًا. كنت أشفق عليه نوعًا ما، رغم سخفه، لكنه كان وحيدا جدا؛ على كل حال، الآن أفهم أن الاحتقار الذي كنت أكنه له، مُستقىً من احتقاره هو لذاته. فأحيانًا كان جاك سخيًّا بشكل لا يصدّق، كما يمكنه أن يكون بخيلا بشكل لا يوصف. ورغم أنه أراد كسب ثقة الجميع، لكنه عجز على منح ثقته لأحد؛ ولكي يراوغ هذه الحقيقة ويعوّض عدم الثقة، بدّد ماله على الناس؛ وحين يشعر أنه أُستُغِلّ، زَرّرَ محفظة نقوده، وأقفلَ بابه، وركن إلى ذلك الكائن فيه الذي يُشفق على نفسه جدًّا، وربما كانت تلك الشفقة الذاتية هي الشيء الوحيد التي تنتمي إليه، والتي يملكها حقًّا. ظننتُ لفترة طويلة أنّه، مع شقّته الكبيرة، وحُسن النيّة التي يُظهرها، وذخيرته الكحوليّة، والماريغوانا التي يتعاطاها، وعربدته، كلّها، ساعدت في قتل جيوڤاني. وربما أكون مُحقًّا، لكن دون شك، يدا جاك غير ملطختين بدم جيوڤاني أكثر من يديّ. فلقد رأيتُ

جاك مباشرة بعد صدور الحكم ضد جيوڤاني. كان جالسًا متدثّرًا بمعطفه في شُرفة مقهى يطلّ على الشارع، يشرب نبيذًا دافئًا. كان وحيدا في ذاك المقهى، فناداني حين مررتُ. لم يكن على مايرام، كان وجهه مجعّدا ومرقّشا، وعيناه خلف نظارته مثل عينيّ رجل يحتضر ويفتّش في كل مكان عن العافية. «هل سمعت بشأن جيوڤاني؟» همس حينما انضممتُ إليه، فأومأتُ بنعم. أتذكّر أن شمس الشتاء كانت ساطعة، لكني شعرتُ بالبرد والنأي مثل شمس ذاك اليوم.

«أمرٌ رهيب، رهيب، رهيب» أنَّ جاك.

«نعم رهيب» قلتُ. لم أستطع قول أيّ شيء آخر.

«أنا محتار لماذا فعلها، لماذا لم يطلب من أصدقائه أن يساعدوه» أضاف جاك ونظر إليّ. وكلانا نعرف أن جيوڤاني طلب المال من جاك آخر مرّة، وجاك رفض. لم أقل شيئا. تابع جاك: «قالوا أنه كان يتعاطى الأفيون، وكان يحتاج المال لأجل الأفيون. هل سمعت ذلك؟»

لقد سمعته، لقد كان خبرًا صحفيًا لديّ أسبابي الخاصّة لتصديقه، أتذكّر أن يأسه كان مُرعبًا وواسعًا جدًّا لدرجة أن اليأس صار فراغًا يُسيطر عليه. «أريد النّجاة، هذا عالم قذر، هذا جسم قذر. سوف أمارس الحب مع الجسد فقط ولا شيء سواه» قال لي مرّة.

انتظرَ جاك إجابتي. لكني كنت أنظرُ إلى الشارع وأتأهّب للمغادرة. وقد سيطر عليّ التفكير في موت جيوڤاني الوشيك، رغم أن جيوڤاني لا شيء الآن بالنسة لي، لكنه سيصير لا شيء إلى الأبد. «آمل أن الذنب ليس ذنبي، لم أعطه المال. ولو كنت أعلم أنه

سيفعل ما فعل، لأعطيته كل ما أملك» قال جاك أخيرًا، وكلانا نعرف أن هذه ليست هي الحقيقة.

«كنتما معًا، ألم تكونا سعيدين؟»

«لا» قلتُ ونهضتُ. «كان من الأفضل له لو بقي في قريته تلك في إيطاليا يزرع أشجار الزيتون ويُنجب كثيرًا من الأطفال ويضرب زوجته. لقد كان يحبّ الغناء» تذكّرتُ فجأة: «كان بإمكانه البقاء هناك وإنفاق حياته في الغناء، والموت على سرير».

قال جاك شيئًا فاجأني، أحيانا تُدهش لما يقوله الآخرون، حتى أنهم يفاجئون أنفسهم، إذا دُفعوا أو حُرِّضوا لأقصى حد. قال جاك: «لا أحد يبقى في جنّة عدن» وأضاف بعدها: «أتساءل لماذا». لم أجبه، ودّعته وتركته. حينئذ، مضتْ على عودة هيلا من إسبانيا فترة، خطّطنا خلالها أن نستأجر هذا البيت. كنت على موعد معها، لكن سؤال جاك استحوذَ على تفكيري. السؤال تافه لأن المشكلة الحقيقية للحياة هي أن الحياة نفسها تافهة جدًّا. الكلّ، في نهاية المطاف، يسير إلى الطريق المعتم ذاته، الذي يخادعك ويبدو مضيئًا، وكلّما توغّلتَ فيه ازداد عتمة وغدرًا. فعلًا لا أحد يمكث في جنّة عدن. بالطبع لم تكن جنة جاك هي ذاتها جنّة جيوڤاني، فجنّة جاك تضمّ لاعبي الكرة بينما تضمّ جنة جيوڤاني العذراوات، لكن الفارق ضئيل بينهما في النهاية. ربما لكل امرِئٍ جنة عدنه، لا أدري؛ لكنهم نادرًا ما يرون جناتهم بعين التقدير قبل لمعان حدّ السكّين وضياع كل شيء. وربما تمنحنا الحياة خيار تذكُّر تلك الجنة أو نسيانها. وربما أن الحياة نفسها تتطلب قوّة للتذكّر، وتتطلّب قوّة من نوع آخر للنسيان، وتقتضي بطولة حقيقيّة لفعل كليهما.

هناك أناس يستدعون النشوة عن طريق التألّم المستمرّ لموت براءتهم؛ وآخرون ينسون النشوة وينكرون الألم ويكرهون البراءة؛ والعالم منقسم غالبا بين المجانين الذين يتذكرون والمجانين الذين ينسون. أمّا الأبطال فهم نادرون.

لم يحبّذ جاك أن نتناول عشاءنا في شقّته لأن طعامه قد نفد، طعامه دائمًا ينفد، كان يأتي بأولاد من المقاطعات من خارج باريس، الله وحده يعلم كيف، يجلبهم إلى بيته ليعملوا طبّاخين؛ وبالطبع حالما يكتشف الأولاد العاصمة، يقرّرون أن آخر شيء يريدون فعله هو الطبخ. وغالبًا ما يعودون إلى أقاليمهم وقُراهم أولئك الذين لا ينتهي بهم الحال في الشوارع أو السّجون، أو الهند الصينيّة.

التقيتُ جاك في مطعم جميل في شارع غرونيل، وخطّطتُ لاستدانة عشرة آلاف فرنك قبل أن ننتهي من وجبة المقبّلات. كان جاك في مزاج جيّد، وكان مزاجي رائقًا أيضًا، وهذا يعني أننا سننتهي إلى احتساء الخمر في حانة جاك المفضلة المزدحمة والصّاخبة، والتي تشبه نفقًا ضيّقًا. أنه مكان مريب، أو بالأحرى ليس مريبًا على الإطلاق، بل هو مكان ذو سمعة سيئة، ومن وقت لآخر كانت الشرطة تدهم الحانة، لكنهم يغضّون الطرف عن **غيّوم**، المالك، الذي يستطيع دائمًا، في المساء المرتقب لمجيء الشّرطة، أن يحذّر زبائنه المفضّلين بوجوب التأكّد من حمل بطاقاتهم التعريفيّة، وإلا فمن الأفضل لهم التواجد في مكان آخر.

أتذكّر الحانة في ذلك المساء، كانت صاخبة جدًّا أكثر من المعتاد. مرتادوا الحانة من الزبائن والعابرين ينشغل بعضهم بالبحث عن

فريسة، والبعض الآخر يحدّق فقط. كانت هناك مجموعة من ثلاث باريسيّات أو أربع، أنيقات جدًّا، يجلسن حول طاولة مع مرافقيهن، أو ربما عُشّاقهن، أو ببساطة أقربائهن، الله وحده يعلم؛ كانت السيّدات مُفعمات بالحيويّة، بينما بدا مرافقوهن أكثر صرامة؛ وكنّ كذلك يحتسين الشّراب أكثر منهم. هناك أصحاب الكروش أيضًا، رجالٌ ذوو نظارات بعيون نهمة، وأحيانًا يائسة، يرتدون كالعادة سراويل ضيّقة، ويتّكئون على حوافّ الطاولات كأنّهم راكعون. لا يمكن للمرء أن يكون دقيقًا فيما يتعلّق بهم: هل يبغون المال، أو الحبّ، أو الانتقام؟ كانوا يتنقلون في الحانة دون انقطاع، يتسوّلون السجائر ويشربون، مع شيء خفيّ في عيونهم، يبدو في لحظة ما رقيقًا جدا، وفي اللحظة التالية يصير قاسيًا جدا. بالطبع كانوا من أولئك \الحمقى، الذين يلبسون ملابس غير متجانسة أو أطقمًا متنافرة، ويصرخون بتفاصيل علاقاتهم الغراميّة الأخيرة مثل ببغاوات. علاقاتهم الغراميّة بدت دائما مرحة. دائمًا ما يصل أحدهم، في آخر الليل، إلى الحانة متأخرًا فيدخل مثل عاصفة، صائحًا أنه ("أنّها" كما يتحدث بعضهم عن بعض) كان يقضي الوقت مع ممثل سينمائي مشهور، أو ملاكم. فيتحلّقون قريبًا حول هذا القادم الجديد مثل طواويس في حديقة، لكنّ أصواتهم تعلوا وكأنّها خارجة من إسطبل. يصعب عليّ تصديق أنهم يذهبون إلى الفراش برفقة أحد ما. فإذا تعلّق الأمر برجل يبغي امرأة، فإنه بالتأكيد سيبحث عن امرأة حقيقيّة، وبالنسبة لرجل يبحث عن رجل آخر، فمن المؤكد أنه لا يريد واحدًا منهم. ربما لهذا السبب كانوا يتصارخون بصوت عالٍ جدًّا.

هناك الولد الذي يعمل اليوم كلّه، كما قِيل، في مكتب البريد والذي كان يظهر في الليل وهو يضع المكياج وأقراط الأذن، رافعاً شعره الأشقر السّميك إلى الأعلى. أحيانًا كان يرتدي تنورة وكعبًا عاليًا، ويقف وحيدًا دائما ما لم يقترب منه غيّوم ليمازحه. كان الناس يقولون أنه شخص لطيف، لكني أُقرّ أن بشاعته المطلقة أصابتني بالاشمئزاز؛ الاشمئزاز نفسه الذي يصيب المرء عند رؤية القرود وهي تأكل برازها، مما يسبّب القيّؤ لبعض الناس. ربما يبدو الأمر كلّه غير مهم، لولا أن القرود بيشاعتها الشديدة تشبه الكائنات البشرية.

كان موقع هذه الحانة عمليًّا ضمن حارتي، وسبق لي تناول الفطور مرّات عدّة في المقاهي القريبة، ومراقبة طيور الليل من المتقاعدين في الحيّ وهي تعود بعد إغلاق الحانات. كنت أحيانًا مع هيلا، وأحيانًا أخرى وحدي. لقد أتيتُ إلى هذه الحانة من قبل. مرتين أو ثلاث؛ كنت ثملًا جدًّا في إحداها، وخُيّلَ إليّ أني غازلتُ جنديًّا. ما أذكره عن تلك الليلة هي سعادةٌ مُعتمة جدًّا، فأخذتُ عهدًا على نفسي بعدها أنه مهما سأكون مخمورًا، فلن أفعل ما فعلته مجدّدا. لكن وجهي صار مألوفا وتولّد عندي إحساس أن الآخرين كانوا يتراهنون عليّ، كما لو أنهم شيوخ طائفة غريبة وصارمة يراقبوني عن طريق الإشارات والعلامات التي أفعلها، لكن ما يمكنهم قراءته من تلك الإشارات ربما يحمل نداء الحقيقة، وقد يكون وهمًا.

أدرك جاك، كنت مدركاً سلفًا، أننا اتّخذنا طريقنا نحو المشرب في الحانة وكأننا نتحرك في حقل من المغناطيس أو على وشك الوصول إلى حلقة بشريّة مُلتهبة تحوط العامل الجديد في الحانة.

وقف مثل نمر بوقاحة وعجرفة، مرفقاه تستقرّان على آلة عَدّ النّقد، ويحدّق في حشد الزبائن، وأصابعه تداعب ذقنه كما لو أنه واقف على صخرة ناتئة عالية ونحن نموج تحته مثل موج البحر. اتّجه جاك نحوه في الحال، شعرت به، كمّن يهيّئ نفسه للغزو حتى يبدأ الكلام. شعرت بضرورة احتمال الموقف.

قلت له: «أنا متأكد أنك تريد التعرّف على النادل الجديد. لذا سأختفي في أيّ وقت يناسبك». اختلط في تسامحي معه، مقدارٌ ضئيل من التواطؤ الضمنيّ والخُبث، لأني كنت أريد اقتراض المال منه حينما اتّصلت به. عرفتُ أن جاك يريد الحصول على الولد قبل الجميع، لو كان الولد في الواقع للبيع؛ وإذا كان يعرض نفسه وسط مزاد ذكوريّ علني بهذه الغطرسة والوقاحة فإنّه لا محالة سوف يجد مشترين أكثر غنًى وجاذبية من جاك. أدركتُ أن جاك يعرف هذا، وأدركتُ شيئاً آخر أيضًا: أن ادّعاء جاك مودّتي، كان في الحقيقة مرتبطاً برغبته في التخلّص منّي سريعًا، وبقدرته على الاستخفاف بي مثلما يستخف بذلك الجيش من الأولاد الذين مروا على سريره دون حُب. لكني كنت أحتقره وأشعره بوخز هذا الاحتقار وأُمسكُ نفسي عن مجاراته بالتظاهر أننا أصدقاء على هذا النحو. تظاهرتُ بالتغافل وعدم معرفه ما يبتغيه منّي، لم تخبُ الشهوة في عينيه السّاخرتين اللامعتين، واستثمرتُ ذلك بوسائل منحطّة ودنيئة. كنتُ صريحًا معه وأخبرته أن قضيته معي خاسرة، لكني ضمنيًا أجبرته مرّات لا حصر لها على الأمل. وأخيرًا كنتُ أدري، أن مرافقتي جاكَ هي نوع من الحماية له في الحانات التي تُشبه هذه الحانة. إذ طالما أنا برفقته فإن العالم كلّه

يرانا. وبإمكان جاك تصديق أنه يُمضي الليل معي، وأنه يسهر مع صديقه، ولم يخرج بسبب الحاجة إلى فريسة، وهو ليس تحت رحمة مُغامرٍ قاسٍ تضعه الصدفة في طريقه، أو تحت رحمة قوانين العوز الحقيقي أو العاطفي الذي ربما تقذف به إلى طرق غير محمودة العواقب.

«ابق هنا، سوف أراقب النادل من حين لآخر وأحدثك، وبهذه الطريقة سوف أوفّر نقودي، وأبقى سعيدًا أيضًا.» قال جاك.

«أين وجد غيّوم هذا الفتى؟» قلتُ، لأنه كان تمامًا ذلك النوع من الأولاد الذين طالما حلم بهم غيّوم ومن النادر العثور عليهم.

«ماذا تشربان؟» سألَنَا. ثمّة نبرةٌ في صوته تؤكّد أنه لا يتكلّم الإنكليزية، لكنه حدس إننا كنّا نتكلم عنه وتمنّى أن يكون حدسه صحيحًا .

«كونياك مع ماء» قلتُ.

«كونياك فقط» قال جاك.

نطقنا ذلك معًا وبسُرعة. تضرّج وجهي بالدم، وأدركتُ أن جيوڤاني لاحظ ذلك من البسمة الخفيفة في وجهه، بينما كان يقدّم لنا كأسَيْنا. أساء جاك تفسير ابتسامة جيوڤاني متعمّدًا، كي يجعل منها فرصة للحديث معه.

«أنت جديد هنا؟» سأله جاك بالإنكليزية. فهم جيوڤاني السؤال حالًا، لكنه اعتقد أنه من الأفضل أن يرمق جاك بنظرة حائرة ثم يحوّل نظره إليّ، ثم يُعيد عينيه إلى جاك. ترجمَ جاك له السؤال. فهز جيوڤاني كتفيه وردّ: «منذ شهر».

عرفتُ أين ستنتهي هذه المحاورة بينهما، لذلك ارتشفتُ من كأسي

وحوّلتُ عينيّ إلى الأسفل.

«لابدّ أنك شعرتَ بغرابة المكان» قال جاك وهو يحاول طَرْق الحديد، ولو بلمسة خفيفة.

«غرابة، لماذا؟» سأله جيوڤاني. قهقه جاك. وأشعرتني صُحبته بالحرج فجأة.

«آه هؤلاء الرجال،» وكنت قد خَبِرتُ ذلك الصوت اللاهث واللجوج لجاك، ذا النّبرة العالية، الذي يعلوا حتى على أصوات الفتيات، الصوت اليابس الذي يوحي، بطريقة ما، بالجفاف المطلق والحرارة القاتلة التي قد تخيّم فوق بركة مياه في شهر يوليو: «كلّ هؤلاء الرجال مع عددٍ قليل من النساء. ألا يبدو ذلك غريبًا لك؟» لهث جاك.

«ها... لا شكّ أن النساء ينتظرن في المنزل» قال جيوڤاني مستديرًا كي يخدم زبونا آخر.

«أنا متأكد أن إحداهن في إنتظارك...» ألحّ عليه جاك، لكن جيوڤاني لم يستجب لإلحاحه.

«حسناً، لم يستغرق ذلك وقتًا طويلًا، لقد ذهب هو، وحصلتَ أنت عليّ الآن كلّي، آمل أن ذلك يُفرحك!» قال جاك ذلك موزّعًا انتباهه بيني وبين الزّبون الآخر الذي يخدمه جيوڤاني.

قلتُ: «أنت تتعامل مع الأشياء على نحو خاطئ. لقد جُنّ بك. لكنه لا يريد أن يظهر تلهفه. اطلب له شراباً. تحرَّ عن المحل الذي يتمنى شراء ثيابه منه. أخبره عن سيّارة ألفا–روميو المثيرة تلك والتي تتمنّى أن تهديها لنادلٍ يستحق!»

رد جاك: «الوضع مسلٍّ حقاً»

«حسناً، من الأكيد أن القلوب الضعيفة لا تربح سباقًا عادلًا» قلتُ.

«على كل حال، أنا متأكد أنه يضاجع الفتيات. يفعلون ذلك دائمًا، كما تعلم»

«سمعتُ عن أولاد يفعلون ذلك. بهائم مقرفون!» أضفتُ.

ساد صمت بيننا لفترة.

«لماذا لا توجّه له الدعوة أنت كي يتناول شرابًا معنا؟» اقترح جاك.

نظرت إليه: «أنا؟ حسنا، قد تجد صعوبة في تصديق هذا، لكني في الحقيقة، عليلٌ نوعا ما بحب النساء. لو كانت له أخت حسنة المظهر، سأدعوها لتناول الشراب معنا. أنا لا أنفق نقودي على الرجال.»

أحسست بجاك يقاوم نفسه كي لا يقول لي (لكنك لا تمانع ولا تعترض في أن ينفق عليك الرجال)؛ وراقبتُ كيف اختصر ما في داخله إلى ابتسامة ساخرة طفيفة، عرفتُ أنه لا يجرؤ أن يواجهني بتلك الحقيقة؛ قال بعدها مع تلك الابتسامة السّاخرة الجريئة: «أنا لا ألّمح إلى أن تخاطر ولو لحظة برجولتك وكبريائك وسعادتك. كنت أقترح أن تأتي الدعوة منك لأنه دون شك سوف يرفض دعوتي.»

«لكن، يا رجل، فكر في الالتباس، سيظنّ أنّي أنا من يشتهي جسده. كيف سنخرج من تلك الورطة؟» قلت وأنا أبتسم.

«إذا حدث أيّ التباس سأكون سعيدًا لتفسيره» قال جاك بمهابة، كلانا خمّن ما يفكر فيه الآخر للحظة. ضحكتُ بعدها وقلت له: «انتظر حتى يعود إلى جهتنا مرة أخرى. أتمنى لو أنه يطلب زجاجة

كبيرة من أغلى أنواع الشمبانيا في فرنسا!» شعرتُ بالجذل واتّكأتُ على مشرب الحانة واستدرتُ. كان جاك بجانبي، مرّت بي شفقة سريعة وحادة تجاهه.

ذهب جيوڤاني إلى باحة الحانة يخدم الزبائن الجالسين إلى الطولات وعاد يحمل صينية مثقلة مع ابتسامة كالحة على وجهه.

قلتُ لجاك: «ربما من الأفضل لو نفرغ كأسينا» أنهينا شرابنا وأعدتُ كأسي إلى مكانه.

صحتُ: «يا نادل، هل لك أن تأتي لي بكأسٍ أخرى؟»

«نعم» قال، واستدار إلى الناحية الأخرى.

قلت له مرة أخرى: «يا نادل نحب أن ندعوك إلى شراب.»

سمعنا صوتا قويا خلفنا يقول: «حسنا!لم تكتف فقط بإفساد لاعب الكرة الأمريكي العظيم هذا، لكنك تستخدمه لإفساد نادلي. هل أنت جادٌّ يا جاك! في مثل سنّك!»

كان غيّوم واقفا خلفنا، يبتسم كما لو أنه ممثّل سينمائي، ويلوّح بذلك المنديل الأبيض الطويل الذي لا يُشاهَد في الحانة دونه.

استدار جاك مبتهجا جدا باتّهامه بتلك الغواية النادرة، ضمّا بعضهما، هو وغيّوم، كأنهما ممثّلتين في مسرح.

«حسناً يا عزيزي، كيف حالك؟ لم أرك منذ وقت طويل.»

«كنت مشغولا جدا» قال جاك.

«دون شك! ألا تخجل من نفسك، أيها العجوز الخرف؟»

«وأنت؟ بالتأكيد لم تكن تضيع وقتًا!» خزر جاك جيوڤاني حانة تياح، كما لو أنّ جيوڤاني حصان مضمار باهظ الثمن، أو قطعة خزف صينيّة ثمينة. تتبّع غيّوم نظرة جاك فأخفض صوته قائلًا:

«آه، هذا، يا عزيزي، أنه عَمَلٌ حقيقيّ بكلّ معنى الكلمة، هل فهمت؟»

إبتعدا عنّي قليلًا، فشعرتُ فجأة بصمت مزعج يُحيط بي. قرّرتُ أخيرًا رفع بصري ونظرتُ إلى جيوڤاني، كان يراقبني بدوره.

قال لي: «أعتقدُ أنّك دعوتني إلى كأس؟»

«نعم، كنت قد دعوتك إلى كأس.»

«لا أحتسي الكحول أثناء العمل، لكنّي سأشرب كوكاكولا.» ورفع كأسي الفارغة عن مشرب الحانة.

«ولك كوكاكولا أيضًا؟»

«نعم.» شعرتُ بالفرح للحديث معه، وأحسستُ بالخجل من فرحي هذا، وبأني مُعرّض للخطر لأنّ جاك لم يكن إلى جانبي. تحتّم عليّ أن أدفع ثمن الكوكاكولا في كلّ الأحوال، من المستحيل قبول أن يشمّر جاك عن ساعديه ويدفع الحساب، وكأنني تحت وصايته. سعلتُ ووضعت عشرة آلاف فرنك على مشرب الحانة.

وضع جيوڤاني شرابي أمامي وقال: «أنت غني.»

«لا... ببساطة ليس عندي ورقة ماليّة أقلّ.»

ابتسم، ولم أستطع تخمين معنى ابتسامته تلك، هل ظنّ أني كاذب؟ أو لأنه علم أنّي أقول الحقيقة؟ أخذ الفاتورة في صمت وحلّق بها، وبحذر عَدّ ما تبقّى من قطع النقود أمامي على مشرب الحانة. ملأ بعدها كأسه وعاد إلى مكانه خلف آلة عدّ النقود. أحسستُ بضيق في صدري.

«نخبك» قال.

«نخبك» وشربنا.

سألني أخيرًا: «أنت أمريكي؟»
«نعم، من نيويورك» أجبته.
«آها! أخبروني أن نيويورك جميلة جدا. هل هي أكثر جمالا من باريس؟»
«آه لا، لا مدينة أجمل من باريس» قلتُ.
أضفتُ بعدها: «يبدو أن أيّ إجابة أخرى من شأنها إثارة غضبك.»
رد جيوڤاني بابتسامة: «سامحني، لا أحاول أن أكون استعراضيًّا.»
قال بعدها بجديّة كأنه يسترضيني: «أنت تحبّ باريس جدا.»
قلت بتشنج بسيط، وسمعتُ صوتي يحمل نبرة الدفاع: «أحب نيويورك أيضا، نيويورك مدينة جميلة لكن بطريقة مختلفة تماما.»
سألني بتجّهم: «بأيّ طريقة تقصد؟»
أجبته: «لا أحد يقدر على تخيّلها قبل أن يزورها. هي مدينة حديثة ومرتفعة ومثيرة بأضوائها،» وتوقّفت، ثمّ قلت: «من الصّعب وصفها، إنها مدينة القرن العشرين تمامًا.»
«وهل تعتقد أن باريس لا تنتمي لهذا القرن؟» سألني بابتسامة أشعرتني بالغباء قليلا. قلتُ: «حسناً، باريس مدينة عريقة عمرها عدّة قرون. باريس تُشعرك أن زمنا طويلا مرّ عليها. وهذا ما لا تشعر به في نيويورك.» ابتسمَ، وسكتُّ.
«وكيف تشعر في نيويورك؟» سأل.
أجبتُ: «ربما تشعر أنّ الزمن كلّه أمام نيويورك. تشعر بالحيوية، كل شيء في حركة دائمة، وستسأل نفسك، كيف سيكون حال هذه المدينة بعد سنوات عديدة.»

«بعد سنوات عديدة من الآن؟ عندما نكون أمواتًا ونيويورك لم تعد حديثة؟»

قلت: «نعم، عندما يتعب الجميع، وعندما تكفّ حياة الأمريكان عن أن تكون متطورة جدا.»

«لا أستطيع استيعاب لماذا يبدو العالم بالنسبة للأمريكيين جديدًا! على أيّ حال، أنتم مجرّد مهاجرين، ولم يمضِ على رحيلكم عن أوربا فترة زمنيّة طويلة.» قال جيوڤاني.

قلت له: «المحيط واسع جدا، لقد عشنا منذئذ حياة مختلفة عنكم؛ الوقائع التي حدثت لنا هناك لم تحدث هنا. متأكد أنك تفهم أن ذاك من شأنّه أن يصيّرنا أناسًا مختلفين...»

«آه! لو كنتم فعلًا أناسًا مختلفين!» ضحك، وتابع «لكن يبدو أنّكم تحوّلتم إلى كائنات مختلفة! أنتم لا تعيشون في كوكب آخر؟ أليس كذاك؟ لأني أعتقد أنّ ذلك سيفسّر كلّ شيء!»

«أعترف بذلك!» قلتُ بعصبيّة، لأنّي لا أحب أن يضحك الآخرون عليّ «نُعطي أحيانًا الانطباع بأنّنا نظنّ ذلك فعلًا، لكننا لا نعيش في كوكب آخر، لا. ولستم كذلك أنتم أيضًا، يا صديقي.»

ابتسم مرّة أخرى: «لن أناقش تلك الحقيقة البائسة مجدّدًا!»

لَفَّنا الصّمت برهة، تحرك جيوڤاني لخدمة عدد من الزبائن في نهايتَي مشرب الحانة. كان غيّوم وجاك ما يزالان يتحادثان. بدا غيّوم كما لو أنه يسرد حكاياته التي لا تنتهي، حكاياته التي تتمحور غالبا حول مخاطر العمل أو مخاطر الحب. كان فم جاك ممطوطًا بابتسامة تنمّ عن ألم. شعرتُ أنه يتلهف للعودة إلى مشرب الحانة. جلس جيوڤاني أمامي يفصلنا المشرَب، وبدأ بمسحه بقماش رطب.

«الأمريكيون مضحكون. إحساسكم بالزمن غريب، أو ربما معدومٌ تماما، لا أستطيع الشرح. دائما يبدو الزمن عندكم كما لو أنه استعراض، مثل استعراض المنتصرين الذين يحملون أعلامهم ويدخلون مدينة ما. كأنّ الزّمن نفسه بطيء جدا ولا يمكنه اللحاق بالأمركيين، أليس كذلك؟»

لم أقل شيئًا. نظر نحوي بسخرية وأكمل: «... وكأنّكم مع توفّر الزمن الكافي وتلك القوة المخيفة والمزايا التي يتمتّع بها الأمريكيون، سيُحلّ كل شيء ويستقر ويأخذ مكانه الصحيح» وأضاف مبتسمًا «وعندما أقول كل شيء، فإنني أعني كل الأمور الجادّة والمروّعة في حياة الإنسان مثل الألم والموت والحب، تلك الأمور التي لا تؤمنون بها أنتم الأمريكيون.»

«ما الذي جعلك تظن أننا لا نؤمن بتلك الأمور؟ وما الذي تؤمن به أنت؟»

«لا أؤمن بذاك المفهوم الاعتباطي عن الزمن. الزمن شيء عادي، مثل الماء للسمكة. الجميع في هذا الماء، لا أحد يقدر أن يعيش خارجه، ولو جرّب، فسيحصل له ما يحصل للسمكة، سيموت. وأنت تعرف ما الذي يحدث في هذا الماء/ الزمن؟ السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة. هذا كل ما في الأمر. السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة بينما المحيط لا يأبه.»

«أوه، رجاءً، أنا أيضًا لا أؤمن بتلك الأقاويل عن الزمن، فهو مياه ساخنة، ونحن لسنا أسماكًا، لأنّه باستطاعتك ألّا تغدو مأكولًا، وألّا تأكل أيضًا، ألّا تأكل تلك الـ...» ثم أضفتُ بسرعة، وقد احمرّ وجهي قليلًا قبل أن يبتسم ابتسامته الفَرِحة التهكميّة تلك: «تلك

السّمكة الصغيرة على الإطلاق!» فصاح جيوڤاني، وأدار وجهه عنّي كأنه يُحدّثُ حليفًا غير مرئيّ كان يسترق السمع إلى مناقشتنا هذه منذ البداية «أن تختار» قال، والتفت إليّ مجددًا «آه، أنت حقًّا أمريكيّ. أُقدّر حماستك هذه»

«وأنا أقدّر حماستك أيضًا» قلتُ بلباقة «رغم أنّها تبدو نسخةً داكنة من حماستي نفسها.»

قال باعتدال: «في كل الأحوال، ما انت فاعل بالسّمكة الصغيرة غير أن تأكلها. ما نفعها إذا لم نأكلها؟»

«في بلدي» قلت ذلك بينما أشعر بحرب غامضة تقوم في داخلي «يبدو أن الأسماك الصغيرة اجتمعت وراحت تعضّ جسد الحوت.»

رد جيوڤاني: «ذاك لن يجعل الأسماك الصغيرة حوتًا، والنتيجة الوحيدة لذلك العضّ هو اختفاء كل مَن هو نبيلٌ وصاحب فخامة من كلّ مكان، حتى من أعمق أعماق المحيط.»

«وهل هذا هو اعتراضك علينا؟ أنّنا لسنا نبلاء؟»

ابتسم– ابتسم مثل شخص رأى أخيرًا ضعف موقفه المُعارِض، فراح يتهيّأ لإسقاط حججه كلّها لعدم صلاحيتها: «ربما.»

«الناس هنا غير محتملين» قلتُ «أنتم من قتلتم النبلاء بحجارة الأرصفة، هنا في هذه المدينة. وتتحدّث عن الأسماك الصغيرة التي...» ابتسم هو، فسكتُّ.

«لا تسكت، أنا أستمع لك» قال وهو ما يزال يبتسم ابتسامته العريضة.

أنهيت شرابي وقلتُ له مشاكسًا: «أنتم ألقيتم قاذوراتكم تلك

علينا، والآن تتهموننا أننا برابرة لأن رائحتنا كريهة!»
أسعدته مشاكستي، قال: «أنت ساحر، هل تتحدث دائما هكذا؟»
«لا» قلت ونظرت إلى الأسفل «لم أتحدّث هكذا قط.»
ثمّة تغنّجٌ في حديثه عندما قال لي بعدها: «أنا مُنبهر...» مع جاذبيّة مفاجئة تبعثُ على الارتباك، لكن لم تختف منها هنَة سخريته.
سألته: «وأنت، هل أنت هنا منذ وقت طويل؟ هل تحب باريس؟»
تلعثم لحظةً ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وغدا أكثر صبيانيّة وخجلًا. قال: «إنها شديدة البرودة شتاءً، لا أحبّ ذلك. ولا أجد الباريسيين ودودين جدا، وأنت؟» لم ينتظر جوابي، أضاف: «إنهم لا يشبهون الإيطاليين الذين عرفتهم عندما كنت صغيرًا. ففي إيطاليا نحن حميمون، نرقص ونغني ونمارس الحب، لكن هؤلاء الناس، هؤلاء الناس...» وألقى نظرة عبر الحانة كلّها، ثمّ عاد بنظرته إليّ، وأنهى شربُ الكوكاكولا، وقال «إنّهم قُساة، لستُ أفهمهم.»
قلتُ له مشاكسًا: «لكن الفرنسيّين يقولون إن الإيطاليّين مائعون جدًّا ومتقلّبون، ويفتقدون حُسن التدبير.»
صاح جيوڤاني: «حُسن التدبير! آه، يا لهؤلاء الناس وتدابيرهم! يزنون الغرام، ويقيسون السنتيمتر، هؤلاء البشر، ويستمرون بتكديس الخردوات التي يجمعونها في المخازن أو تحت الأسرّة، خردة فوق خردة، سنة بعد سنة، وماذا ينفعهم تدبيرهم؟ بلدٌ يتداعى، تدبيرٌ بعد آخر، أمام أعينهم. لا أريد أن أؤذي سمعك بالتفوه بالأشياء كلّها التي يدبّر أمرها هؤلاء البشر قبل أن يُجيزوا لأنفسهم أيّ فعل. هل لي أن أدعوك إلى شراب الآن؟» ثمّ سألني

فجأة: «قبل أن يأتي الرجل العجوز... من هو؟ هل هو عمّك؟»
لم أتبيّن قصده من وراء مفردة "عمّك" التي نطقها، هل كانت مجازًا؟ أم أنه عنى صلة الدم الحقيقية؟ شعرتُ برغبة شديدة لتوضيح الأمر، لكني جهلت الكيفية. فضحكتُ وأجبته: «لا، هو شخصٌ أعرفه وحسب، وليس بعمي.»
فرمقني جيوڤاني. أشعرتني نظرته تلك أنّ لا أحد خلال حياتي من قبل قد نظر إليّ بشكل مباشر هكذا. قال مبتسما: «أتمنى ألّا يعني لك شيئا. فأنا أظنّه شخصًا سخيفًا، ليس شريرا بالطبع، أنت تفهم، هو فقط سخيفٌ صغير.»
قلتُ: «ربما» وشعرتُ للحظة أنّي خائن، لذا أضفت بسرعة: «هو ليس سيئاً، في الحقيقة هو لطيف بعض الشّيء.» فكّرتُ أنّ هذه ليست الحقيقة أيضًا، فجاك أبعد ما يكون عن اللطف.
قلتُ: «على كلّ، هو ليس عزيزا عليّ جدًّا» وفورًا، شعرتُ مجدّدًا بذاك الضّيق الغريب في صدري، وتحيّرتُ من نبرة صوتي.
سكب جيوڤاني لي بحرص شرابي، وقال: «نخب أمريكا!»
رفعت كأسي: «شكرا لك، ونخب القارة القديمة!» ثم سكتنا بُرهة.
سألني جيوڤاني فجأة: «هل تأتي إلى هذه الحانة دائمًا؟»
«لا، ليس دائمًا.»
فشاكسني بينما شعاع ساخر رائع سطعَ على وجهه: «لكنك ستأتي أكثر في الأيّام اللاحقة؟»
تلعثمتُ: «لماذا؟»
«آه! ألا تعرف أنه بات لك صديق الآن في هذا الحانة؟»
عرفتُ حتمًا أني بدَوتُ كالأحمق، وحتى سؤالي كان أحمقًا أيضًا:

«بهذه السرعة؟»
نظر إلى ساعته وقال بهدوء: «لِمَ لا؟ نقدر أن ننتظر ساعة أخرى إذا أحببت! ويمكننا أن نصبح أصدقاء بعدها. أو ننتظر حتى موعد غلق الحانة، وعندها سنصبح أصدقاء. أو ننتظر إلى الغد، وهذا سيعني أنّك يجب أن تأتي إلى هنا في الغد، عندها ربما يمكننا أن نفعل شيئا آخر.»
نزع ساعته ووضعها جانباً وأسند مرفقيه على مشرب الحانة: «أخبرني، ما ذاك الشيء المتعلّق بالزمن؟ لماذا من الأفضل أن نتأخر على أن نكون مبكّرين؟ يقول الناس دائما أنه علينا الانتظار، يجب علينا أن ننتظر. فماذا ينتظرون؟»
وشعرت بنفسي تنقاد إلى جيوفاني وتهوي إلى أعماق مياه خطرة، قلتُ: «حسنا، أظن أن الناس ينتظرون من أجل التأكد من مشاعرهم.»
«لأجل التأكد!» واستدار إلى حليفه غير المرئيّ، وضحك مرّة أخرى. بدأتُ أشعر أن شبحه مثيرٌ للأعصاب قليلًا. لكن قهقهته، في ذاك النّفق الخالي من الهواء، تعلوا بصوتٍ خلّاب: «واضح جدا أنك فيلسوف حقيقي» وأشار بإصبعه إلى قلبي: «وهل عندما انتظرت، تأكدت؟»
لم أستطع تكوين أيّ جواب على ذاك السؤال. صاح أحد الزبائن من وسط الحانة المعتم المكتظّ: «يا ولد!» وتحرّك جيوڤاني بعيدا عني مبتسمًا: «يمكنك الانتظار الآن، وأخبرني عن تأكّدك من مشاعرك عندما أعود.»
أخذ معه صينيّته المعدنيّة المدورة وتحرك نحو الزحام. راقبته وهو

يبتعد. وراقبت وجوهًا أخرى كانت تراقبه. شعرتُ بالقلق لأني عرفتُ أنهم كانوا يراقبوننا معًا طوال الوقت. عاينوا بداية شيء ما، ولا يريدون الكفّ عن المراقبة حتى يشهدوا النهاية. انقلبتْ الأدوار الآن، وقد استغرق ذلك بعض الوقت، لكنني أنا الآن مَن في حديقة الحيوانات، وهم المراقبون.

وقفتُ عند مشرب الحانة فترة من الوقت وحدي، رغم نجاح جاك في الهرب من غيّوم، لكنّه، المسكين، تورّط في محادثة مع ولدين شقيّين من أولئك أصحاب الاتّكاءة الرّاكعة. عاد إليّ جيوڤاني لحظة وغمز لي.

«هل تأكّدت؟»

«أنت تفوز. أنت الفيلسوف.»

«آه، يجب أن تتأنّى قليلًا. أنت لا تعرفني بالقدر الكافي كي تقول عني مثل تلك الأمور» ثمّ ملأ صينيّته واختفى مجدّدًا.

جاء شخص لم أره من قبل، خرجَ من عتمة الحانة نحوي. بدا مثل مومياء أو زومبي. ذاك هو الانطباع الأوّل الذي غمرني نحوه. كأنّه شخص قام من لحده بعد ان وضعوه للتوّ فيه. كان فعلًا يحمل هيئة المتسرنم، كأنّه ممثّل يتحرك حركة بطيئة كالّتي نراها في السينما. كان يحمل كأسه، ويمشي على أطراف أصابعه، بينما تتحرك ردفاه المسطحتان بخلاعة ميّتة ومروّعة. بدا كأنه لا يصدر صوتا؛ ربما بسبب ضجيج الحانة الذي يشبه هدير البحر الذي يُسمعُ من مسافة بعيدة ليلًا. كان يومض في العتمة: شعره الأسود الخفيف المغمور بالزّيوت وقد رجّلَه إلى الإمام نحو ناصيته. والجفنان مثقلان بالماسكرا، والفم يرغي بأحمر الشفاه. وجهه

أبيض فاقد للحيوية مع مسحة من كريم الأساس؛ وتنبعث منه رائحة تشبه البودرة وعطر الغاردينيا. القميص مفتوح الأزرار إلى سرّة البطن بغنج، يكشف عن صدر أملس وصليب فضيّ؛ كانت تتعلّق في قميصه قِطَعٌ دائريّة رقيقة رقّة الورق فاقعة الألوان: حمراء وخضراء وبرتقاليّة وصفراء وزرقاء، تبرق ألوانها بفعل الإنارة ما يبعث على الشعور بأن المومياء سوف تشتعل وتتلاشى في اللهب. يطوّق خصره حزامٌ أحمر، وبنطاله العلّاق يفاجئك بلونه الرماديّ الداكن، وعلى حذائه إبزيمان. لم أكن متأكدا من أنه قادم نحوي، لكني لم أستطع إبعاد نظري عنه. وقف أمامي، إحدى يديه على ردفه الذي يليها. تفحصني من أعلى إلى أسفل، ثم ابتسم. فاحت من أسنانه رائحة كريهة جدا، كأنه مضع الثوم تواً. كانت يداه، كما لاحظت، كبيرتين جدًّا وقويتين.

قال: «حسنا، هل يعجبك؟»

«ماذا؟» قلتُ.

لم أكن في الحقيقة متأكّدًا من أني سمعته جيّدًا، رغم أن العينين اللامعتين كانتا تنظران، كما ظننتُ، إلى شيء ظريف في تجاويف جمجمتي. تلك العينان لم تتركا لي مجالا للشك في ذلك.

«يعجبك النادل؟»

لم أعرف ماذا أفعل أو أقول. بدا لي من المستحيل أن أضربه؛ ويستحيل أيضًا أن أغضب في وجهه. بدا لي الموقف كلهّ غير حقيقيّ، حتى هو بدا غير حقيقي أيضًا. بالإضافة إلى عدم أهميّة ما سأقوله، فإن تلك العينان ستسخران مني في الأحوال كلّها. قلتُ، بكل الاستخفاف الذي أملكه: «وما همّك انت؟»

«لا يهمني على الإطلاق، عزيزي. لا يهمني.»
«رجاءً إذن، اذهب إلى الجحيم بعيدًا عني!»
لم يتحرك من فوره، بل تبسّم لي مرّة أخرى: «كما تعرف، أنه أمر خطير. وبالنسبة لرجل مثلك، فهو رجل خطر جدا.»
نظرتُ إليه، وسألته بعينيّ ماذا يعني؟ قلتُ له: «اذهب إلى الجحيم» ثم أدرت له ظهري.
حدّق فيّ مجدّدًا وضحك، مُظهرا كلّ أسنانه التي لم يتبق منها الكثير: «آه، لا، لن أذهب إلى الجحيم» وتشبّث بصليبه بيد واحدة كبيرة وقال: «يا صديقي العزيز، أنت من سيُحرَق في نار حامية!» وضحك مرّة أخرى: «آه، ويا لها من نار!» ولمس رأسه: «هنا!» ثم تلوّى كما لو أنه ملتاع: «في كلّ مكان» ولمس قلبه: «وهنا!» ونظر إليّ بخبث وسخرية وشيء آخر لم أميّزه؛ نظر إليّ كما لو أنني بعيدٌ جدًّا. ثم طلب مني قائلًا:
«أوه، ياصديقي الطيّب، اليافع جدا، والقوي جدا، والوسيم جدا– ألا تبتاع لي شرابا؟»
أجبته: «اذهب إلى الجحيم.»
تغضّن وجهه بأسى مثل طفل رضيع ورجل عجوز معًا، أسىً يشبه أسى ممثلات غادرهن جمالهن الهشّ الطفولي الذي صنع شُهرتهن. ضاقت العينان السوداوان بالغلّ والحنق، وتمطّى الفم القرمزي إلى الأسفل مثل قناعِ وجهٍ تراجيديّ. قال: «ستصاب بالهمّ، ستصبح حزينا جدا. تذكّر أنّي قلت لك ذلك.»
ثم اعتدل، كما لو أنه أميرة، ومضى، يبرُقُ مبتعدًا في الزحام حتى اختفى.

قال جاك: «جميع من في الحانة يتحدّث عن روعة صداقتكما الجديدة، أنت والنادل.» ومنحني ابتسامة تتوهّج بالقَصاص. وأكمل: «أثق أنه لم يلتبس عليّ الأمر؟»

نظرت إليه. أردتُ فعل شيء لوجهه المحنّك البشع الضحوك، شيئا يستحيل عليه بعدها الابتسام لأيّ أحدٍ كان بالطريقة التي يبتسم بها لي. أردتُ الخروج حالًا من الحانة، إلى الهواء في الخارج، ربما كي أجد هيلا، فتاتي الهاربة والخائفة جدًّا على حين غرّة.

زجرته: «لم يكن هناك أي لبس، وأنت أيضًا لا تلتبس.»

قال جاك: «أظن أنه بإمكاني القول، بأمانة، أني لم أكن قط بعيدًا عن الالتباس قدرَ ما أنا عليه في هذه اللحظة،» وكفّ عن الابتسام؛ ورمقني بنظرة عتب ذابلة ومريرة: «ربما سأخسر صداقتك النزيهة جدا، لكن دعني أقول لك شيئا: الالتباسُ هو ترَفٌ قد يعيشه الشّباب الصغار جدًّا، وأنت لم تعد شابًّا صغيرًا بالقدر الكافي.»

قلت: «لا أعرف عمّا تتحدث، دعنا نشرب كأسًا أُخرى.»

شعرتُ بضرورة أن أثمل. عاد جيوڤاني خلف مشرب الحانة مرّة أخرى وغمزني. عينا جاك لم تفارقا وجهي، لكني أدرتُ بفظاظة وجهي عنه وحوّلت نظري إلى مشرب الحانة مرّة أخرى، فلحقني بعينيه.

قال جاك: «هات لي كأسا أخرى.»

رد جيوڤاني: «بالطبع، هذه هي الطريقة المثلى للشراب.» ومزج كأسينا. دفع جاك الثمن. لم أكن على ما يرام لأن جيوڤاني ناداني بهزل: «ها! هل سكرت حقا؟»

نظرت له مبتسما: «هل تعرف كيف يسكر الأمريكيون؟ فأنا لم ابدأ بعد!»

قال جاك: «ديفيد أبعد ما يكون عن السُّكر، هو يقلّب في رأسه فكرة الحصول على زوج جديد من حمّالات البناطيل.»
كدتُ أقتل جاك، ومع ذلك أمسكتُ نفسي بصعوبة عن الضحك. وعملتُ إشارة بوجهي لجيوفاني تدلّ على أن الرجل العجوز يُلقي نكتة خاصّة. ثمّ اختفى جاك مجدّدًا. وقتها، حَلّت تلك السّاعة من المساء التي تدخل فيها إلى الحانة دفعة بشريّة وتخرج أخرى. هؤلاء الناس سوف يلتقون جميعًا لاحقًا، في آخر حانةٍ مفتوحة في المدينة، في ساعة متأخّرة لا يبقى فيها سوى التعساء الذين لم يجدوا ما يبتغون من رِفقة.
لم أكن قادرا على النظر إلى جاك، وكان هو يعرف ذلك، حين وقف إلى جانبي، مبتسما للاشيء، ومدندنا بلحن ما. لم أجد شيئا أقوله. ولم أكن أجرؤ على الحديث عن هيلا، أو التظاهر أمام الآخرين وأمام نفسي إنني آسف على رحيلها إلى إسبانيا. كنت سعيدا. سعيدا بقنوط ويأس مطبقين.
وأدركتُ أيضًا أنه ليس بإمكاني عمل شيء لوقف هذه الإثارة الوحشية التي اعترتني مثل عاصفة، وأنّ كلّ ما أقدر عليه هو الشّرب، على أمل باهت أن تستنفد هذه العاصفة نفسها بدون أن تسبّب مزيدًا من الضرر على أرضي. لكني كنت سعيدًا. كنت آسفًا فقط لأن جاك شَهِدَ ما حدث كلّه. شعرت بالخجل منه وكرهته، لأنه رأى كلّ ما كان ينتظر أن ينكشف أمامه شهورًا مضت بأملٍ ضعيف، وقد كنّا في الحقيقة نلعب لعبة خطرة هو من فاز فيها في النهاية. كان هو الفائز رغم أنّي غششتُ كي أفوز.
تمنّيتُ، وأنا أقف عند مشرب الحانة، لو استطعتُ العثور على

إرادةٍ في داخلي تجعلني أدير ظهري وأخرج، ربما لأبحث في أزقّة حيّ مونتبارناس عن فتاة ليلٍ ألتقطها، أيّ فتاة. لكني عجزت عن فعل شيء. رويتُ على نفسي أنواع الأكاذيب كلّها بينما أقف هناك، عند المشرَب، لكن ذلك لم ينفع ولم يجعلني أتحرّك من مكاني. ذاك لأنني عرفت: لم تعد مغادرتي أو عدمها تغيّر من الأمر شيئًا، ولم يكن مُهمًّا لو أنّني لم أحادث جيوفاني مرّة أخرى أبدًا؛ لقد باتت واضحةً عليّ، أكاذيبي كلّها، مرئيّةً مثل تلك القِطَع الدائريّة الرّقيقة فاقعة الألوان على قميص "الأميرة" المتوهّجة... لقد عصفت بي، بوعيي، بكلّ ما يُلحّ فيّ ويمكنني فعله.

كان ذاك أوّل لقاء لي بجيوفاني. أظن أننا تواصلنا منذ تلك اللحظة التي التقينا فيها، وبقينا متواصلين، رغم انفصالنا الأخير، ورغم حقيقة أن جيوفاني سيتعفّن قريبًا في أرض دنسة قريبة من باريس. وحتى لحظة موتي، ستبقى تلك اللحظات تنبثق من الأرض مثل ساحرات ماكبث، لحظاتٌ أرى فيها وجهه يطلع أمام وجهي، وجهه بكلّ حالاته، وتقتحمني نبرة صوته الحادّة، وتتدفّق تعابيره الكلاميّة المميّزة في أذني، وتسيطر رائحته على منخَريّ. وفي الأيام التي ستأتي – إذا الرّب منحني نعمة أن أعيشها – وفي سنا الصباحات الرمادية، وحموضة الفم، والجفنين المطبقين الأحمرين، وشعري المنفوش الرّطب نتيجة نومي الزوبعي، في ضباب دخان سيجارتي وأنا أحتسي القهوة، عندما ينهض فتى الليلة الغراميّة الماضيّة، الفتى الفظّ السّخيف، ليتلاشى مثل الدخان بعد قليل، سأرى جيوفاني مرّة أخرى، مثلما رأيته أوّل مرّة تلك الليلة: مشرقًا جدًّا، وفاتنًا جدًّا، وأضواء ذلك النفق القاتم كلّها تُحيط بوجهه.

الفصل الثّالث

في الخامسة فجرًا، أقفل غيّوم باب حانته خلفنا. كانت الشوارع خالية ورمادية. هناك جزّارٌ في زاوية قريبة من الحانة، فتح دكّانه، وفي مقدور المرء أن يراه ملطخا بالدماء يقطّع اللحوم. مرَّت حافلة من حافلات باريس الخضراء الكبيرة، متثاقلة، وفارغة تقريبًا، تومض إشاراتها الخلفيّة بقوّة لتشير إلى جهة انعطافها القادم. دلق نادل في مقهى الماء على الرصيف وسحبه إلى المرزاب قبل بدء عمله. في نهاية الطريق الطويل المتعرّج الذي أمامنا تكتظّ أشجار الجادَة التي تُطلّ عليها مقاهٍ كثيرة وقد راكمت كراسي الخيزران أمامها، والبرج الحجريّ العظيم لكنيسة سان جيرمان دي بري – وهي كما اتفقنا أنا وهيلا أروع أبراج الكنائس في باريس قاطبة. يمتدّ الشارع بعد ذلك نحو النهر، أمّا قبل ذلك، حولنا وخلفنا، فإنّه يتعرّج ويقود إلى حيّ مونتبارناس. سُمّي الشارع على اسم مغامرٍ غرسَ بِذارًا في أورُبا ما تزال ثمارها تُجنى حتى الآن. مشيتُ كثيرا في ذاك الشارع من قبل، أحيانًا مع هيلا قاصدين النهر، وغالبا دونها، قاصدًا فتيات مونتبارناس. ولم يحدث ذلك منذ زمن بعيد، رغم أنّه بدا كذلك، وكذلك بدا ذاك الصباح الذي شعرتُ كما لو أنّه حدث في حياة أخرى.

كانت وُجهتنا هي سوق ليال[5] لتناول الفطور. تكدّسنا في سيارة أجرة أربعتنا معًا على مضض، فجاك وغيّوم معنا. تدفقت البذاءة منهما مثل نافورة مياه سوداء، وفشلت تكهّناتهما الفاسقة المقززة في أن تتحول إلى دعابات لطيفة، بل كانت تعبيرا صريحا وواضحا منهما عن الازدراء الذاتي. ومن الواضح أنهما منّيا نفسَيهما بجيوڤاني وبي، ما جعل أسناني تصطك اشمئزازا، وشعرتُ بنفور شديد منهما. لكن جيوڤاني اتّكأ على نافذة سيارة الأجرة، وسمح لذراعه بالضغط الخفيف على كتفي، وكأنه يقول لي إنّه يجب علينا التخلص من هذين الكهلين سريعا، وألّا نتكدّر إذا ما تلوّثنا برذاذ مياههما القذرة، فلا مشكلة لدينا إذا غسلناها عنّا لاحقا.

قال جيوڤاني، بينما عبرت بنا سيارة الأجرة النهر: «انظر إلى تلك المومس الهرمة، باريس، حينما تستيقظ، كم هي مؤثّرة!» نظرت من نافذة السيارة، خلف الهيئة الجانبية الداكنة لجيوڤاني، وقد بدا رماديًا بسبب التعب لون السّماء الرماديّة فوقنا. كان النهر فائضا وأصفر، ولا شيء يتحرّك فوقه، بينما العبّارات مربوطة إلى الضفاف. تمددت جزيرة المدينة[6] بعيدًا عنا حاملةً ثقل الكاتدرائية الكبيرة خاصّتها؛ وخلف الكاتدرائية وعبر الضباب تظهر سقوف باريس الأحاديّة، وعدد لا يحصى من المداخن المقرفصة فوق السقوف، تصطف بشكل جميل وبألوان متعددة تحت سماء لؤلؤيّة. الضباب يلف النهر، ويداعب ذلك الجيش من الأشجار، ويلاطف الشوارع الحجرية، ويخفي الأزقة المتعرجة المريعة

---

(5) سوق باريسية للمواد الغذائية الطازجة. م.

(6) جزيرة المدينة هي جزيرة صغيرة تقع في نهر السين في باريس، وهي واحدة من جزيرتين طبيعيتين في ذلك النهر. م.

والشوارع التي لا نهايات لها. الضباب كثيف ومشعث مثل هؤلاء الملعونين الذين ينامون تحت الجسور، وقد لاح تحت الجسر واحد منهم، يمشي بمحاذاة النهر وحيدا وشديد السواد.

قال جيوڤاني: «بعض الجرذان تدخل، وبعضها الآخر يخرج الآن.»

ثم نظر إليّ وابتسم ببرود؛ ولدهشتي، أمسك يدي وسألني: «هل سبق لك أن نمت تحت جسر؟ ربما هناك أسرّة وثيرة وأغطية ناعمة تحت الجسور في وطنك؟»

كنت أجهل ما أفعل بخصوص يدي. بدا لي أنّه من الأفضل الامتناع عن فعل أيّ شيء. قلت له: «ليس بعد، ربما أفعل، فإدارة النُّزُل الذي أسكنه تريد طردي.»

قلت ذلك برفق مع ابتسامة ورغبة في وضع نفسي على قدم المساواة التي تقتضيها شروط التعارف، معه. لكن الحقيقة هي أنّ ما قلته، بينما يمسك يدي، بدا لي عجزًا لا يوصف، ورِقّةً خجولة. ولم أستطع قول شيئ آخر كي أمحو ذلك الانطباع، فأيّ تبرير سيصدر عنّي إنما سيؤكّده أكثر. سحبتُ يدي، متظاهرا بالبحث عن سيجارة.

أشعلها جاك الذي سألَ جيوڤاني: «أين تعيش؟»

فقال جيوڤاني: «أوه، بعيدا، بعيد جدا، خارج باريس تقريبا.»

قال غيّوم: «يعيش في شارع مروع، قريبا من نسيون بين البرجوازيين وأولادهم الذي يشبهون الخنازير.»

قال جاك: «وفشلت أنت في القبض على أولئك الأولاد في العمر المناسب، كل الأولاد يمرون بفترة قصيرة جدا، للأسف! حينها الخنزير هو الحيوان الوحيد الذي لا يستدعوه إلى مخيّلتهم.»

ومرة أخرى سأل جاك جيوڤاني: «في نُزُل؟»

قال جيوڤاني متبرّما قليلا: «لا، أسكن في غرفة خادمة.»

«مع خادمة؟»

رد جيوڤاني مبتسما: «لا. لا أدري أين ذهبت الخادمة. بالتأكيد ستقول إنه لا تعيش هنا خادمة لو دخلتَ غرفتي.»

قال جاك: «أحبّ أن أزور غرفتك!»

ردّ جيوڤاني: «إذن سنقيم لك حفلا يوما ما.» هذه المجاملة البسيطة جدًّا أجازتْ لأسئلة أخرى أن تُطرح. نظر غيّوم بسرعة إلى جيوڤاني، الذي لم ينظر إليه بدوره، وإنما إلى الخارج، إلى الصباح، وراح يصفّر. كنت أحاول تقدير ما الذي سأفعله في هذه الساعة خلال الساعات الست الماضية، والآن قدّرتُ أمرًا آخر وعزمت عليه: لابد أن أوضح الأمر كله لجيوڤاني في أقرب وقتٍ يكون فيه بمفرده في ليال. كنت سأقول له أنّ هناك سوء فهم لما حدث بيننا، ومع ذلك يمكننا أن نصبح أصدقاء. لكني لم أكن متأكدا، قد لا أكون أنا من تسبّب في سوء الفهم ذاك. قد تكون قراءتي للوقائع، التي تمليها عليّ الضرورة، خاطئة وعمياء. لم أتفوه بأيّ كلمة لشعوري بالخزي الشديد. كنت أفكر بكل ذاك، بينما نحن في سيارة الأجرة، ولم يعد مُهمًّا أين أديرُ وجهي، فلحظة الاعتراف كانت على وشك المجيء ولايمكنني تجنّبها، إلا إذا قفزتُ من سيارة الأجرة، وهذا في حدّ ذاته سيكون أبلغ اعتراف.

سألَنا سائق سيارة الأجرة أين نودّ الذّهاب، لأنّنا وصلنا إلى شوارع مزدحمة وأرصفة لا تُطاق في منطقة ليال. الكرّاث، والبصل، واللهانة، والبرتقال، والتفاح، والبطاطا، والقرنبيط، وخضروات طازجة مكوّمة في كلّ مكان، على الأرصفة وفي الشوارع، وأمام

سقائف معدنيّة كبيرة. تصطفّ السقائف في صفّ طويل وتتكوّم داخلها مزيد من الفواكه ومزيد من الخضروات. تحت بعض السقائق سمك، وتحت البعض الآخر أجبان، وتحت سقائف أخرى حيوانات كاملة نُحرِتْ قبل قليل. ويبدو من غير الممكن أن يؤكل كل ذاك. لكن في غضون الساعات القادمة سيزول كل شيء وستأتي الشاحنات من كل مناطق فرنسا، لتجد طريقها نحو تحقيق أرباح كبيرة من خلال خليّة نحل من الوسطاء، لتغذية الجماهير الصاخبة في باريس وبقيّة المناطق التي تحيطها. كل الذين يجأرون، من أمام السيارة وخلفها وعلى جانبيها، يصرخون ويجرحون الآذان. جأر سائق سيارة الأجرة وجيوڤاني أيضًا. جماهير باريس ترتدي ثوب العمل الأزرق كلّ يوم ما عدا الآحاد التي يرتدون فيها الملابس الرسميّة السوداء في أغلب الأحياء. هنا، يرتدون بذلة العمل الزرقاء، ويستولون على كل إنشٍ من الرصيف بعرباتهم، العربات اليدويّة، السلال الطافحة المحمولة على الظهور بزاوية حادة وبثقة تامة. صرختْ امراة ذات وجه أحمر وقد أثقلها حمل سلّة فاكهة «قذارة طازجة» في وجه جيوڤاني والسائق والعالم. ردّ جيوڤاني والسائق شتيمتها حالًا، كأنّ الرد كان على طرفَي لسانيهما، رغم أن صاحبة الفاكهة صارت خلفنا حينها، وربما لم تعد تذكر شتيمتها البذيئة تلك.

زحفنا ببطء، لأننا لم نُخبر السائق أين نريد أن يُنزلنا. وفور دخولنا ليال، صار جيوڤاني والسائق أخوين فجأة، يتبادلان الآراء بشأن تفادي الزحام، ويتّفقان على إدانة سُكّان باريس وقلّة اهتمامهم بالنظافة، ولهجتهم، وحياتهم الخاصة. كان جاك وغيّوم يتبادلان

التكهنات الصامتة المشينة بشأن كل رجل يمر. كانت الأرصفة زلقة بفعل الفضلات البالية المتفسخة، والزهور، والفواكه والخضروات التي اجتمعت مع بلاء غريزة التقاعس وعدم الاكتراث والفظاظة. كانت الجدران والزوايا ممشّطة بالبول، مع احتدام باهت لأبخرة المداخن، والمقاهي، والمطاعم، والدخان الأصفر للحانات الصغيرة – بعض تلك الحانات كانت أصغر من مكعب مغلق الزوايا، يحتوي على زجاجات نبيذ ومشرَب مغلّف بالزّنك. الرجال أقوياء في كل تلك الأمكنة: شباب، وكهول في منتصف العمر، لقوّتهم أشكال متعددة، أقوياء لأنهم قابلوا، أو سيقابلون، خرابهم وانهياراتهم المتعدّدة. وكانت النساء يعملنّ بفطنة وصبر، لهن القدرة على العدّ وحمل الأثقال والصراخ الذي قد يعوّض النقص الطفيف في قدرتهن البدنيّة. لا شيء هنا يذكّرني بوطني، يبدو أن جيوڤاني أدرك هذا وكشفه كلّه.

«أعرف مكانًا ما رخيصًا جدًّا» أخبر جيوڤاني السائق أين يقع، وتبيّن أنّه مكان السائق المفضل.

سأل جاك بوقاحة: «أين ذاك المكان؟ كنت أظن أننا ذاهبون إلى...» وذكرَ جاك اسم مكان آخر.

قال جيوڤاني بازدراء: «لابدّ أنك تمزح، ذلك المكان سيئ جدا وغالٍ، وهو للسياح فقط ونحن لسنا سياحًا» وأضاف «عندما أتيتُ إلى باريس عملتُ في ليال وقتًا طويلًا جدًّا، اللعنة على ذلك العمل! أدعو الله دائمًا ألّا يعيدني إليه مرّة أخرى» وراح ينظر إلى الشوارع التي نسلكها بحزن. لم يكن كاذبًا، لكن كان فيه شيء من الاستعراضيّة والسّخرية من الذات.

قال له غيّوم من زاويته في سيارة الأجرة: «أخبرهم من أنقذك!»
رد عليه جيوڤاني: «آه، نعم، شاهدوا منقذي، ووليّ نعمتي!» ثم سكت لحظة قبل أن يقول «لست نادمًا على ما فعلت لي، أليس كذلك؟ ألم أؤذك قط؟ ويعجبك عملي أيضًا، صحيح؟»
قال غيّوم: «هذا صحيح.»
فتنهّد جيوڤاني: «من غير ريب» ونظر خارجا عبر نافذة السيارة، وراح يصفّر مرّة أخرى.
وصلنا إلى زاوية منعطف واسع. وقفت سيارة الأجرة. قال السائق: «هنا»
فقال جيوڤاني كأنّه صدًا للسّاق: «هنا.»
مددتُ يدي إلى محفظتي، لكن جيوڤاني قبض على ذراعي بحزم، وأفهمني برقّة غاضبة برموش عينيه الخبيرة أنّ من واجب الكهلين القذرين على الأقل أن يدفعا. فتح الباب ونزل إلى الشارع.
لم يمدّ غيّوم يده إلى محفظته، فدفع جاك أجرة التكسي.
«قرف،» قال غيّوم وهو يحدّق في باب المقهى الذي وقفنا قبالته: «أنا متأكد أن هذا المكان موبوء بالحشرات. هل تريد تسميمنا؟»
قال جيوڤاني: «أنت لن تأكل المظهر الخارجي! ثم إنّك تعرّض نفسك لخطر التسمّم أكثر في المطاعم الأنيقة المروعة التي ترتادها باستمرار، تلك التي لها واجهات نظيفة، لكن، يا إلهي! ثق بي» ثم ابتسم ساخرًا «ولماذا أريد تسميمكم؟ سأفقد عملي حينها، وقد اكتشفت توًّا أنني أرغب في المضيّ في الحياة!»
تبادل غيّوم وجيوڤاني، بينما ما زال الأخير مبتسمًا، نظرةً لم أعرف معناها ولن أخمّنه حتى لو جَرؤتُ على المحاولة. دفعنا جاك أمامه

كأننا دجاجاته، وقال بابتسامة عريضة: «لا نقدر أن نقف هنا في البرد ونتناقش. إذا لم نأكل فعلى الأقل سنشرب، الكحول يقتل كل المكروبات.»

ابتهج غيّوم فجأة، كان اقتراح جاك استثنائيا، كأنه يحمل شيئا خفيا في شخصيته، مثل إبره فيتامينات تحقن نفسها تلقائيا في مزاج صاحبه غيّوم في الوقت الحرج.

قال جاك: «هناك شباب في الداخل» فدخلنا.

بالطبع هناك شباب، نصف دزينة عند المشرَب المغلّف بالزّنك، أمام أنواع النبيذ الأحمر والأبيض، مع آخرين ليسوا شبابًا على الإطلاق. هناك صبيّ عليه آثار الجدري، وفتاة ذات مظهر خشن، يلعبان معًا لعبة الكرة والدبابيس قرب النافذة. ثمّة آخرون يجلسون إلى الطاولات في الخلف ويخدمهم نادل نظيف المظهر. الجدران قذرة ومعتمة، والأرضية مغطاة بنشارة الخشب، وفي مقدور المرء أن يلمح من خلف الطاولات المطبخ، والطاهي الشرس البدين الذي تسطع سترته البيضاء مثل الثلج، مرتديًا قبّعة بيضاء عالية، وبين شفتيه سيجارة مطفأة. يتحرّك بتثاقل كأنه شاحنة من تلك الشاحنات التي تحمل وزنًا زائدا في الخارج.

جلستْ خلف مشرب الحانة سيّدة من أولئك السيدات الباريسيات اللواتي لا يُقهرن ولا يُغلبن قطعًا، أولائك السيّدات يتواجدن بأعداد كبيرة في مدينة باريس فقط، وقد يسبب عددهن الكبير هذا الخزي والبلبة في أيّ مدينة أخرى، مثلما تُسبّب حورية البحر البلبلة حين تُشاع رؤيتها على قمّة جبل. أغلبهن يجلسنّ خلف مشرب الحانات في جميع أنحاء باريس، مثل أنثى الطائر في عشّها، يحتَضنّ آلة عَدّ

النقد كأنها بيضة. لا شيء يحدث في الحقل الذي تجول أبصارهن فيه، وإذا حدث أمر مفاجئ، فإنه سيكون كحلم يتبدّد سريعا ولا يترك أثرا خلفه. لسنَ سيئات الطبع ولا طيّبات، ومع ذلك لهن أيامهن المتقلبة وأسلوبهن في مراقبة الآخرين الذين متى ما شعروا أنهم في حاجة للذهاب إلى الحمام، فإنّ تلك السيّدات يعلمن ذلك قبلهم، فهن يعرفن كل شيء عن كل شخص يدخل حيزهن. ابيضّ شعر بعضهن، بينهن بدينات وأخريات نحيفات، وجدّات أو بقين عذروات إلى سِنٍّ متقدّمة، لكنهن يمتلكن العيون الشاغرة الفطنة ذاتها والتي تسجِّل كل شيء؛ وليس سهلا أن يصدّق المرء إنهن كنّ رضيعات يوما ما، وبكينَ طلبا للحليب، أو أنهن نظرن إلى الشمس؛ يبدو أنهن أتين إلى هذا العالم جائعات للأوراق النقدية، ومجبولات على التحديق، وغير قادرات على تركيز نظراتهن او إراحة عيونهن إلا عند آلة عَدّ النقد.

التي أمامنا الآن يختلط الأسود والرمادي في شعرها، وتحمل وجهًا آتٍ من بريتاني[7]؛ وهي تعرف جيوڤاني مثل كل الاشخاص الذين يقفون عند المشرَب. تملك صوتا عميقا مثل صدرها الذي ضمت جيوڤاني إليه.

صاحت: «آه، يا صديقي! لقد عدتَ!عدتَ أخيرًا! يا حقير! أنت غني الآن وعثرت على أصدقاء أغنياء، ولن تأتي لترانا بعد الآن! وغد!»

وتفحّصتنا: أصدقاءٌ موسورون، وصحبة طيبة وملتبسة؛ لم يكن لديها أدنى مشكلة في إعادة تشكيل كل لحظة في حياتنا، من لحظة ولادتنا حتى هذا الصباح. هي تعرف بالتحديد من هو الغنيّ وكم

---

(7) منطقة في شمال غربيّ فرنسا.

مقدار ثروته، وتدري جيّدًا أني لستُ غنيا. ولهذا السبب كانت تكهناتها تتضاعف عندما تنظر إليّ. غير أنها تعرف جيّدا أنه يتحتم عليها الانتظار لحظة أخرى كي تفهم كل شيء.

قال لها جيوڤاني مزيحًا شعره إلى الخلف: «أنت تعرفين كيف تسير الأمور، عندما تعملين بجد، لن يتبقى لديك وقت للّعب.»

قالتْ بتهكّم: «آه، لا وقت للّعب؟»

رد جيوڤاني: «أؤكد لك، حتى لو كنتِ شابًّا مثلي، فستصابين بالتعب» – ضحكتْ – «وستنامين مبكّرًا» – ضَحكتْ مجدّدًا – «ووحيدة.»

كأنّ ما ذكره جيوڤاني برهن كل شيء، طقطقتْ أسنانها بحنوّ وضَحكتْ مجدّدا.

قالت: «والآن، هل أنت آتٍ أم مغادر؟ هل أتيت لتناول الفطور أم لاحتساء كأس النبيذ الأخير؟ كُرمى للرّب، يظهر أنك أنهيت عملك وأظنك بحاجة إلى شراب!»

قال أحد الواقفين عند المشرَب: «بالطبع، بعد العمل الشاق، إنّه بحاجة إلى قنينة من النبيذ الأبيض، وربما عدّة دزينات من المحار.»

ضحك الجميع دون أن يُظهروا ذلك، كانوا يحدقون بنا وشعرتُ أني جزء من سيرك متنقل. كان جميع من في المكان فخورين بجيوڤاني بطريقة ما.

التفتَ جيوڤاني إلى الصوت الذي أتاه من جهة المشرَب وقال: «فكرة ممتازة، صديقي، بالضبط! هذا ما كنت أفكر به.» ثم التفتَ إلينا مضيفًا: «أقدّم لكِ أصدقائي،» نظر إليّ، ثم إلى المرأة قائلًا: «هذا هو السيد غيّوم،» ثمّ رقّقَ صوته قدر ما استطاع: «مديري. وهو

من سيخبرك ما إذا كنتُ جادًا في العمل أم لا.»

«أها» قالت المرأة، وأتبعت ذلك بكلّ جرأة «لكنني لا أستطيع القول إن كان هو جادًّا في عمله!» وغطّتْ جرأتها بضحكة فاقعة.

رفع غيّوم عينيه بصعوبة عن الشباب على المشرَب، ومدَّ يده مبتسمًا وقال: «أنتِ محقّة سيّدتي، هو مجتهد جدًا إلى درجة بتُّ أخشى معها أنّه سيمتلك حانتي يوما ما.»

عندما تطيرُ الأسود! هذا ما فكّرت به المرأة بينها وبين نفسها، لكنّها أظهرت الحبور لمقابلة غيّوم وصافحته بحرارة.

ثم قال جيوڤاني: «والسيد جاك، أحد زبائننا المفضلين.»

قال جاك: «تشرفت بك، مدام،» مع ابتسامة لامعة رَدّتها السيّدة بمحاكاةٍ تهكّمية تفتقر إلى الإتقان الفنّي.

التفتَ جيوڤاني إليّ: «وهذا هو السيّد الأمريكي، ويُعرف أيضًا بالسيّد ديفيد، يا مدام غلوتيد.»

ثم تراجع خطوةً إلى الوراء، وتوهّج شيئ ما في عينيه وشعّ في كامل الوجه فيما يُشبه الفرح والفخر.

نظرتْ إليّ وصافحتْ يدي مبتسمة: «مسرورة بك، سيّدي.»

ابتسمتُ لها أيضا. كان كل شيء فيَّ يقفز إلى الأعلى بعد أن يهبط. ودون اكتراث وضع جيوڤاني يده على كتفي وصاح: «ما الأكل الطيب الذي عندك كي نأكله؟ نحن نتضوّر جوعًا.»

صاح جاك: «لكن يجب أن نحتسي الشّراب أوّلًا!»

قال جيوڤاني: «نستطيع أن نشرب بينما نحن جالسون إلى طاولة الطعام، أليس كذلك؟»

قال غيّوم موجّها كلامه إلى من كان يريد مغادرة المَشرَب في تلك

اللحظة، كأنهم يُصدرون بحقّه حُكمًا بالنّفي عُنوة من أرض الميعاد: «لا، دعونا نشرب شيئًا هنا، على المشرَب، مع السيّدة.» حاز اقتراح غيّوم الموافقة بسرعة، مثل ريح لطيفة هبّتْ أو ضوء خافت سطع فجأة على الناس القريبين من المشرَب، كأنهم فرقة وسيلعبون أدوارا مختلفة في مسرحية يحفظونها عن ظهر قلب. ربما ستتردّد مدام غلوتيد، لكن تردّدها لن يدوم أكثر من لحظة فقط؛ وبعدها ستوافق، لأن المشروب المُشترى لها سيكون غالي الثمن؛ واتّضح أنه شمبانيا. وسترتشف منه رشفة، وسيكون الحوار المتبادل غامضًا ملتبسًا، وربما ستختفي في جزء من الثانية قبل أن يبدأ غيّوم بمصادقة أحد الفتيان الذين يخدمون الزبائن خلف المشرَب. الفتيان خلف المشرَب بدورهم، متأهبون سرًّا، فهم قد قدَّروا مُسبقًا المال الذي سيحتاجه أيّ واحد منهم هو ورفيقه عدّة أيّام قادمة، وقيّموا إمكانيات غيّوم المالية، والمدة التي سيبقى خلالها يمدّهم بالمال، وإلى متى سيتحمّلونه. السؤال الوحيد المتبقي؛ هل سيكونون معه بقرة أم ثورا؟ لكنهم يعرفون أنهم غالبا سيكونون البقرة. ثم إنّ هناك جاك أيضًا، والذي ربما يفاجئهم فينضمّ إلى غيّوم، أو يكون على الأقل جائزة تسوية. وهناك أنا، مشكّلًا أمرًا آخر تمامًا: بريء من الشّقق، والأسرّة الناعمة أو دعوات الطعام، ومع ذلك فأنا مرشّح كصديق أو مَخظِيّ عند جيوڤاني، لكني بعيد عن حلبة الصّراع. كانت نوازع غيّوم وجاك تجاه فتيان الحانة هي الوسيلة الوحيدة عمليًا لتشتيت نوازعهما عنّا، أنا وجيوڤاني، وإغاثتنا منهما.

طلبت قهوة سوداء وكونياك من الحجم الكبير. كان جيوڤاني

بعيدا عني، يشرب مارك[8] بين عجوز كأنّه وعاء لكلّ قذارات العالم وأوبئته، وفتىً ذا شعر أحمر، والذي سيغدو مثل الرجل العجوز يوما ما، فلا شيء أكثر وضوحًا من البلاهة والضجر في عينيه. غير أنّ فيه شيئًا من فِتنة الحصان غير المروّض؛ كان الفتى يراقب غيّوم ويدري أن غيّوم وجاك يراقبانه أيضًا.

انشغل غيّوم في تلك الأثناء بالثرثرة مع مدام غلوتيد؛ اتفقا سريعا أن إدراة حانة أو العمل أو التجارة هو أمر سيّئ جدّا، وأن المعايير المهنيّة كلّها قد تراجعت بفعل مستحدثي النعمة، وأن البلاد تحتاج إلى الجنرال ديغول. لحسن الحظ، أن كليهما تحدّث في تلك المواضيع مرّات عديدة من قبل، كأن النقاش تدفّق من تلقاء ذاته ولم يستلزم منهما أيّ قدْرٍ من التركيز. وبعد لحظات، سيدعو جاك أحدَ الفتيان إلى شراب لكنه مصمّم أوّلًا على تأدية دوره كعمٍّ لي.

سألني: «كيف تشعر؟ هذا يوم مهم بالنسبة لك.»

قلت: «لا بأس، وأنت كيف تشعر؟»

قال: «مثل من رأى رؤيا.»

قلتُ: «أخبرني عن تلك الرؤيا.»

قال: «أنا لا أمزح، بل أتكلّم عنك. أنت الرؤيا. لو شاهدتَ نفسك هذه الليلة. يجب أن تشاهد نفسك الآن.»

نظرتُ إليه ولم أقل شيئا.

لكنه أكمل حديثه: «كم عمرك أنت، ستة وعشرون عامًا، أو سبعة وعشرون؟ عمري تقريبًا ضعف عمرك، ودعني أخبرك،

---

(8) من أنواع النبيذ، وهو عصير مخلّفات العنب الذي سبق عصره مرتين. م.

أنت محظوظ. أنت محظوظ لأن ما يحدث لك، يحدث الآن وليس في عمر الأربعين أو ما يقاربه، عندما تفقد الأمل، وتُمسي ببساطة محطّمًا.»

سألته وفي نيّتي أن يبدو صوتي ساخرًا، لكنّه لم يكن كذلك على الإطلاق: «وما الذي يحدث لي؟»

لم يجب على سؤالي، لكنه تنهد ونظر مباشرة باتجاه الفتى ذو الشعر الأحمر. ثم أعاد عينيه نحوي وقال: «هل ستكتب لهيلا؟»

قلت: «أنا أكتب لها دائمًا، وأظنّ أنّي سأكتب لها مجدّدا.»

«هذا لم يُجب على سؤالي.»

«آه. سألتني إذا كنت سأكتب لهيلا.»

«حسنًا. دعني أسألك مجدّدا. هل ستكتب لهيلا لتخبرها بشأن الليلة الماضية وهذا الصباح؟»

«حقًّا، لا أجد أنّ هناك أمرًا يستدعي الكتابة عنه. لكن ماذا يعني لك إذا كتبتُ لهيلا أو لم أكتب؟»

خصّني بنظرة مليئة بيأس مطبق، نظرة لم يسبق له أن رمقني بمثلها.

قال: «لا شأن لي. إنّه شأنك وشأنها. وشأن ذلك الصبي المسكين، هناك، الذي يجهل أنه عندما نظر إليك بتلك الطريقة، فهو ببساطة يضع رأسه في فم الأسد. هل ستعامله كما عاملتني؟»

قلت: «أنت؟ وما دخلك أنت بكل هذا؟ وكيف عاملتك؟»

قال: «لم تكُن مُنصفًا معي، ولم تكُن صادقًا أيضًا.»

كانت نبرتي هذه المرة ساخرة حقا: «هل تعني أنّه كان بإمكاني أن أكون مُنصفًا معك وصادقًا لو أنني سمحتُ لك أن – أن...»

«أعني أنّه كان بإمكانك أن تكون مُنصفًا معي بالكفّ عن احتقاري وازدرائي.»

قلت: «العفو منك. وبما أنّك أثرت الموضوع، فإنني أعتقد أن كثيرًا من تفاصيل حياتك هي فعلًا جديرة بالازدراء.»

قال جاك: «بإمكاني أن أقول عن حياتك الشّيء نفسه، فهناك طرق عديد للسفالة تصيب الإنسان بالدوار. لكن الوسيلة الوحيدة لتكون حقيرًا حقيقيًّا هي أن تحقّر آلام الآخرين. يجب أن تعرف أن الرجل الذي يقف أمامك كان يومًا شابًّا، بل وأكثر فتوّة منك الآن، لكنك عرفته وهو في حال بؤسٍ داخليّ.»

ساد الصمت لحظة، لكنه تلاشى بفعل ضحكات جيوڤاني من بعيد.

قلتُ له أخيرًا: «أخبرني، ألا تملك طريقة للسعادة غير هذه؟ أن تنحني إلى الأبد أمام جيشٍ من الأولاد من أجل خمس دقائق قذرة في الظلام؟»

قال جاك: «فكّر أنت بالرجال الذين انحنوا أمامك بينما كنت تفكّر في شيء آخر، وتظاهرت أن لا شيء يحدث بين ساقيك.»

حدّقت في كأس الكونياك الكبير[9] بلون العنبر وحلقات المعدن الرطبة بداخله. نظرَ انعكاس وجهي في الكأس إلى الأعلى، نحوي، دون رجاء أو أمل.

تابع: «أعترف، إن حياتي مخزية بسبب علاقاتي وأصدقائي. لكن سَل نفسك لماذا يتصرفون معي هكذا.» سألته: «هل تعني أن أصدقاءك هم سبب حياتك المخزية؟»

قال: «لفقدان العاطفة معهم، وفقدان المتعة. الأمر يشبه

---

(9) كأس الكونياك ذو الحلقات المعدنية: كأس خاص لشرب الكونياك بحلقات معدنية في أسفله لسهولة تسخينه بواسطة شمعة كي تفوح رائحته.

وضع قابِسَ كهرباء في محجر كهربائيّ عاطل، يتلامسان لكنهما لا يتصلان. لمسات كثيرة دون آصرة ولا وهج.»

سألته: «لماذا؟»

رد: «اسأل نفسك هذا السؤال، وعسى ألّا تترك ذكرى هذا الصباح طعمَ النّدم في فمك.»

حوّلتُ نظري عنه نحو جيوفاني الذي كان يلفّ ذراعه حول فتاة بائسة المظهر، ربما كانت جميلة يوما ما، لكن الجمال غادرها إلى الأبد. تبع جاك نظراتي ثم قال: «هو معجب بك جدًّا. لكن هذا لا يجعلك فرحًا كما ينبغي، بل يصيبك بالخوف والخزي. ولا أدري لماذا؟»

قلتُ: «أنا لا أفهم جيوفاني، وأجهل ماذا تعني صداقته؛ وأجهل ماذا يريد هو من الصداقة.»

ضحك جاك: «أنت تجهل ماذا يعني بالصداقة، لكنّك تشعر أنّ صداقته غير آمنة. أنت تخشى أن صداقته ربما تغيّرك. ما نوع الصداقة التي ترضيك؟»

لم أقل شيئا.

لكنه تابع: «أو على الأخص، ما هي علاقة الحبّ التي ترضيك؟»

سَكتُّ وقتًا طويلًا، لذا استمرأ جاك مناكدتي: «كُن نفسك، وعِش على سجيّتك.»

اجتاحتني قشعريرة، لكنني ابتسمت.

أكمل جاك كلامه بحدّة: «أحببه، أحببه ودعه يحبك. هل هناك شيء أكثر أهمية من الحب تحت هذه السماء؟ وكم سيدوم الحب؟ وهل سيدوم! ما دمتما شابّين ولديكما القدرة على

الذهاب حيث تريدان. أؤكّد لك إنها مجرّد خمس دقائق فقط، لكن هذه الدقائق الخمس للأسف! ستجري في الظلام. وإذا كنت تظن أن هذه الدقائق قذرة فستكون قذرة، لأنك سوف لن تعطي شيئًا خلالها، وستحتقر جسدك وجسده. لكن بإمكانك أن تجعل وقتكما معًا أيّ شيء عدا كونه قذرا؛ بإمكانكما أن تمنحا بعضكما عاطفة ستجعلكما أفضل – إلى لأبد – إذا لم تشعرا بالخزي، أمّا إذا سيطر عليكما ذاك الشعور فستخوض العلاقة بقلق.»

صمتُّ، راقبني، ونظرَ إلى كأس الكونياك ثم قال بنبرة مختلفة: «ستخوضها باطمئنان وقتًا كافيًا، لكنك سوف تنتهي مسجونًا في جسدك القذر إلى الأبد، وإلى الأبد، وإلى الأبد – مثلي.»

تجرّع كأس الكونياك، وقرع بكأسه سطح مشرب الحانة بخفّة كي يُلفِت انتباه مدام غلوتيد.

وفورا جاءت مبتهجة؛ تجاسر غيّوم في تلك اللحظة على الابتسام للفتى ذي الشعر الأحمر، بينما سكبَت غلوتيد كأسَ كونياك آخر لجاك، ونظرت إليّ متسائلة، رَفعتُ القنينة فوق كأسي المترع إلى نصفه. تردّدتُ.

سألَتني مبتسمة: «ولمَ لا؟». شربتُ كأسي دُفعة واحدة فأترعته هي من جديد. وفي اللحظة نفسها صاح غيّوم: «وذو الشعر الأحمر هناك! ماذا يشرب؟»

استدارتْ مدام غلوتيد بخفّة كأنها ممثلة ستُلقي السطور الأخيرة من مشهدٍ عظيم مُجهِد: «ندعوك إلى شرابٍ، بيير» قالت بمهابة وهي تحمل عاليا وبرفق القنينة التي تحوي أغلى أنواع الكونياك في الحانة.

غمغم بيير بعد هنيهة: «كأسًا صغيرة من الكونياك،» واحمرّ وجهه خجلًا بغرابة، وبدا في الضوء الشاحب شمسًا أشرقت للتوّ أو ملاكًا هوى من السّماء.

ملأت مدام غلوتيد كأس بيير وخفّفت من توتّره، ثمّ استبدلت مكان الزجاجة على الرف بأخرى وعادتْ إلى مكانها، في زاوية المشرَب، عند آلة عدّ النقد؛ حيث استعادتْ نفسها وأتَتْ على ما تبقى من كأس الشمبانيا رشفتْ منه وتنهدتْ ونظرتْ إلى الخارج برضا، إلى الصباح الذي يرتفع ببطء.

غمغم غيّوم: «هل تسمحين لي، مدام،» وعبر من ورائنا إلى حيث بيير ذو الشعر الأحمر.

ابتسمتُ لجاك بجانبي وقلتُ: «هذه مواضيع لم يخبرني بها أبي.»

قال جاك: «شخص ما، والدك أو أبي، كان عليهما إخبارنا أنّ قِلّة من الناس فقط يموتون من الحب. لكن الكثرة تهلك، وتفنى كل ساعة– وفي أكثر الأماكن غرابة – بسبب فقدان الحب.»

وبعدها قال لي: «هيا إلى الحبيب. كُن عاقلًا وأنيقًا.»

ابتعد قليلا وبدأ في الحديث إلى الفتى بجواره. وهنا أتى الحبيب بالطبع. أشعّة الشّمس زادتْ من تورّد وجهه، وتطايُر شعره، وشعّتْ عيناه مثل نجوم الصباح. «لا يليق أن أبتعد طويلا عنك!» قال: «هل شعرتَ بالملل؟»

قلتُ: «بالطبع لا، تبدو مثل طفل في الخامسة من عمره استيقظَ في صباح العيد.»

راق له إطرائي وزاده غنجًا، فزمّ شفتيه فرحًا وقال: «أنا متأكّد أنّي لا أبدو كما وصفتني، ففي صباحات أعياد الميلاد كنت أستيقظ

مُحبطًا دائمًا.»
قلتُ: «حسنًا، أعني مبكّرًا جدًّا في العيد، قبل أن تعرف ماذا تحت شجرة الميلاد من هدايا!» لكن عينيه بطريقة ما منحتا جملتي الأخيرة معنىً آخر، فضحكنا.
سألني: «هل أنت جائع؟»
«ربما أكون كذلك لو أنني نشيطٌ الآن وفي عزّ صحوي. لا أعرف. وأنت؟»
قال دون قناعة بما قلت أبدًا: «أعتقد أنّه يجب أن نأكل» وبدأنا نضحك من جديد.
قلتُ: «وماذا سنأكل؟»
قال جيوڤاني: «نادرًا ما أقترح النبيذ الأبيض والمحار، لكن هذه أفضل وجبة بعد هكذا ليلة.»
قلتُ: «حسنًا، طالما أن بإمكاننا السّير نحو صالة الطعام.» نظرتُ من خلف جيوڤاني إلى غيّوم وذي الشعر الأحمر. بدا أنّهما وجدا موضوعًا مشتركًا للحديث عنه؛ لم أستطع تخمين ذلك الموضوع المشترك! أمّا جاك فانهمك في الحديث مع إيف، وهو شاب طويل في مقتبل العمر، بوجه مليء بالبثور، يرتدي كنزة سوداء ذات رقبة طويلة، أضفَتْ عليه شحوبا وهزالا أكثر من حقيقته. كان يلعب كرة الدبابيس[10] حينما دخلنا الحانة.
سألتُ جيوڤاني: «هل ستأكل الآن؟»
رد جيوڤاني: «يبدو أنهم سيتناولون طعامهم قريبًا، لابدّ أن الجميع

---

(10) Pinball لعبة الكرة والدبابيس: يحاول اللاعب تسجيل النقاط عن طريق التلاعب بكرة موضوعة في متاهة من الممرّات والحُفَر داخل صندوق مغطّى بالزجاج.

يتضوّرون جوعًا.»

خمّنتُ أنه قصد فتيانَ الحانة أكثر من صديقينا الكهلين. ذهبنا إلى صالة الطعام التي كانت فارغة، بينما النادل يقف بعيدًا عن مرمى البصر.

صاح جيوڤاني: «مدام غلوتيد، هل نأكل هنا؟» أجابت بصيحة أخرى وظهر النادل فورًا. كانت سُترته عن قُرب أقل نظافة ممّا توحي به من بعيد. صيحة مدام غلوتيد أعلنت تواجدنا في صالة الطعام لجاك وغيّوم أيضا.

قال لي جيوڤاني: «حسنا، كُلْ سريعًا ولنخرج، عليّ أن أعمل هذه الليلة أيضًا.»

سألته: «هل التقيت غيّوم هنا؟»

تجهّم ونظر إلى الأسفل وابتسم بألم: «لا، لم ألتقه هنا، تلك قصّة طويلة. التقيته – وضحك – في السينما!» فضحكنا معًا.

قال: «كُنّا في أحد افلام رعاة البقر الكاوبوي من بطولة غاري كوبر.» وبقينا نضحك إلى أن جاء النادل مع قنينة نبيذ أبيض. أكمل جيوڤاني بعينين كئيبتين بينما يرشف النبيذ: «بعد إطلاقة المسدس الأخيرة، تصاعدت الموسيقى التصويرية المبتهجة بانتصار الخَيْر، عبرتُ ممرّ المقاعد، وصدمتُ هذا الرجل– غيّوم، فاعتذرتُ منه وخرجت إلى رواق السينما. لحقني وتعذّر لي بقصّة طويلة مفادها أنه نسي وشاحَه في مقعدي، لأنه كما تبين لي كان يجلس ورائي ويرخي معطفه ووشاحه على المقعد أمامه، وعندما جلستُ في المقعد سحبتُ الوشاح إلى الأسفل دون أن أشعر. أخبرته أنّي لا أعمل في السينما، وأيضًا ماذا عليه أن يفعل بخصوص وشاحه –

لكني لم أغضب منه. قال لي إن جميع العاملين في السينما سُرّاق وإنّه متأكد لو وقعتْ أنظارهم على وشاحه فإنهم سوف يحتفظون به لأنه غالي الثمن جدًّا، بالإضافة إلى كونه هديّة من أمه – أؤكد لك، حتى غاري كوبر لم يكن يُجيد التمثيل مثله! عُدتُ إلى المقعد الذي جلستُ عليه، وبالطبع لم يكن هناك أيّ وشاح، وعندما أخبرته بهذا كان سيُغمى عليه فورًا في رواق السينما. ظنّ الجميع أنه صديقي، وكنت أريد ركله أو ركل الناس الذين يتفرّجون علينا؛ لكنه كان أنيقًا جدا، بينما أنا رثّ الثياب، وفكرتُ أنّه من الأفضل أن نخرج من ذلك الرواق. وخرجنا إلى مقهى وجلسنا في الشرفة. وعندما أفاق قليلًا من حُزنه على وشاحه وماذا ستقول أمّه لأنه أضاعه وغير ذلك، دعاني لتناول العشاء معه. حسنًا، كان من الطبيعي رفض الدعوة، لأنّه كان شخصًا مُضجرًا، لكنّي وعدته بتناول العشاء معه بعد أيام، لأنّها الطريقة الوحيدة لمنع تسبّبه في إحراجي في ذلك المقهى – ولم أكن جادًّا في الذّهاب إليه.»

أكمل جيوفاني مع ابتسامة خجولة: «لكن عندما حلّ يوم الدعوة كنت جائعًا جدًّا» ونظر إليّ مرّة أخرى، فلمحتُ في وجهه شيئًا تكرّر خلال الساعات الماضية: هناك رُعبٌ خلف جماله وتبجّحه، ورغبة رهيبة في نَيل الإعجاب؛ إصرار مروّع حقًّا جعلني أتحرّق لتهدئته.

وصل المحار الذي طلبناه فشرعنا نأكل. جلس جيوفاني في الشمس. التمع في شعره الأسود بريق النبيذ الأصفر وألوان المحار الباهتة.

قال ومطّ فمه بزوايتين نحو الأسفل: «بالطبع كان العشاء مروّعًا،

لأنّه أراد نصبَ فخٍّ لي في شقّته. وعرفتُ أنه من أصل فرنسي نبيل ويملك حانة. لم يكن معي تصريحٌ بالعمل حينها. لكني خمّنتُ أن بإمكانه مساعدتي إذا وجدتُ حيلةً ما تُبقي يده بعيدة عني، وقد فشلتُ في ذلك» اعترافه ترافق مع نظرة موجّهة لي وأكمل كلامه: «رغم أنّي لم أُبقِ يده بعيدًا عنّي؛ فعنده أيادٍ أكثر من أخطبوط، وليس عنده ذرّة كرامة.» ثمّ تجهّم وابتلع محارًا آخر وأعاد ملْأَ كأسينا بالنبيذ: «فإنني الآن أملك بطاقة عمل وأشتغل. وعملي يدرّ عليّ مدخولًا جيّدًا،» ابتسم واسترسل: «يبدو أنني ناجح في الأعمال التجاريّة، ولهذا السبب يتركني دائمًا وحدي.» نظر إلى مشرب الحانة وقال بحزن وحيرة طفل معا: «في الحقيقة هو ليس رجلا على الإطلاق وأنا لا أعرفه تمامًا، إنّه فظيع. سأحتفظ ببطاقة العمل، أما الشّغل فهو أمر آخر، لكننا – ودقّ على الخشب – نسير دون مشاكل منذ أربعة أسابيع.»

قلتُ: «وهل تعتقد أن المشاكل قادمة؟»

قال جيوڤاني موجّهًا نظرة سريعة جفولة نحوي، وكأنّه ظنّني لم أفهم كلمةً ممّا قال: «آه، نعم، من المؤكد إننا سنواجه المشاكل مجدّدًا. ليس على الفور بالطبع؛ فذاك ليس أسلوبه. لكنه سيجد أمرًا ما ليصبّ غضبه عليّ بسببه.»

جلسنا ندخّن في الصمت بُرهة، محاطين بأصداف المحار، ونحتسي ما تبقى من النبيذ. شعرت لحظةً أنّي مُتعب جدًّا. نظرت بعيدا إلى الشارع الضيق في الخارج، ما هذه الزّاوية الناتئة التي نجلس فيها، وقد اكتظّت الآن بأناس لا يمكنني فهمهم. شعرت بوجع لا يطاق فجأة، وتوق للمغادرة إلى بيتي؛ وليس إلى ذلك النُّزُل في أحد أزقة

باريس، حيث يسدُّ موظّف الاستقبال طريق الدخول بالقوائم غير المدفوعة: لكن البيت، البيت عبر المحيط، إلى أشياء وأناس أعرفهم وأفهمهم: إلى تلك الأشياء، وتلك الأماكن، أولئك الناس الذين أحبهم رغمًا عني ومهما تكن مرارة روحي، أحبهم فوق كل اعتبار. لم أعهد في نفسي مثل تلك المشاعر من قبل، وهي تخيفني، لأني أرى نفسي متسكّعًا حقيقيًا ومغامرًا، أتأرجح دون مرساة في هذا العالم. لم يساعدني وجه جيوڤاني الذي رحتُ أنظر إليه. فهو ينتمي إلى هذه المدينة الغريبة، ولا ينتمي إليّ. كم كان سيريحني الاعتقاد أنّ ما أشعُر به غريبٌ عنّي تمامًا، لكنه في الحقيقة لم يكن كذلك، وكان في الوقت ذاته غريبًا إلى درجة غير معقولة، ولم يسبق لي أن شعرت به من قبل، مع تلك الأصوات التي تهدر عميقًا في داخلي **يا للعار! ياللعار!** لأني وقعت بغتة في شَرَك فتى: غرابة ما كان يحدث لي تكمن في أنّه جانب بسيط من نزاعات الإنسان المرعبة مع نفسه والتي تنشب في كلّ مكان وزمان إلى الأبد.

قال جيوڤاني: «تعالَ.»

نهضنا عائدين إلى المشرَب، ودفع جيوڤاني الفاتورة.

بدأ غيّوم وجاك يثملان حين فتحَتْ مدام غلوتيد زجاجة شمبانيا أخرى. وراحت أجواء المكان تغدو كريهةً أكثر فأكثر، وتساءلت فيما إذا كان هؤلاء الفتيان الفقراء الصبورين سيحصلون على شيء يأكلونه أم لا. كلّمَ جيوڤاني غيّوم دقيقة، بشأن موعد فتح الحانة؛ وجاك لم تسنح له الفرصة للحديث معي لأنه انشغل جدًّا بالولد الطويل الشاحب؛ قُلْنا طاب يومكم، وتركناهم.

قلتُ لجيوڤاني بينما نحن في الشارع: «يجب أن أذهب إلى مكاني،

يجب عليّ دفع فاتورة النُّزُل.»

حدّق جيوفاني بي وقال بهدوء: «هل أنت مجنون، لا جدوى من الذّهاب إلى النُّزُل الآن ومقابلة موظف الاستقبال القبيح ذاك، والذهاب إلى النوم بعدها في تلك الغرفة، وحدك، لتستيقظ لاحقًا بمعدة متقلقلة وفم جاف، تجتاحك رغبة في الانتحار. تعال معي؛ سوف نرتقي إلى حياة متحضرة، نتناول فيها شرابًا خفيفًا في مكان ما وعشاءً خفيفًا أيضا. ستفرح، وسوف ترى ذلك بنفسك.»

قلتُ: «لكن يجب أن أجلب ملابسي.»

أخذ ذراعي. تراجعتُ. لكنه وقف: «بالتأكيد، لكن ليس الآن، تعال، أنا متأكد أني أجمل من ورق الجدران في غرفتك – أو بوّاب نُزُلك! سأبتسم لك عندما تستيقظ، بينما هم لن يفعلوا!»

كل ما استطعتُ قوله هو: «آه، أيها الحقير.»

فقال: «بل أنت الحقير! أنت من تريد تركي في هذا المكان، وأنت تعلم أني ثملٌ جدا ولا أقدر على الوصول إلى بيتي دون مساعدة.»

ضحكنا ودخلنا في لُعبة إثارة لاسعة. وصلنا شارع سيباستوبول لكننا تركنا الحديث عن رغبتي في ترك جيوفاني وهو سكران في ساعة خطرة، وفي وسط مدينة عدوانية. انتبهتُ إلى أنّ جيوفاني كان مرتبكًا أيضًا. اقتربتْ منّا سيارة أجرة، في وسط الشارع، فرفع لها يده. قال: «سوف أريك غرفتي، ستزورني في الأيّام القادمة على كلّ حال.»

وقفتْ سيارة الأجرة إلى جوارنا، فدفعني جيوفاني إلى داخلها كأنه خشيَ أن أدير ظهري له وأهرب. جلس إلى جانبي وقال للسّائق: «ناسيون.»

كان الشارع الذي يقطنه عريضًا ومرتّبا، تصطفّ فيه العمائر السكنيّة الحديثة البناء على جانبيه؛ ينتهي الشارع بحديقة صغيرة. كانت غرفته في الخلف، في الطابق الأرضي للعمارة السكنيّة الأخيرة في الشارع. اجتزنا مدخل البناية والمصعد إلى ممرّ مظلم قصير يؤدي إلى غرفته. كانت صغيرة، حدّدتْ معالمها رغم الفوضى. ثمّة رائحة وقود مُحترق في المدفأة. أقفل الباب وراءنا. حدّقنا في بعضنا لحظةً في العتمة، بهلع وسكينة وصعوبة في التنفّس. كنت أرتعدُ وفكّرتُ: إذا لم أفتح الباب حالًا وأخرج من هنا، فسأضيع إلى الأبد. لكني عرفت أنه لا يمكنني فتح الباب، وعرفتُ أن الوقت قد تأخّر لفعل ذلك. وسريعًا كان الوقت قد تأخّر لفعل أيّ شيء سوى التأوّه. سحبني نحوه، جاعلا نفسه بين ذراعيّ كأنّه يُعطيني ذاته كي أستمرّ، وبطيئًا سحبني للأسفل معه إلى ذلك الفراش. ومع أنّ كل شيء فيّ كان يصرخ **لا!** لكن كياني كلّه كان يقول متلهفًا **نعم**.

هنا في جنوب فرنسا لا يسقط الثلج كثيرًا؛ وإذا حدث ذلك فإنّ ندف الثلج تتساقط بخفّة في البداية. أمّا الآن فإن الثلج يتساقط بشدّة منذ نصف ساعة خلتْ، كما لو أنها ستتحول إلى عاصفة ثلجية. ما أبرد هذا الشتاء، رغم أن السكّان المحليين يعتبرون أيّ إشارة إلى البرد القارص من قِبَل الأجانب هي سوء تهذيب، إذ حتى لو هبّت الريح القارصة من كل مكان واخترقت كل شيء، فإن وجوههم تُشعّ بالبهجة كما لو أنهم أطفال عند شاطئ البحر. «أليس الجوّ جميلًا؟» ويتطلعون بوجوههم إلى السماء المنخفضة

المكتظة بالغيوم التي لم تزرها الشّمس لأيام.
أبتعدُ عن نافذة الغرفة الكبيرة وأتمشّى في البيت. بينما أكون في المطبخ، أتطلّع إلى المرآة– قررتُ أن أحلق ذقني قبل أن يبرد الماء– سمعتُ طرقا على الباب. شيء مبهم، أمل جامح، قفز في داخلي لثانية، وأدركت بعدها أنها مديرة البيت التي تقطن في الجانب الآخر للشارع، جاءت للتأكد أني لم أسرق الفضيّات ولم أكسر الصحون أو أقطع خشب الأثاث من أجل المدفأة. وبالطبع كان تهزّ الباب وسمعتُ صوتها هناك بينما تصيح: «مسيو! مسيو، مسيو، الأمريكي!» امتعظتُ، لماذا بحق السماء هي قلقة جدًّا هكذا. لكنها ابتسمتْ حالما فتحتُ البابَ ابتسامة امتزجت فيها الأمومة والغنج. هي كبيرة في السن وليست فرنسية؛ جائت إلى هنا منذ سنوات طويلة كما قالت لي: «عندما كنت فتاة شابة، سيدي، جئت من الجانب الآخر، عبر الحدود مع إيطاليا.» تبدو مثل كل النساء هنا، عبرتْ إلى مرحلة الترمّل كما يغادر طفلٌ طفولته. في البداية، ظنّتْ هيلا أنّهن كلهن أرامل، لكن اتّضح أن معظمهن يعشن مع أزواجهن. قد يعشن مع أبنائهن أيضًا. يلعب الرجال أحيانًا لُعبة الورق في الأيّام المشمسة في حقل مستوٍ بالقرب من منزلنا، وتلتمع في عيونهم حين كانوا ينظرون إلى هيلا نظرة الأب اليقظة الفخورة وتكهّناته المؤرّقة. كنت ألعب أحيانا معهم البلياردو، وأحتسي النبيذ الأحمر، وأدخّن. لكنهم يشعروني بالتوتر جرّاء فُحشهم، وطبيعتهم المنبسطة، والأُلفة بينهم. حياتهم كُتِبَتْ على أيديهم وعلى وجوههم وفي عيونهم. يعاملوني كما لو أني الابن الذي دخل متأخّرًا مرحلة الرجولة؛ لكنهم في الوقت نفسه يُبقون

على مسافة كبيرة بيني وبينهم، لأني في الواقع لا أنتمي لهم؛ وأيضًا يحملون لي إحساسًا (وربما كنت أنا من يحمله) غريبًا، شيء ليس له مغزى كي أتعقّبه. يظهر هذا الشيء في عيونهم حينما أمشي مع هيلا ويمرون بجانبنا في الطريق، يُلقون التحيّة بطريقة مؤدبة، سلام، مسيو – مدام. قد يكونون أبناء أولئك النسوة المتّشحات بالثياب السود، عادوا إلى بيوتهم بعد أن قضوا حياتهم في أعمال النّهب وقهر العالم، عادوا كي يستريحوا ويشعروا بتأنيب الضمير وينتظروا الموت، عادوا إلى تلك الأثداء التي أرضعتهم في طفولتهم رغم أنها نشفتْ الآن.

استقرّتْ ندف الثلج في طيّات شالها الذي يغطي رأسها؛ وتعلّقتْ ندف أخرى في رموشها وخصلات بيض وسود من شعرها لم يغطّها الشال. هي امرأة قويّة جدًّا، رغم لهاثها وانحنائها البسيطين.

«مساء الخير، مسيو. هل أنت مريض؟»

قلت: «لا، لم أمرض. ادخلي.»

دخلت وأغلقت الباب خلفها وسمحت للشال أن ينزلق عن رأسها. ما زلت أحمل كأسي في يدي وهي لاحظت ذلك بصمت.

قالت: «حسنًا، لم نرك أيّامًا طويلة. كلّ تلك المدّة في البيت؟» وفتّشتْ عيناها وجهي.

شعُرت بالحرج والامتعاض؛ رغم لطف عينيها وصوتها.

قلت: «نعم، بسبب الطقس السيّئ.»

قالت: «الوقت ليس منتصف أغسطس، كما تعلم، لكن يجب أن تستنشق هواءً نقيا. من غير المستحسن أن تبقى في البيت وحدك فترةً طويلة.»

قلتُ بيأس: «سأغادر في الصباح، هل تريدين جرد الموجودات والمخزون؟»
قالت: «نعم،» وأخرجتْ من جيبها لائحة بمحتويات البيت، كنتُ قد وقّعتها عند قدومي «لن يستغرق الأمر طويلا. اسمح لي أن أبدأ من نهاية البيت.» وسرنا، تتقدّمني نحو المطبخ بينما ذهبتُ لأضع كأسي على الطاولة بجانب السرير في غرفة النوم الثانويّة.
قالت دون أن تلتفت نحوي: «لا يهمّني إذا كنت تشرب.»
تركتُ كأسي خلفي على كل حال. دخلنا المطبخ الذي كان نظيفًا ومرتّبًا على نحو يبعث على الشك. سألَت بحدّة: «أين كنت تأكل؟ لم نرك منذ أيام. هل ذهبت خارجًا إلى البلدة؟»
أجبت بتمهّل: «نعم، أحيانًا.»
استفسرَتْ: «سيرًا على قدميك؟ لأن سائق الباص لم يرك أيضًا.»
لم تكن تنظر لي أثناء حديثها ذاك، بل تتفحّص المطبخ، وتستثبتْ وجود الأشياء الواردة في اللائحة التي في يدها بقلم أصفر قصير.
لم أستطع إجابة سؤالها الأخير، الذي كان مثل صفعة سخرية، ونسيتُ أن العيون والآذان في هذه القرية الصغيرة ترصد كل حركة مهما كانت بسيطة. ألقتْ نظرة مختصرة على الحمّام.
قلتُ: «سأنظّف هذا هذه الليلة.»
قالت: «آمل ذلك، فقد كان كلّ شيء نظيفًا عندما أتيت.» عُدنا عبر المطبخ. فشلتُ في ملاحظة اختفاء كأسين، كسرتهما أنا، وكنت غير مكترث بإخبارها عنهما، سوف أترك بعض النقود في حاملة الكؤوس. أنارتْ الضوء في غرفة الضيوف. كانت ملابسي المتسخة مرمية في كل مكان هناك. قلت محاولا الابتسام: «سآخذ

هذه الملابس معي.»

قالت: «كان بإمكانك عبور الشارع حيث بيتي، كنت سأفرح لو أعطيتك طعامًا، حساءً بسيطًا، أو شيئًا يُقيم أودك. فأنا أطبخ كلّ يوم لزوجي؛ ما الفرق الذي يحدثه زيادة شخص واحد؟»

أثرّ هذا فيّ كثيرًا لكنّي جهلتُ كيف أُظهر ذلك، ولم أستطع أن أقول لها أنّ تناولَ الطعام معك ومع زوجك كان سيوتّر أعصابي إلى نقطة الانهيار.

ثم سألتني بينما تتفحّص الوسائد المطرزة: «هل ستلتحق بخطيبتك ؟ »

كان يتوجب عليّ الكذب، لكنّي عجزت. كنت أخشى عينيها، تمنيتُ لو كان كأس الشراب معي. قلتُ بشكل قاطع: «لا، لقد رحلت إلى أمريكا.»

قالت ناظرةً إليّ مباشرة: «آها! وهل ستبقى أنت في فرنسا؟»

قلت: «بعضَ الوقت.»

رحتُ أتعرّق. بدتْ لي هذه المرأة القرويّة القادمة من إيطاليا كأنها أم جيوڤاني نفسه من نواحٍ عديدة. وحاولتُ ألّا أسمع عويل كربها، وألّا أرى دموع عينيها، لو عرفَتْ أن ابنها سيموت في الصّباح القادم، لو عرفَت ماذا فعلتُ أنا بابنها. لكنّها، بالطّبع، ليست أمّ جيوڤاني.

قالت: «ليس جيّدًا لشاب مثلك أن يعيش بمفرده في بيت كبير دون امرأة.» بدتْ للحظةٍ حزينة جدا؛ بدأتْ تفكر وتقول أمورًا أفضل من ذي قبل. كنت أعرف أنها تريد قول شيء عن هيلا، هيلا التي لم تحبّها هي ولا غيرها من النساء هنا، لكنها أطفأتْ

الضوء في غرفة الضيوف وذهبنا إلى غرفة النوم الرئيسية التي كنا ننام فيها أنا وهيلا، وهي غير الغرفة التي تركتُ فيها كأس شرابي. هذه الغرفة أيضًا نظيفة جدا ومرتّبة.

تفحّصَت الغرفة ونظرت إليّ، وابتسمت.

قالت: «لم تستخدم هذه الغرفة مؤخّرا،» ضحكتْ، وأحسستُ بوجهي يحمرّ ألمًا.

أضافتْ: «لكنك ستكون سعيدًا مرّة أخرى، يجب أن تبحث عن امراة جيدة، وتتزوج وتنجب أطفالا. نعم! هذا ما يجب أن تفعله»، قالت ذلك كما لو أني عارضتها الرّأي، وقبل أن أقول أيّ كلمة سألتني: «أين أمك؟»

«ميتة.»

أطبقت على أسنانها تعاطفًا: «آه! هذا محزن. وأبوك– هل هو متوفٍّ أيضا؟»

«لا، هو في أمريكا.»

نظرتْ إلى وجهي وقالت: «يا طفلي المسكين!»

لم أقدر على مقاومتها. وإذا لم تتركني سريعًا، فسوف أنتهي إلى ذرف الدموع أو إطلاق الشتائم.

«لكنك لا تنوي أن تجوب العالم مثل بحّار؟ فأنا على يقين، كأُمّ، أن ذاك سيصيب أمّك بالتعاسة. ومتيقنة أيضًا أنك ستكوّن عائلة يوما ما؟»

«بالطبع، يوما ما.»

وضعت يدها القوية على ذراعي وقالت: «مَوْت الأم أمر محزن! لكن أباك سيكون سعيدا جدا بقدوم طفل منك.» سكتتْ

ونظرتْ إليّ بعينين سوداوين لطيفتين، لكنها كانت تنظر إلى شيء أبعد مني أيضا، أضافت: «عندنا ثلاثة أولاد. قُتل اثنان منهما في الحرب. في الحرب أيضًا فقدنا مالنا. شيء محزن، أن تعمل بكدّ طوال حياتك حتى تنعم بالراحة حين يتقدّم بك العمر، وفجأة يضيع كل شيء، أوشك زوجي على الموت بسبب ما حدث ولم يعُد كما كان من قبل.»

ليست الفطنة وحدها ما أبصرتُ في عينيها؛ بل المرارة والحزن أيضا.

هزتْ كتفيها: «ماذا نفعل؟ من الأفضل ألّا نفكر بالخسارات.» وابتسمت.

«يعيش ابننا الذي بقي لنا في الشمال؛ زارنا آخر مرّة قبل سنتين، وجلب معه ابنه الصغير، كان عمره وقتها أربع سنوات، كم كان ولدًا جميلًا! اسمه ماريو. وهو اسم زوجي. قضوا معنا عشرة أيام شعرنا خلالها أننا استعدنا شبابنا.» ابتسمَت وأكملت: «بالأخص زوجي.» وقفتْ هناك لحظة تحمل تلك الابتسامة على وجهها. ثم سألتني فجأة: «هل تصلّي؟»

سألتُ أنا نفسي إذا كنت أستطيع الصّمود لحظة أخرى أمامها.

تلعثمتُ: «لا، لا أصلّي بانتظام.»

«لكنك مؤمن، أليس كذلك؟»

ابتسمتُ من الحيرة، لا تأييدًا للجواب الذي أرادته منّي، رغم أني تمنيتُ ذلك. قلت: «نعم.»

تمنّيت لو رأيت كيف بدت ابتسامتي لها، إذ يبدو أنها لم تطمئنها، لذا قالت لي بحدّة: «يجب أن تصلّي، أؤكّد لك. حتى لو كانت صلاة قصيرة من وقت لآخر. أشعل شمعة صغيرة. لولا الصلاة

والتضرّع للقديسين المباركين لما قدرنا على العيش في هذا العالم. إنّي أكلّمك» قالت، ومطتْ نفسها إلى الأعلى قليلا: «كما لو أنني أمك. لا تشعر بالاستياء مني.»

قلتُ لها: «لكني لا أشعر بالاستياء. أنت لطيفة جدا. هذا لطف منك أن تحدّثيني بتلك الطريقة.»

ابتسمتْ ابتسامة رضا وقالتْ: «الرّجال، لا الأطفال مثلك وحسب، بل الشيوخ منهم أيضًا، يحتاجون دائما إلى امرأة كي تخبرهم الحقيقة. \الرجال فظيعون» وابتسمتْ، وأجبرتني على الابتسام من خبث هذه الطُّرفة الأكثر شيوعًا في الكون كلّه، وأطفأتُ المصباح في غرفة النوم الرئيسية.

اجتزنا الممرّ مجدّدا، شكرًا للرب، نحو غرفة النّوم الثانويّة حيث. تلك غرفة غير مرتبة على الإطلاق؛ المصباح عاطل، ورداء الحمام مرميّ، والكتب والجوارب المتسخة وبضع أكواب قذرة، وكوب فيه قهوة قديمة– كلها تتبعثر في أرجاء الغرفة؛ شراشف السرير تتكوّم وتتداخل بعشوائيّة.

قلتُ: «سأرتب هذه الفوضى قبل حلول الصباح.»

تنهّدتْ: «حسنا. لكن يجب أن تسمع نصيحتي، مسيو، وتتزوّج.»

ضحكنا معا فجأة. وأنهيتُ كأسي. قاربتْ عملية الجرد على النهاية.

ذهبنا إلى الغرفة الأخيرة، أكبر غرفة، حيث كنت أحتفظ بزجاجة نبيذ أمام النافذة. نظرت إلى الزجاجة ثم إليّ وقالت: «لكنك ستكون مخمورا عند حلول الصباح.»

«آه، لا! سآخذ الزجاجة معي عندما أرحل.»

كانت تعرف أني لا اقول الحقيقة. لكنها هزّتْ كتفيها مجددا.

لفّتْ شالها بعد ذلك حول رأسها وانقلبت إلى سيّدة رسميّة جدا، وخجولة قليلا. هي على وشك المغادرة، تمنّيتُ فعل شيء كي أجعلها تبقى. عندما تخرج وتعبر الشارع، سيكون الليل مظلمًا وطويلا كما لم يكن من قبل. عندي ما أقوله لها – لها؟ – لكن بالطبع سوف لن أقول شيئًا. شعرت بحاجة إلى المغفرة؛ أريدها أن تسامحني. لكني أجهل كيف أعترف بذنبي. ذنبي الأساسي بشكل من الأشكال هو أني رجل، وهي تعرف هذا مسبقًا. لقد أفزعتني وجعلتني أشعر بالعري، مثل ولد لم تكتمل رجولته ويقف عاريًا أمام أمه. مدّتْ يدها للمصافحة. فأخذتُها بعدم اكتراث.

«رحلة سعيدة، مسيو. أتمنى لك السعادة هنا أو في أي مكان آخر، يوما ما ربما ستعود لزيارتنا.» وابتسمت بعينين لطيفتين للمجاملة الاجتماعية البحتة، نهاية كيسة لصفقة تجارية.

قلتُ: «شكرا لك، ربما أعود في السنة القادمة» سحبتُ يدي ومشينا نحو الباب.

قالت عند الباب: «آه! رجاءً لا توقظني صباحًا، ضع المفاتيح في صندوق رسائلي. لم يعد لدي ما يستدعي النهوض مبكّرا.»

ابتسمتُ وفتحتُ الباب: «بالتأكيد. طابت ليلتك، سيدتي.»

«طابت ليلتك، مسيو. وداعا.» ومشتْ خارجا نحو الظلام. هناك ضوء ينبعث من بيتي ومن بيتها عبر الشارع. تومض أضواء المدينة من بعيد، وأكاد أسمع هدير البحر.

مشت بضع خطوات عنّي قبل أن تستدير لتخبرني: «تذكّر، على المرء أن يصلّي صلاة قصيرة بين وقت وآخر.»

أغلقتُ الباب. عليّ القيام بأمورٍ كثيرة قبل الصباح. قررتُ تنظيف

الحمام قبل السماح لنفسي بكأس أخرى. شرعتُ أدعك حوض الاستحمام أولًا، بعدها وضعت الماء في دلو لتنظيف الأرضية. الحمام مربع وصغير، بنافذة يكسوها الجليد. تذكّرني النافذة بتلك الغُرَف الخانقة في باريس.

كان لدى جيوڤاني خطة كبيرة لتجديد الغرفة، وقد بدأ بتلك التجديدات فعليًّا، وعشنا مع الجصّ والطابوق المتكوّم فوق الأرضية أيامًا طويلة. كنّا نحمل أكوام الطابوق ليلًا خارج البيت ونتركه في الشارع.

أتوقع أنّهم سوف يأتون لأخذه إلى موته في الصباح الباكر، ربما قبل الفجر، وأن آخر ما سيراه جيوڤاني هي سماء باريس الرمادية المعتمة، التي لطالما ترنّحنا تحتها عائدين إلى البيت في صباحاتٍ يائسةٍ سَكْرى.

القسم الثاني

الفصل الأوّل

الحياة في تلك الغرفة كانت كأنها تجري تحت البحر. مرّ الوقت فوقنا من غير أن نكترث له؛ وجرت الأيام والساعات دون أن ندري. في البداية، كانت حياتنا تتجدد كل يوم بالسعادة والدهشة. لكن الأسى كان ينتظرنا خلف السعادة، والخوف خلف الدهشة. بدأت أزهار المرارة تنبت على لسانينا حين بلغنا ذروة البداية، انزلقنا ووقعنا بعدها في هاوية الأسى والخوف حيث فقدنا التوازن والكرامة واحترامنا لذاتَينا.

يَبَسَ أمام عينيّ وجه جيوڤاني الذي كنت أراه وأردّده عن ظهر قلب، مرارا وتكرارا، في الصباحات والنهارات والليالي. بدأ ذلك الوجه ينأى نحو بقاع سريّة، بدأ يتشقّق. صار الشّعاع في العينين بصيصا، والحاجبان الجميلان العريضان يُظهران عظام الجمجمة تحتهما، وانقلبتْ الشفتان الشهوانيتان إلى الداخل، وانشغلتا بحزنهما الطافح من القلب. تحوّل وجه جيوڤاني إلى وجه غريب– تمنّيتُ أن يكون وجهه غريبا عني لأنه كان يشعرني بالذنب عندما أنظر إليه في حالته تلك. لم يهيّئني كل ما عرفت عن جيوڤاني للتغيير الذي طرأ على حياتنا، لكنه ساعدني في رؤية هذا التغيير.

كان يومنا يبدأ قبل الفجر، عندها أتوجه إلى حانة غيّوم قبيل نداء الشراب الأخير. أحيانا حينما كان غيّوم يقفل الحانة، كنّا أنا وجيوڤاني وبضعة أصدقاء معدودين نبقى لتناول الفطور وسماع الموسيقى.

كان جاك يأتي هناك– فمنذ الوقت الذي تعرفنا فيه على جيوڤاني صار يأتي بوتيرة أكثر إلى الحانة. كنا نغادر عادةً حوالي السّاعة السّابعة صباحًا، إذا تناولنا فطورنا مع غيّوم. كان جاك في حال تواجده في الحانة يُقلّنا إلى البيت بسيارته التي اشتراها فجأة، لكننا غالبًا ما نعود إلى البيت سيرًا بمحاذاة النهر.

ربيع باريس حلّ أخيرًا. أذرعُ البيتَ هذه الليلة، وأستحضر النّهر مجدّدا، الأرصفة الحجرية، والجسور: الجسور التي تعبر تحتها قوارب خَفيضة يرى المرء فيها أحيانًا نساءً يُعرّضن ما غسلن من ملابس على الهواء كي تجفّ. أحيانا كنا نشاهد شابًّا يجدّف قاربه بنشاط لكنه يبدو في الوقت نفسه عاجزًا وسخيفًا. كانت بعض اليخوت ترسو عند ضفة النهر من حين لآخر، وقواربَ للسُّكنى، وزوارق بخارية؛ كُنّا دائمًا نجتازُ دائرة الإطفاء في طريق عودتنا إلى البيت ما جعلنا نتعرف على رجال المطافئ. وبحلول الشتاء التالي حينما كان جيوڤاني مختبئًا في أحد تلك المراكب، اكتشفه رجل اطفاء حينما رآه في إحدى الليالي، زاحفًا نحو مخبئه مع شريحة خبز، وهو من بلّغَ الشّرطة عن مكانه.

كانت الأشجار في تلك الصباحات تستعيد خضرتها، والنهر بدأ بالانخفاض واسترداد وضوحه نتيجة تبدّد الضباب، وبدأ الصيادون يظهرون مجددا فوق سطحه. كان جيوڤاني محقاً

بشأن الصيادين: من المؤكد أنهم لا يصطادون شيئا، لكن الأمل في الحصول على صيد يبرّر لهم المحاولة. كانت أكشاك الكتب بمحاذاة السياج الحجري للنهر تتحول إلى مهرجان ممتع حالما يسمح الطقس للعابرين بالتصفح المتأني للكتب القديمة ذوات الصفحات المطويّة بفعل القراءات السّابقة، والتي يستطيع أيّ سائح اقتناء نسخة وحملها معه إلى الولايات المتحدة أو الدنمارك، وربما حين يصل إلى بيته يعرف قيمة ما اشتراه.

كنا نشاهد البنات والأولاد مع دراجاتهم يمشون بمحاذاة النهر، وحين يبدأ ضوء النهار بالانحسار، تُترَك الدراجات بعيدًا عن الضفّة حتى الغد.

كل ذاك حدث بعد طرد جيوڤاني من عمله. كنّا نتسكّع في المساءات المريرة. عرف جيوڤاني أني سأتركه، لكنه لم يجرؤ على مصارحتي خوفًا من مواجهة الحقيقة. وكنت أفتقد الجرأة لإخباره.

كانت هيلا في طريق عودتها من إسبانيا، ووافق والدي على إرسال مبلغ من المال يُعينني، ولم تكن لديّ نية أن أُنفقه لمساعدة جيوڤاني الذي فعل كثيرًا لمساعدتي، بل نويّتُ استخدام المال للهرب من غرفته.

كانت السماء تبدو كل صباح أعلى قليلا، والنهر يمتدّ أمامنا مع ضباب أقل. وكل يوم كان أصحاب أكشاك الكتب ينزعون قطعة أخرى من ملابسهم، كي يفتخروا بتبدّل لون أجسامهم نحو السُّمرة البرونزيّة.

كنا نلاحظ، في الأزقة وعبر النوافذ المفتوحة، أن أصحاب الفنادق يدعون الفنانين لرسم وتصوير الغرف في فنادقهم. خلعت النساء

في محلات الألبان كنزاتهن الزرق ورفعن أكمامهن التي كشفت عن أذرع قوية، بينما كان الخبز طازجا وحارا في أفران الخبز. تحرر تلاميذ المدارس الصغار من أغطية الرأس ولم تعد ركبهم قرمزية من البرد. كان كل شيء مثل ثرثرة موزونة اللغة، تذكّرني بالرغوة المتولدة من خفق بياض البيض، أو بالآلات الوتريّة المركونة والتي تدخل في الجوقة الموسيقيّة عقب الصعود إلى ذروة المعزوفة.

لم نكن نتناول فطورنا في حانة غيّوم غالبًا، لأنه لم يحببني. كنتُ أحوم عادة حول الحانة، كي لا أثير الريبة، إلى أن ينتهي جيوڤاني من تنظيف الحانة وتغيير ملابسه. طوّرَ زبائن الحانة نظرة فضولية نحونا تنطوي على أمومة بغيضة وحسد وكراهية مبطنة. لم يتحدثوا إلينا بالطريقة نفسها التي يتحدّث بها بعضهم إلى بعض، وكانوا ممتعضين من الطريقة التي فرضناها عليهم في مخاطبتنا. ربما يكون سبب امتعاضهم منّا هو أنّ الحانة، وهي المكان الذي يختمون فيه يومهم، لم تعد تخصّهم بوجود غرباء مثلنا. كانت ثرثراتهم تدور حولنا وعن كيفيّة إخضاعنا والسيطرة علينا.

وأينما نتناول فطورنا، وأينما نمشي، عندما نصل إلى البيت، نكون متعبين جدًّا ويتعذّر علينا النوم مباشرة، فنعدّ القهوة وأحيانًا نشرب الكونياك معها؛ نجلس على السرير ندخّن ونتحدّث. كانت لدينا أشياء كثيرة نقولها لبعضنا – أو على الأقل لدى جيوڤاني. وحتى في أوج حالات الصِّدق، وحتى في محاولاتي المستميتة كي أمنحه نفسي مثلما كان هو يفعل، كنت أقاوم كي أكبح شيئًا ما في داخلي. على سبيل المثال، لم أخبره بشأن هيلا إلى أن مرَّ شهر على

بقائي في غرفته. أخبرته بشأنها فقط عندما عرفتُ من رسائلها أنّها على وشك العودة إلى باريس.

«ماذا تفعل في إسبانيا وحدها، تتجولّ هناك؟» سألني جيوڤاني.

«تُحبّ السّفر» أجبتُ.

رفع حاجبيه بإيحاء الدهشة: «لا أحد يحبّ التجوال، وخصوصا النساء. يجب أن يكون هناك سبب آخر، ربما عندها حبيب إسباني وتخشى مصارحتك؟ ربما هي في صحبة مصارع ثيران.»

«ربما، لكنها لن تخشى من إخباري عندئذ.»

ضحك جيوڤاني وقال: «لا أفهم الأمريكيين أطلاقا.»

«لا أعتقد أن هناك شيئا مستعصيًا جدًّا على الفهم. أنا وهيلا غير متزوجين، كما تعلم.»

وسأل مجدّدًا: «لكن أهي عشيقتك؟»

«نعم»

«وما تزال عشيقتك؟»

تفرّستُ فيه وأجبت: «بالطبع.»

رد جيوڤاني بينما باغتته فكرة: «حسنًا، لا أفهم ماذا تفعل هي في إسبانيا بينما أنت في باريس؟ كم عمرها؟»

راقبته وأجبت: «هي أصغر منّي بسنتين. وما دخل عمرها في الموضوع؟»

«هل هي متزوجة؟ أعني من شخص آخر؟»

ضحكتُ، وضحك هو أيضًا.

«بالطبع لا.»

قال: «ظننتها أكبر سنًّا منك، ومتزوّجة من شخص آخر في مكان

ما، وربما تريد أن تكون برفقته من وقت لآخر، بينما ترغب في الاستمرار بعلاقتها معك. ذلك سيكون ترتيبًا لطيفًا. النساء أحيانًا ممتعات جدًّا لكنهن بحاجة إلى المال دائمًا. لو كانت عشيقتك امرأة لها زوج في إسبانيا فستجلب لك هديّة رائعة. لكنها فتاة شابة تتجول في بلد غريب وحدها، وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق. عليك أن تجد عشيقة أخرى.»

كان ذلك الحديث مُسليًّا جدًّا فلم أستطع التوقف عن الضحك.

سألته: «وهل لديك عشيقة أنت؟»

قال وقد ارتسمت على وجهه نصف ابتسامة ونصف عبوس: «ليس الآن، لكن ربما أعشق امرأة يوما ما. لا أشعر بميل نحو النساء في الوقت الراهن– لا أدري لماذا. كنت أحبهن، ربما أستعيد ذاك الميل مجدّدًا.»

هزّ كتفيه ثم قال: «ربما لأنهن يسببن المشاكل بما يفوق قدرتي على التحمّل في الوقت الرّاهن.»

تمنّيتُ أن اقول له: لقد سلكتَ الطريق الأغرب للبقاء بعيدًا عن المشاكل! لكنّي قلتُ بحذر بعد دقيقة: «رأيك في النساء غير جيّد.»

قال: «آه، النساء! لا داعي لأن يكون لي رأي بهن، شكرًا للسماء. النساء كالماء. هُنّ مغريات، وبإمكانهن أن يكنَّ خائنات، وبإمكانهن أن يكنّ عميقات، كما تعرف، وبإمكانهن أن يكنّ سطحيات» ثمّ سكت برهة قبل أن يُكمل: «ربما لا أحبّ النساء كثيرا، هذا صحيح، لكنّي مارست الحب مع عدّة نساء سابقا، وأحببتُ واحدة أو اثنتين. لكنّي في أغلب الوقت – أغلب الوقت – أمارس الحب مع الجسد فقط.»

قلت له شيئًا لم أظن أني كنت قادرًا على قوله: «لكن هذا قد يُشعرْ المرء بالوحدة الشديدة.»

لم يتوقع هو أيضًا سماع ذلك مني. نظر إليّ ومدّ يده لملاطفة خدي وقال: «نعم، لستُ شرّيرًا مع النساء، أنا أحترمهن – جدًّا – لأن حياتهن الباطنيّة لا تشبه حياة الرجال.»

قلتُ: «النساء لا يحببن تلك الأفكار عنهن.»

«آه، حسنًا، ثمّة اليوم نسوة غريبات يحملن أفكارًا تافهة ويركضن بها في كلّ اتجاه، يتصوّرن أنفسهن مساويات للرجال– يالها من نكتة!– يجب ضربهن بعنف شديد حتى يعرفن من يحكم العالم بحقّ! »

ضحكتُ منه وسألته: «هل كانت النساء اللواتي عرفتهن يحببن الضرب؟»

ابتسم: «لا أعرف إذا كان ذلك يعجبهن أم لا، لكن دون شك أن الضرب لن يجعلهنّ يغادرن.»

ضحكنا، ثم أكمل جيوڤاني حديثه: «على كلّ حال، النساء اللواتي عرفتهنّ لسن مثل فتاتك السخيفة، تتسكع في إسبانيا وترسل لك بطاقات بريدية إلى باريس. ماذا تريد بالضبط؟ هل تريدك أو لا تريدك؟»

قلتُ له: «ذهبّت إلى إسبانيا كي تعرف الإجابة على هذا السؤال.»

فتح جيوڤاني عينيه على اتساعهما وقال بسخط: «إلى إسبانيا؟ لماذا لم تذهب إلى الصين؟ ماذا تفع، تجرّب كل الإسبان وتقارنهم بك؟»

استأتُ قليلًا وقلتُ له: «أنت لا تفهم، هي ذكيّة جدًّا، ودقيقة؛

أرادتْ الذهاب بعيدًا كي تفكّر.»
ردّ عليّ: «وما هو الأمر الذي تفكّر به؟ لا بدّ من القول إنها تبدو لي سخيفة نوعًا ما، فهي لا تستطيع تحديد السّرير الذي ستنام فيه. وتريد أكل الكعكة كلها وحدها.»
قلتُ فجأة: «لو كانت هيلا هنا في باريس، لن أكون حينها في هذه الغرفة معك.»
فاستسلم: «من المحتمل ألّا تعيش هنا معي، ومع ذلك سنرى بعضنا، ولمَ لا؟»
قلت: «لمَ لا؟ افترِض أنّها كشفَتنا؟»
«كشفتنا؟ وعمّ ستكشف؟»
قلتُ: «آه، كفى، أنت تعرف ماذا يمكن أن تكشفْ.»
نظر إليّ بجديّة وقال: «فتاتك الصغيرة هذه تبدو غير محتملة. وماذا ستفعل، تلاحقك في كلّ مكان؟ أو تستأجر مُخبرًا كي ينام تحت فراشنا؟ وفي كلّ الأحوال ما دخلها هي؟»
قلتُ: «لا يمكن أن تكون جادًّا في سؤالك!»
ردّ بحسم: «بالطّبع أنا جاد، أنت هو الشّخص الغامض.»
تأوّه وصبَّ مزيدًا من القهوة، ثمّ رفعَ كأسَي الكونياك عن الأرض وقال: «كل شيء عندك يبدو متشنّجًا ومعقّدًا للغاية، مثل الجرائم الإنكليزية الغامضة. تردّدُ إنها ستكشفنا، ستكشفنا، كما لو أنها ستكشفْ جريمة. نحن لا نرتكب أيّ جريمة.» وصبّ لنا كونياك.
قلتُ: «مجرّد معرفتها بالأمر سيصدمها، هذا كلّ ما في الأمر. النّاس لديهم كلمات قذرة جدًّا لتسمية– لتسمية هذا الوضع.» وسكتُّ.
كان وجهه يوحي أن حججي واهية. أضفتُ كي أدافع عن نفسي:

«بجانب إلى أنّها جريمة، في بلدي[11] أنا لم أنشأ هنا، بل نشأتُ هناك.»

قال جيوڤاني: «كلمات قذرة! أستغرب فعلًا كيف تمكّنتَ من الأستمرار في الحياة إذا كانت الكلمات القذرة تخيفك. الناس معبّأون بالكلمات القذرة، والوقت الوحيد الذي لا يردّدون فيه مثل تلك الكلمات، أعني أغلب الناس، هو عندما يصفون شيئا قذرًا فعلًا!»

سكتَ وبدأنا نراقب بعضنا. وبصرف النظر عن كلّ ما دار في حديثه، كان هو خائفا أيضًا.

ثم قال: «لو أن اهل بلدك يعتبرون الخصوصيّة جريمة، فإنهم يستحقّون ما يحصل لهم. وبالنسبة لفتاتك، هل تلازمك دائمًا؟ أقصد، طوال اليوم، كل يوم؟ ألا تخرج وحدك كي تشرب شيئا؟ أو ربما تتنزّه أحيانًا لتفكّر وحدك، كما تقول هي؟ يبدو أن الأمريكيين يقضون وقتا طويلا في التفكير. وربما حين تفكر وتتناول شرابك، ستنتبه إلى فتاة أخرى تمرّ بجانبك، صحيح؟ وحينها سترفع رأسك وتنظر إلى السماء وتشعر أن الدماء ما تزال تسير في عروقك! أم أن حياتك متوقفة حتى عودة هيلا؟ ألا تتنزّه وحدك، أو تنظر إلى الفتيات، أو إلى السماء؟ هيا أجبني!»

«أخبرتك سابقا إننا غير متزوجين. لكن يبدو أنني عجزتُ عن إفهامك أيّ شيء إطلاقًا هذا الصباح.»

---

(11) العلاقات المثليّة في أمريكا لم تعُد تُجرّم منذ 2003، وقد شُرّع الزّواج بين المثليّين في الولايات الأمريكية كلّها عام 2015 ماعدا بعض الأراضي الهنديّة. زمن الرواية يجري في النّصف الأوّل من القرن العشرين. م.

قال: «في كل الأحوال، حين تعود هيلا إلى باريس، فأنت قادر على مقابة الآخرين دونها، أليس كذلك؟»

«بالطبع.»

«وهل تطلبُ منك أن تخبرها بكل ما تفعله حينما لا تكون هي برفقتك؟»

تنهّدتُ، وشعرتُ بفقدان السّيطرة على النقاش وأردته ببساطة أن ينتهي. رشفتُ من الكونياك بسرعة ما سبب لي حُرقة في لعومي: «بالطبع لا.»

قال بعد تبصّر: «حسنًا. أنت جذّاب جدًّا ومتحضّر وحَسَن المظهر، ولا أرى سببًا لقلقك، أو سببًا لتذمُّر هيلا، ما لم تكن عاجزًا جنسيًّا. ولكي نرتّب الوضع، عزيزي، الحياة العمليّة، بسيطة جدًّا – علينا أن نقوم بما نقدر عليه.»

أجبته: «أتفق معك، لكن أحيانًا تسير الأمور بشكل خاطئ، عندها عليك أن تجد طريقا آخر. بالطبع ليس على طريقة الدراما الإنكليزية التي تعرفها.»

صبَّ مزيدًا من الكونياك في كأسي وابتسم لي، كما لو أنه حلَّ كل مشاكلي. كانت ابتسامته بريئة جدا وجعلتني ابتسمُ ردّا عليها.

كان جيوڤاني يعتقد أنه شخص واقعي وأنني لست مثله، وأنه يعلّمني حقائق الحياة القاسية. وكان اعتقاده ذاك مهمّ جدا له، لأنه يعرف من أعماق قلبه، أنني ومن أعماق قلبي، ودون إرادة منّي، أقاومه بكل ما أوتيتُ من قوّة.

سقطنا أخيرًا في الصّمت ونمنا. استيقظنا في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، كانت أشعة الشمس الكليلة تنقّبُ الزوايا

المهملة في فوضى الغرفة. نهضنا واغتسلنا وحلقنا، نتصادم ببعضنا ونمزح بصخب مع رغبة ضمنيّة في مغادرة الغرفة. خرجنا بعدها، ورقصنا في شوارع باريس، أكلنا سريعًا في مطعم ما وتركتُ جيوڤاني على باب حانة غيّوم.

شعرتُ بعدها بالحريّة لأني وحدي، ربما ذهبتُ لمشاهدة فيلم، أو تنزّهت، أو عُدت إلى البيت للقراءة، أو جلست في حديقة عامة وقرأت، أو جلستُ في مقهى يطلّ على الشارع، أو تحدّثتُ إلى الناس أو كتبتُ رسائل. كتبتُ لهيلا، لم أخبرها بشيء، أو ربما كتبتُ لأبي أسأله بعض المال أيضًا. غير مهمّ ما كنت أفعله، كانت أنايَ الأُخرى تجثم على صدري، وترتجف خوفًا من مواجهة جدوى حياتي.

أيقظ جيوڤاني الجرح الغائر، وأعتَقَ الضّيق المحبوس في داخلي. أدركتُ ذلك في إحدى الظهيرات، حين رافقته إلى العمل عبر شارع مونتبارناس. اشترينا كيلو غرامًا من الكرز، كنّا نأكل الحبات بينما نمشي. في تلك الظهيرة، كنا كطفلين نتصرف بمرح. لكن الناظر إلينا يرى رجلين يحتكّان ببعضهما على الرصيف العريض ويتراشقان بنوى الكرز، يبصقها أحدهما في وجه الآخر، ولا بدّ أن ذلك المنظر كان مقززًا جدًّا.

كنت سعيدًا بتلك الصبيانيّة الرّائعة: في تلك اللحظة أحببتُ جيوڤاني حقًّا، في تلك الظهيرة بدا جيوڤاني جميلا كما لم يكن من قبل. كنتُ أنظر إلى وجهه وأدركُ أنه يعني لي الكثير، آه لو أستطيع جعل هذا الوجه مشرقًا إلى الأبد. وأدركتُ أيضًا أني على استعداد للتضحية بالكثير كي لا أفقد تلك السعادة. شعرتُ بنفسي تتدفّق في اتجاهه، مثل النهر الذي يُسرع في جريانه حين تتكسّر فيه قطع

الجليد. ومع ذلك، في تلك اللحظة الفريدة، مرّ بيننا على الرصيف صبيّ آخر، غريب، وحالًا كسيتْ عليه جمال جيوڤاني، فشعرتُ نحوه بما كنت أشعره نحو جيوڤاني. رأى الأخير هذا في وجهي ما جعله يضحك كثيرًا. احمرّ وجهي خجلًا لكنه استمرّ في الضّحك. تحوّل بعدها الشارع، الأضواء، قهقهاته، إلى مشهد كابوسي. بقيتُ أنظر إلى الأشجار، وإلى الضوء الذي يتخلل الأوراق، شعرت بالحزن والخزي والارتباك ومرارة عظيمة. كان جزءًا من فوضاي الداخلية، في تلك اللحظة، هو التشنج الذي شعرتُ به في عضلات رقبتي بسبب الجهد الذي بذلته كي لا أدير رأسي وأراقب ذلك الفتى يتضاءل مبتعدا في الجادة المشرقة. أيقظَ جيوڤاني الوحش في داخلي، وهذا الوحش لن ينام مجدّدا؛ على كل حال، يوما ما سوف لن أكون برفقة جيوڤاني. وماذا سأفعل حينها؟ هل أفعل مثلما يفعل الآخرون، هل سألاحق كل الفتيان خلال ما يعلمه الرّب وحده من أزقّة وأماكن مظلمة؟

تلك المُقاربة لما قد يحدث لي فتحَت في داخلي أبواب الخوف وأطلقت كرهًا عظيمًا لجيوڤاني، كُرهًا يُعادل حبّي له، ويعتاش من الجذور ذاتها.

الفصل الثاني

كلّ غرفة دخلتها ذكرتني بغرفة جيوڤاني، وكلّ غرفة سأجد نفسي فيها، ستذكرني بغرفة جيوڤاني. ومع ذلك فأنا بالكاد أذكرُ تلك الغرفة، لأني في الحقيقة لم أمكث فيها فترة طويلة. التقيتُ جيوڤاني قبل الربيع وغادرتُ أثناء الصيف. لكن يبدو أنّ ما قضيتُه هناك يوازي عمرًا بأكمله. كانت الحياة في تلك الغرفة تجري كما تجري الحياة تحت سطح الماء، كما قلت، ولا شكّ أن العيش في أعماق البحر قد غيرني.

لنبدأ بالغرفة التي لم تكن تتّسع لشخصين. كانت تطلّ على فناء صغير، تطلّ بمعنى أن الغرفة كانت تحتوي على نافذتين متقابلتين تطلان على فناء ضيق ينتهكه الآخرون كل يوم، كما لو أنه غابة. نحن، أو جيوڤاني بالأخص، كان يُبقي النافذتين مغلقتين طوال الوقت. لم يشتر جيوڤاني ستائر للنافذتين ولم نفكر في ذلك حينما كنت أعيش هناك. لكن جيوڤاني صبغ زجاج النافذتين بطلاء أبيض ثقيل لضمان الخصوصيّة. كنّا أحيانا نسمع الصغار يلعبون في الفناء، وأحيانًا أخرى نرى ظلالًا غريبة تُرسَم على النافذتين من الخارج. كان جيوڤاني يترك كل ما يشغله ويقرفص

ساكنًا مثل كلب صيد إلى أن يبتعد ما يبدو أنه يهدّدنا.

كانت لديه دائما خطط لترتيب وتجديد تلك الغرفة وقد بدأ ذلك بالفعل قبل لقائنا. كشط ورق الحائط لأحد الجدران المتّسخة وطلاه بالأبيض. بينما كان الحائط المقابل له مغطى بورق جدران رُسمت عليه سيّدة ذات تنّورة دائرية ورجُلٍ يرتدي بنطالًا قصيرًا، يمشيان معًا، تحوطهما الورود. طرح جيوڤاني صفحات منبسطة ومطويّة من ورق الحائط القديم على أرضية الغرفة في الغبار. كنّا نترك ملابسنا المتّسخة على الأرضية أيضًا مع مُعدّات جيوڤاني من الصبغ والفرش وزجاجات دهان التربنتاين. تكدّستْ حقائبنا بعضها فوق بعض وتأرجحتْ فوق الكرسيّ أو المنضدة الصّغيرة، لذلك كنّا نخشى فتحها، وأحيانًا كنّا نستغني عن الضروريات البسيطة كالجوارب النظيفة عدّة أيّام.

كان الحيّ الذي نسكنه بعيدًا عن مركز المدينة وليس عندنا هاتف. لم يأت أحد لزيارتنا مطلقًا، ما عدا جاك في أوقات متباعدة. أذكر أوّل يوم لي في تلك الغرفة، حين استيقظتُ عصرًا، كان جيوڤاني بجانبي، ثقيلًا كما صخرة، يغطّ في نوم عميق. عمّتْ ظلالٌ باهتة أرجاء الغرفة. أشعلتُ سيجارة خلسة كي لا أوقظ جيوڤاني. كنت قلقًا من مواجهة عينيه. أجلتُ نظري حولي وتذكّرتُ أن جيوڤاني صرّح بقذارة غرفته الشديدة بينما كنّا في سيارة الأُجرة، فقلت بهدوء: «أنا واثق أنها كذلك،» وقد أدرت وجهي إلى الشّارع عبر زجاج السيارة، وسكتنا. أتذكّرُ الصمت الواخز والتوتر الّذين تسيّدَا جوّ الغرفة لحظة صحوي يومها، والذي كسره جيوڤاني باستيقاظه مع ابتسامة خجولة ومريرة. قائلًا: «يجب عليّ البحث عن وصْفٍ

شِعْريٍّ لغرفتي!»

ومدَّ أصابعه الثقيلة في الهواء، كما لو أنها استعارة حقيقيّة.

راقبته.

قال أخيرًا بينما أصابعه تُشير إلى شارعٍ في الهواء: «انظر إلى كَمّ القمامة في هذه المدينة، أين يخفونها؟ لا أعرف أين يخفونها– من المحتمل جدًّا في غرفتي هذه!»

قلت: «من المرجّح أنهم يطمرونها في نهر السين.»

لكنني شعرت عندما استيقظت وأجلت في الغرفة نظري، مدى تبجّحه وجُبنه الّذان أظهرهما في حديثه وهيئته عندم قال ما قال. ليس هنا مكبّ قمامة باريس المجهولة المكان، بل هنا مُتقيًّأ جيوفاني لحياته كلّها.

أمامي وعلى جانبيّ وفي كل مكان في الغرفة، تراكمتْ بعضها فوق بعض صناديق من الورق المقوّى والجلد، بعضها مربوط بسلاسل، وبعضها مُقفلْ، وبعضها الآخر مشقوق، يعلوها صندوق تتدلّى منه نوتات موسيقية. ووضعتْ على الطاولة آلة كمان تنام في حقيبتها المتهرّئة، ومن المستحيل معرفة كم مضى من الوقت عليها هناك؛ يوم واحد، أم مئة عام.

تراكمتْ على الطاولة أيضًا صحف قديمة مصفرّة، وقنان فارغة، وبطاطا واحدة انكمشتْ واستدكنَ لونها، وتعفّنت براعمها النابتة. وثمّة نبيذ أحمر اندلق وجفّ على الأرضية، أشاعَ في هواء الغرفة مذاقًا حلوًا وكثيفًا.

لم تكن الفوضى التي عمّت الغرفة مخيفة بحد ذاتها؛ لكن المخيف حقًّا هو جوهر الفوضى ذاتها، وهو غير موجود في الفوضى نفسها

أو في تفاصيلها، لأن فوضى تلك الغرفة لم تكن بسبب عادة أو ظرف أو مزاج؛ بل كانت مسألة عقاب ذاتيّ ومرارة. عرفتُ ذلك سريعًا، لكن لا أدري كيف عرفته؛ ربما لأني أردتُ أن أعيش. وبدأتُ أحدّق في تفاصيل الغرفة بكل توتّري وخبرتي المتراكمة، أحدقُ بكلّ ما أتيح للمرء من قوّة تنبثق أحيانا عندما نبصر وقوع الخطر المحتوم، أحدّقُ في الصمت وفي جدران الغرفة وما تحت السقف: على أحد الجدران عاشقان باهتان محصوران في حديقة ورد دون نهاية، والنافذتان كأنهما حدقتين كبيرتين من ثلج ونار تراقبان ما يحدث، والسقف الواطئ مثل الغيوم الثقيلة التي تحجز وسوسة الشياطين والتي تخلّلت الضوء الأصفر الخبيث المعلّق مثل وباء دون أن تنجح في تخفيف وهجه، وممارسة جنسيّة غير معرّفة حدثتْ تحت السقف في مركز الغرفة. تحت سهم الشّعاع المكسور هذه، هذه الزهرة المسحوقة من الضّوء، تمدّد الذّعر الذي يطوّق روح جيوڤاني. فهمت لماذا أحضرني إلى ملجئه الأخير. كنت أريد تحطيم هذه الغرفة ومنح جيوڤاني حياة جديدة أفضل. وتلك الحياة لا يمكنها أن تكون غير حياتي أنا، وكي تستطيع حياتي تغيير جيوڤاني، عليها أن تكون أوّلًا جزءًا من هذه الغرفة، غرفة جيوڤاني.

في بداية علاقتنا، ولكون الدافع الذي أحضرني إلى غرفة جيوڤاني هو جزء جوهريّ من يأسي، ما كنت لآبه كثيرًا برغبات جيوڤاني وآماله، لذلك اختلقتُ في نفسي نوعًا من السعادة بلعب دور ربّة البيت بعد خروج جيوڤاني إلى العمل. رميتُ خارجًا كلّ الأوراق والقناني والقمامة المتراكمة؛ وفحصتُ محتويات عدد لا يحصى

من الصناديق والحقائب وتخلّصتُ منها. لكني لست ربّة بيت- الرّجال لا يمكنهم أن يكونوا ربّات بيوت. وسعادتي لم تكن حقيقية وعميقة، رغم ابتسامة جيوڤاني الوديعة الممتنّة عند عودته وقوله بشتّى الطرق التي أتيحت له أنّ الحياة رائعة معي، وكيف وقفتُ بينه وبين الظّلمة بحناني وبراعتي. كان يريدني أن أرى كل يوم كيف يتغيّر هو، وأن الحب قد بدّله، وكيف كان يعمل ويغنّي ويعتزّ بي. لكن حيرتي كانت غير محتملة، أحيانا أقول لنفسي إنها حياتي وعليّ التوقف عن قمعها ومحاربتها، وإني سعيد معه وهو يبادلني الحب، ويُشعرني بالأمان. وأحيانًا أخرى حين يكون بعيدا عني، أقول لنفسي أنني لن أدعه يلمسني مرّة أخرى. وعندما يعود ويلمسني، أُقنعُ نفسي إنّه لمس الجسد فقط، وكل شيء سينتهي قريبًا. وحينما ينتهي كل شيء، أستلقي في الظلام وأسمع أنفاسه وأحلم بلمسات يديه، يدي جيوڤاني، أو يدي أيّ شخص آخر، يدين لهما القدرة على سحقي وجمعي إلى نفسي مرّة أخرى.

كنت أحيانا أترك جيوڤاني بعد أن نتناول فطورنا في الظهيرة، وأمضي نحو مكتب بريد أمريكان إكسبرس في منطقة أوبرا، لاستلام رسائلي. ونادرا ما رافقني جيوڤاني؛ كان يقول إنه لا يحتمل أن يكون وسط الأمريكيّين، ويقول إنهم كلّهم يتشابهون كما كنتُ أعتقد أنا بالنسبة له. لكنهم لا يتشابهون بالنسبة لي. أدركتُ أن لدى الأمريكيّين أمرًا مشتركًا يجعلهم أمريكيين، لكني أبدًا لم أعرف ما هو ذاك الأمر المشترك. وعرفتُ أيضًا أني أشاركهم هذا القاسم المشترك المبهم. وعرفتُ أن أحد أسباب إعجاب جيوڤاني بي هو كوني أمريكيًا. كان جيوڤاني عندما يريد إخباري أنّه مستاء

مني، يقول: «أمريكيٌّ فعلًا!» وعلى العكس، حين يكون سعيدًا يقول عنّي إني لستُ أمريكيًّا على الإطلاق؛ وفي كلا الحالتين كان قادرًا على جعل وترٍ ما يرنّ عميقا في داخلي لا يصله أحدٌ سواه. وكنت ممتعضًا من ذلك: امتعضتُ لمناداتي بالأمريكي، وامتعضتُ من عدم مناداتي كذلك. خُيّل إليّ أن مناداتي بذلك الاسم تجعلني لا شيء أكثر من ذلك الأمريكي المقصود كائنًا من أكون؛ وامتعضتُ من عدم مناداتي بالأمريكي لأنّه يُشعرني أني دون قيمة.

كنتُ في أمريكا أميّز دون أدنى جهد بين عادات الناس وأنماطهم ولهجاتهم. لكن هنا، بدا الجميع بالنسبة لي كأنّهم وصلوا للتوّ من نبراسكا، ما لم أُصغِ السّمع جيّدا. في وطني كنت أنتبه للملابس المختلفة التي يرتديها الناس. هنا أنتبه فقط للحقائب والكاميرات والأحزمة والقبعات، وكلها من متجر كبير واحد متعدّد الفروع. في موطني كان عندي إحساس بلمسة الأنوثة المتفرّدة في كل امرأة أمامي؛ أمّا الأنوثة هنا فهي محاكاة تافهة لفعل الجنس الخالي من المشاعر، كأنّه تلامسٌ للأعضاء الجنسيّة في الهواء الطلق، وحتى العجائز والجدات ليس لديهن مشكلة في بيع أجسادهن. ومعضلة الرّجال هنا أنهم مُتصابون وغير قادرين على التصالح مع سنّهم؛ تنبعث منهم رائحة الصّابون التي تحميهم من مغبّة انتشار رائحتهم الحميمة الخاصّة؛ الصّبيّ الذي كانَه يُشعّ من عيني الرّجل الستينيّ دون ذنوب، غير ملموس، ولم يتغيّر. الرّجُل الستينيّ نفسه قد تراه واقفًا يحجز تذكرتين إلى روما مع زوجته المبتسمة إلى جانبه. زوجته تلك قد تلعب دور أمّه أيضًا: تدفع طعامَ الحبوب الصّباحي إلى معدته دفعًا، وقد تكون "روما" هو

فيلم في السينما وعدته هي بمشاهدته كمكافأة. ومع ذلك، كنت أشكّ أنّ ما أراه هو الحقيقة كاملة، بل إنّه جزء منها، وربما الجزء الأقل أهميّة؛ خلف تلك الوجوه، وتحت تلك الثياب والأصوات الفظّة، تكمن القوّة ويستوطن الحزن، لا يُعلَنْ ولا يُعترَف بهما. قوّة المبدعين وحُزن المعزولين.

راودتني تلك الأفكار كلّها وأنا في طريقي إلى بريد الأمريكان إكسبرس في عصر أحد الأيام المشرقة جدًّا. وصلتُ إلى المكتب وأخذتُ مكاني في طابور البريد خلف فتاتين قرّرتا المكوث في أورُبا على أمل الحصول على عمل مع الحكومة الأمريكية في ألمانيا. وقعتْ إحداهما في غرام فتًى سويسريّ؛ هذا ما سمعته من محاورة الفتاتين الهامسة والمضطربة. كانت الصديقة تحثّ صديقتها على ما "يجب مواجهته"– ولم أكن قادرا على اكتشاف ما هو الذي يجب مواجهته؛ واستمرّت الفتاة المُغرمة في هزّ رأسها بطريقة تدلُّ على الحيرة، لا الموافقة. كانت الفتاة المغرمة تريد أن تتحدّث أكثر في ذلك الجو الخانق، لكن ما من وسيلة لذلك. سمعتُ صديقتها تقول لها: «لا تكوني غبيّة هكذا!» ردّت الفتاة: «أعرف، أعرف.» تكوّن لدي انطباع، أنه على الرغم من رغبة الفتاة المغرمة الأكيدة في ألّا تكون مغفلة، لكنها أضاعتْ تعريف معنى "الغفلة" وربما لن تكون قادرة على إيجاد تعريف آخر.

استلمتُ رسالتين، واحدة من أبي والأخرى من هيلا. كانت هيلا تُرسل لي بطاقات بريديّة منذ فترة بسيطة فقط. خشيتُ أن تكون رسالتها مهمّة فلم أرغب في قراءتها على عجل، لذلك فتحت رسالة أبي أوّلًا. قرأتها بينما أقف في الظلّ بعيدًا عن أشعة الشمس

المباشرة، بجانب باب مزدوج ينفتح وينطبق باستمرار.

كتبَ أبي: "عزيزي الوحش، متى ستعود إلى أمريكا؟ لا تظنّ أني أناني، لكن الحقيقة هي أني أتمنى رؤيتك. وأعتقد أنك غِبْتَ بما يكفي. الله وحده يعلم ما الذي تفعله هناك، فأنت لم تكتب لي مطوّلًا كي أستطيع على الأقل أن أخمّن كيف تعيش. لكن حدسي يخبرني إنك ستندم على هذه الأيام التي تقضيها بعيدًا. لا تفعل شيئا سوى النظر إلى سُرّتك، بينما الحياة تتسرّب من بين أصابعك. لا نقود لك هذه المرّة. أنت أمريكي مثل لحم الخنزير والفاصولياء، رغم أنك لا تريد الاعتراف بذلك. وربما سوف لن تنزعج من قولي إنك كبُرتَ في السّنّ كي تواصل الدراسة إذا كان ما تفعله الآن هو الدراسة. أنت في الثلاثين تقريبًا، وأنا كبرتُ أيضًا، وأنت كلّ ما بقي لي، لذا أتمنى أن أراك. ألحخْت عليّ أن أُرسل لك بعض النقود، وأعتقد أنّك تظنني نذلًا في موضوع النقود. لا أودُّ أن تتضوّر جوعًا هناك، لكنك تعرف أنك إذا كنت محتاجًا لأيّ شيء، فسأكون أوّل من يمدّ لك يد العون، لكني فعلًا أعتقد أنه ليس من صالحك أن أعاونك على إنفاق ما تبقّى من نقودك القليلة، فحين تعود إلى الوطن لن تجد مالًا يساعدك على الاستقرار. ماذا تفعل بحق الجحيم؟ هل تستطيع أن تخبر رجلًا عجوزًا مثلي بسرّك؟ ربما لا تصدّق ذلك، لكني كنتُ شابًا أيضًا!"

وتتابعت أسطره ليخبرني عن زوجته التي تتمنّى رؤيتي سريعا، وعن عدد من الأصدقاء وماذا يفعلون. كان واضحا أن غيابي بدأ يخيفه. لكنه كان يجهل سبب خوفه. ومن الواضح أنه يعيش في حُفرة شكوك تزداد غموضا وعتمة يوما بعد آخر – ويجهل كيف يترجم

تلك الشكوك إلى كلمات، حتى لو تحلّى بالقدرة على مواجهتي. السؤال الذي كان يتلهف لطرحه ليس مكتوبا في الرسالة ولا في إغراءات العودة التي قدّمها، لكنه: "أهي امراة، ديفيد؟ عُد معها إلى الوطن. ولا أحفل بمن تكون. عُد معها إلى البيت وسأساعدك كي تستقر." لم يقوَ أبي على طرح هذا السؤال لأنه لن يقوى على تحمل أيّ ردٍّ سلبيّ، أيّ ردٍّ يكشف له كيف أصبحنا غريبين بعضنا عن بعض. طويتُ الرسالة ووضعتها في جيبي الخلفي ونظرت لحظةً إلى الشارع العريض، الغريب، المشمس.

رأيتُ بحّارًا يرتدي الأبيض، ويعبر الشارع بهمّة، تحيطه هالة ما، ربما يأمل في تحقيق شيء ما سريعًا. حدقتُ به رغم جهلي أنّي أفعل. وتمنّيتُ لو كنت مكانه. بدا أصغر منّي وأكثر وسامة وشُقرة، وقد كسته فحولته بشكل صريح مثلما كساه جلده. هذا البحّار ذكّرني بالوطن– الوطن ليس بالضرورة مكانًا، إنّه ببساطة حالةٌ لا عودة منها، أو مرفأ نهائيّ. الوطن هو أن تعرف الآخر، كيف يثمل وكيف يتصرف مع أصدقائه وكيف يتألم حينما تخدعه امرأة. تساءلت لو كان أبي مرّ بمواقف كهذه، أو إذا مررت بها أنا نفسي– تخيّلتُ صعوبة حياة هذا الولد، الذي يذرع الشّارع مثل شعاع، مجرّدًا من الأسلاف، دون أواصر على الإطلاق. تقابلنا بعد برهة وجها لوجه وقد لاحظ، بطريقة ما، الاضطراب في عينيّ. تطلّعَ إليّ بازدراء بليغ وعارف؛ كما لو كان يتطلّع، لكن قبل ساعات ربما، إلى مومسٍ شبقة أنيقة تحاول إقناعه أنّها سيّدة محترمة. طالت نظراتنا لبعضنا في اللحظة التالية، كنت واثقا من تدفق الكلام من ذلك الجمال المشع، ربما بعض التنويعات اللغوية المراوغة على سبيل:

"احذر يا صغيري، أنا أعرف نواياك!" شعرتُ بالحرارة تصعد إلى وجهي، وقلبي يتشنّج ويختضّ، حاولتُ التظاهر بالقسوة واللامبالاة، بينما كنتُ أحثّ الخطى سريعًا كي أتجاوزه. عبرتُ إلى الجانب الآخر من الجادة، لم أجرؤ على النظر خلفي. ماذا عساه رأى فيّ فحفّزه على ذاك الازدراء الآنيّ. لا أفترض شيئًا يتعلّق بطريقة سَيري، أو الطريقة التي أعقد بها يديّ، أو صوتي الذي لم يسمعه في الأحوال كلّها. كان شيئًا آخر، لم تكن لي القدرة على رؤيته ابدًا، مثل النّظر إلى الشّمس المجرّدة. أسرعتُ بعدها ولم أتطلّع إلى أيّ شخص مرّ بجانبي على الرّصيف، رجلًا كان أم أمراة.

الرّغبة والحسد هما ما لمحهما البحّار في عَينيّ الصريحتين، غالبا ما لمحت أنا نفسي الرّغبة والحسد في عينَي جاك، وكانت ردّة فعلي تُماثل ردّة فعل البحّار تمامًا. لكن تلك الرّغبة التي أشعر بها نحو الفتيان والمحكومة عليّ إلى الأبد هي رغبة تثير الخوف فيّ أكثر من إثارتها الشّهوة. سِرتُ بأقصى سرعة استطعتها، لم أكن قادرا على التوقف، فربما ما زال البحار يراقبني. جلست إلى طاولة مقهى بالقرب من نهر السين في شارع الأهرامات، وفتحت رسالة هيلا.

"عزيزي، إسبانيا هي البلد المفضل عندي، لكن تبقى باريس هي مدينتي الرائعة. أتلهّف كي أعود إلى أولئك الناس الحمقى، الذين يركضون للّحاق بالمترو ويقفزون من الباصات ويركبون الدراجات الهوائية ويعلقون في الزّحام. أتلهف كي أنبهر بكل تلك التماثيل المجنونة في الحدائق السخيفة. أبكي لأجل نساء المتعة في ساحة الكونكورد. لا يوجد في إسبانيا ما يشبه ذاك كلّه. على أيّ حال، إسبانيا ليست مملّة، ولولا أني عشت في باريس وعرفتها

لكنت بقيت في إسبانيا إلى الأبد. إسبانيا جميلة جدا، واسعة ومشمسة. لكني مللتُ زيت الزيتون والسمك، ومللتُ صنّاجات ودفوف راقصي الفلامنكو. أريد العودة إلى الوطن، أريد العودة إلى باريس. لم أطلق على أيّ مكان (وطنًا) من قبل، وأعجب من نفسي لأني أسمي باريس وطني. لم يحدث لي شيء هنا، أظن أن هذا سيفرحك، وأعترف أنه يفرحني أكثر. الإسبان لطيفون، لكن بالطبع أغلبهم فقراء جدًّا، ولا أحبّ السّائحين خاصة الإنكليزيّين والأمريكيّين المدمنين والذين تدفع عوائلهم نفقات إقامتهم في إسبانيا كي يبقوا بعيدين تجنُّبًا لمشاكلهم. (أتمنى لو كان لي عائلة). أنا في جزيرة مايوركا الآن، وكم سيكون هذا المكان جميلا لو أمكن طمْر كل العجائز والأرامل في البحر ومنع شراب المارتيني. في حياتي لم أر شيئا يشبه نظرة هؤلاء الشمطاوات الثملات حين ينظرن إلى أيّ كائن يرتدي سروالًا، خصوصا الرجال تحت سن العشرين. أقول لنفسي حسنًا يا هيلا، يا فتاتي، تمعّني بهن جيدا، فربما تنظرين إلى مستقبلك. والمصيبة هي أني أحبّ نفسي كثيرًا. لذلك قرّرتُ السماح لاثنين أن يُجرّبا مهنة محبّتي هذه، أعني... أنا وأنت، ولنرَ كيف تجري الأمور. أشعر أنّي بخير، لأنّي اتّخذت قراري، وآمل أنك ستشعر بذلك أيضًا. أُرغِمْتُ نوعًا ما على رحلة إلى أشبيلية برفقة عائلة إنكليزية تعرّفتُ عليهم في برشلونة. هم يحبون إسبانيا جدًّا ونصحوني أن أحضر معهم مصارعةً للثيران في أشبيلية، لأني لم أحضرها قط رغم تجوالي في إسبانيا. العائلة لطيفة جدًّا، الأب شاعر نوعا ما ويعمل لدى البي بي سي، والزّوجة مخلصة ومُحبّة. ولديهما ولد طائش ولا يطاق، يظنّ نفسه

مجنونًا بي، لكنه إنكليزي حدّ النّخاع وأصغر مني كثيرًا. سنغادر غدًا إلى أشبيلية، وبعد عشرة أيام، هُم إلى إنكلترا، وأنا – إليك!"

طويتُ الرسالة التي فطنتُ إلى أني كنت أنتظرها أيامًا وليالِيَ طويلة. أتى النادل وسألني ماذا أريد أن أشرب. كنت أنوي طلب كحولٍ خفيف، لكنّي الآن أريد بثّ روح البهجة، لذا طلبت ويسكي إسكتلنديًّا مع صودا. وبينما كنت أحتسي الويسكي الذي بدا أمريكيًّا جدًّا، تمعّنتُ في باريس الغريبة، كانت تعجّ بالضوضاء، تحت شمس لاهبة، مثل قلبي. تسائلتُ ماذا سأفعل.

لم أشعر بالخوف. لأكُنْ صادقًا وإقول أني لم اشعر بأيّ خوف بالطريقة ذاتها التي لا يشعُر بالخوف من أطلقوا النار عليه، كما أخبروني.

شعرتُ ببعض الراحة. لم يعد من الضروري أن أتّخذ القرار بيدي. فقد أخبرتُ نفسي أننا كلانا نعرف، أنا وجيوڤاني، أن نشيجنا الغرائزيّ لن يستمر إلى الأبد. وفي كلّ الأحوال كنتُ صادقًا معه وهو يعرف كل شيء عن هيلا. ويعرف أنها ستعود إلى باريس يوم ما. والآن ستعود هيلا إلى باريس وستنتهي حياتي مع جيوڤاني. سيبدو مثل أمرٍ حدث معي مرّة واحدة، كما حدث مع رجال كثر، مرّة واحدة. دفعتُ ثمن ما شربته ومشيتُ بمحاذاة النهر إلى حي مونتبارناس.

شعرت ببعض البهجة بينما أعبُر شارع راسباي باتجاه المقاهي في حي مونتبارناس، تذكرت أني وهيلا مشينا هنا من قبل كما مشيتُ مع جيوڤاني هنا أيضا. ومع كل خطوة، كان وجهه هو ما يشعّ في ذاكرتي، وليس وجهها. بدأت أفكر كيف سأخبره وكيف ستكون

ردّة فعله. لا أظنّه سيتشاجر معي، لكني كنت أخشى تعابير وجهه. أخشى الألم الذي سأراه في وجهه. وفي الواقع، لم يكن حتى هذا هو سبب خوفي الحقيقي، بل كان يمور في نفسي خوف آخر، وهو ما ساقني إلى مونتبارناس. كنت أريد التقاط فتاة، أيّ فتاة. لكن أرصفة المقاهي تبدو مهجورة. مشيتُ ببطء متطلّعًا إلى الطاولات على جانبي الشارع. لم أر أيّ أحد أعرفه. مشيتُ بعيدًا نحو شارع كلوسيري-دو-ليلا، حيث احتسيتُ شرابا وقرأتُ الرسالتين مجدّدا. نويتُ الذهاب إلى جيوڤاني حالا وإخباره أني سأتركه، لكني أعرف أنه لم يفتح الحانة بعد، ويمكنه أن يكون في أيّ مكان من باريس في هذه الساعة. مشيتُ ببطء في الشارع الذي أتيتُ منه ورأيت فتاتين، مومستين فرنسيّتين، لكنهما لم تكونا على درجة من الجمال.

أقنعتُ نفسي بإمكانية العثور على فتاة أجمل منهما. جلستُ في مقهى سيليكت أراقب العابرين، واحتسيتُ شرابًا آخر. لم يظهر أحد من معارفي في الشارع مدّة طويلة. الشخص الوحيد الذي ظهر، والذي أعرفه جيدا، كانت فتاة اسمها سو، شقراء وبدينة نوعًا ما، لديها مواصفات المتباريات في مسابقة ملكة جمال رينغولد، مع أنها ليست جميلة. كان شعرها الأشقر المجعّد قصيرًا جدًّا، ونهداها صغيرين، وتحمل مؤخّرة كبيرة. كانت ترتدي طوال الوقت الجينز الأزرق الضيّق كي تتظاهر أنها لا تهتم بالمظاهر. أعتقد أنها من مدينة فيلادلفيا، وتنتمي لأسرة غنيّة جدا.

أحيانًا تشتم أهلها حين تثمل، وأحيانًا أخرى تثمل وتثني على فضائلهم بالوفاء وحسن التدبير. شعرتُ بالراحة والفزع معا

لرؤيتها. بدأتْ مخيلتي في تجريدها من ثيابها، في اللحظة التي رأيتها فيها. دعوتُها: «اجلسي، اشربي شيئًا.»

قالت أثناء جلوسها وبحثها عن النادل: «أنا سعيدة لرؤيتك، أنت مختفٍ عن الأنظار تقريبًا. كيف حالك؟»

أجبتها: «أنا بخير، وأنت؟»

«آه، أنا! لا جديد معي...» ثم تركتْ بحثها عن النادل ومالت نحوي بابتسامة ودّ، وخفّضتْ للأسفل زاويتَي فمها الضاريتين والرقيقتين في الوقت نفسه في إشارة إلى المزح والجدّ معًا: «خُلقتُ من حِجارة الجدران!» ضحكنا. حدّقت بي: «أخبروني أنك تعيش في نهاية باريس، قريبًا من حديقة الحيوانات.»

«وجدت غرفة صغيرة هناك مخصّصة للخادمات. رخيصة جدًّا.»

«هل تعيش هناك بمفردك؟»

شعرت بالعرق ينزّ من جبهتي. ربما تعرف عن أمر جيوڤاني.

قلتُ: «نوعًا ما.»

«نوعا ما؟ ماذا يعني ذلك بحق الجحيم؟ هل تعيش مع قرد مثلا؟»

ابتسمتُ: «لا، عندي صديق فرنسي يعيش مع عشيقته، لكنهما يتخاصمان كثيرًا، والغرفة التي أقطنها هي غرفته في الأساس، فعندما ترميه عشيقته خارجا، يبقى معي عدّة أيّام.»

تنهّدتْ: «آه! صَدْع القلب!»

قلتُ: «هو يقضي وقتًا ممتعًا معي، والغرفة تعجبه. ماذا عنك؟»

ردّتْ: «حِجارة الجدران لا يمكن اختراقها.»

أتى النادل. تشجّعتُ: «لا يمكن اختراقها؟ ألا يعتمد ذلك على السّلاح؟»

سألتني: «ماذا ستبتاع لي؟»

«ماذا تريدين أنت؟»

وابتسمنا. وقف النادل على رأسينا يعرض أنواعًا من مُتَع الحياة.

طرفتْ برموش عينيها الزرقاوين الضيّقتين ثم قالت: «أعتقد أني سآخذ ريكار مع ثلج كثير.»

قلت للنادل: «كأسا ريكار مع ثلج كثير.»

«نعم، مسيو.»

اعتقدتُ أن النادل استخفّ بنا معا. فكّرتُ في جيوفاني وبعدد المرات التي تخرج هذه العبارة "نعم مسيو" من بين شفتيه، كلّ مساء. مع هذه الفكرة الخاطفة، واتتني فكرة خاطفة كالتي سبقتها، تَبَصّرٌ جديد بجيوفاني، بألمه وحياته الخاصّة وكلّ ما يجتاحه كالفيضان حينما نستلقي معًا في الليل.

قلت لها: «وماذا بعد؟» وفتحت عينيها على اتساعهما.

«أين كنّا؟» كانت تحاول التغنّج والعناد في الوقت نفسه. شعرتُ أني على وشك فعل أمرٍ قاسٍ جدًا. لكني لم أستطع التوقف.

قلتُ: «كنّا نتكلم عن حجارة الجدران وكيفية اختراقها؟»

ردّت بابتسامة مصطنعة: «كنتُ أجهل أنّك تهتم بحجارة الجدران!»

«هناك أشياء كثيرة لا تعرفيها عني إذًا!» عاد النادل مع الشراب، وأكملتُ: «ألا تعتقدين أن الاكتشاف شيء ممتع؟»

حدّقتْ بكأسها مُستاءة وقالت: «صِدقًا» ومالت نحوي مرّة أخرى طارفةً بعينها: «لا.»

قلتُ: «كل شيء بالنسبة لك الآن هو اكتشاف، أنتِ ما زلت شابّة!»

صمتتْ لحظة، ورشفتْ من كأسها، ثمّ قالت أخيرًا: «لقد جرّبتُ كل الاكتشافات التي أقدر على تحمّلها.»

راقبتُ حركة فخذيها تحت بنطالها الجينز وقلتُ لها: «لا يمكنك أن تبقي حجارة جدرانٍ إلى الابد!»

«وما المانع؟»

قلتُ: «صغيرتي، أقدّم لكِ عرضًا.»

رفعتْ كأسها وارتشفتْ منه مجدّدًا، ونظرَت إلى الشارع أمامها: «وما هو عرضك؟»

«نتناول شرابًا. عندك.»

قالت مائلةً نحوي: «لا يوجد في بيتي شراب.»

قلتُ: «بمقدرونا شراء زجاجة كحول في طريقنا.»

حدّقتْ بيّ وهلة طويلة. أجبرتُ نفسي على النّظر إليها مباشرةً دون أن أخفض بصري.

قالت أخيرًا: «أنا واثقة أنه لا ينبغي فعل ذلك.»

«لمَ لا؟»

تحرّكتْ بضعف في كرسي الخيزران الذي تجلس فيه وقالت: «لا أعرف ما الذي تريده!»

ضحكتُ: «إذا دعوتني لتناول مشروب في بيتك، عندها سأريك.»

قالتْ: «أنت غير طبيعيّ، مستحيل» ولأوّل مرّة كان هناك شيئ حقيقيّ وصادقٌ في عينيها وصوتها.

ابتسمتُ لها مع نظرة امتزجت فيها، كما تمنّيت، الصبيانية والإصرار.

قلتُ: «لا أدري ما المستحيل في ما قلته. أنا أرمي كل أوراقي أمامك

على الطاولة. وأنت تمسكين كل أوراقك. لماذا تظنين أنّ رجلًا ما غير طبيعيّ حينما يُعلن انجذابه لك؟»

قالت بينما أنهت شرابها: «آه، أرجوك أنا متأكدة أن مشاعرك هذه هي بفعل توهّج شمس الصيف.»

قلتُ: «لا دخل لشمس الصيف بالموضوع.» وحينما لم تُبادر إلى الإجابة، أكملتُ: «كلّ ما عليك فعله هو أن تقرري ما إذا كنّا سنتناول كأسًا أخرى هنا أم في بيتك.»

قرضَت أصابعها فجأة، لكنّها فشلتْ في أن تتظهر ذلك بمظهر المرح: «تعال، أنا متأكدة أني سأندم على هذا، لكن اشتَرِ شيئا نشربه، فلا يوجد شيء في البيت. الطريق من هناك» ثم أضافتْ بعد لحظة: «سأتأكد من حصولي على شيء من هذه الصّفقة!»

أنا من شعرَ بتراجع مفزع في تلك اللحظة. ولكي أتفادى النظر اليها، تصنّعتُ التسرّع والضّجر من تأخّر قدوم النادل. دفعت له الحساب عندما جاء، ونهضنا. بدأنا المشي باتجاه شارع دي-سيفر، حيث تقطن سو في شقّة صغيرة.

كانت شقّتها صغيرة ومليئة بالأثاث. قالت: «كل هذا الأثاث تعود ملكيّته إلى سيدة فرنسية مسنّة استأجرتُ منها الشقّة، وهي الآن في مونتي كارلو من أجل تهدئة أعصابها.»

كانت سو مشدودة الأعصاب أيضًا، وشعرتُ أن أعصابها المشدودة قد تكون لصالحي فترة وجيزة. كنتُ قد اشتريتُ زجاجة كونياك صغيرة فوضعتها على طاولتها المرمريّة المزدحمة، وأخذت سو بين ذراعيّ. كنت واعيًا تمامًا إلى أنّ الوقت قارب على السابعة مساء، وانعكاس الشمس سيختفي سريعا من النهر، كان ليل باريس على

وشك البدء، وجيوڤاني الآن في عمله.

كانت جَسيمة جدًّا ورطبة بشكل مقلق– رطبة حتى دون تلامُس. شعرتُ بارتيابها وخوفها وبصلابةٍ وتقلّصٍ داخلها، ربما بفعل رجالٍ كُثُر مثلي أرادوا إخضاعها. ما كنّا على وشك القيام به لم يكن لطيفًا.

وبينما شعرتْ هي بذلك، ابتعدتْ عني.

قالت: «دعنا نتناول كأسًا ما لم تكن على عجلة من أمرك. سأحاول ألّا أضيع وقتك أكثر مما يجب.»

ابتسمتْ هي، وأنا أيضًا. كُنّا متقاربين في تلك اللحظة كما لو كنّا نشترك في عمليّة سرقةٍ ما.

قلتُ لها: «دعينا نتناول بضعة كؤوس.»

ردّت: «لكن ليس كثيرًا.»

وتعمدتْ الابتسام مرة أخرى مثل ملكة مقهورة في فيلم، وقد أُجبرَت على مواجهة الكاميرا بعد أن خبأت وجهها الباكي في مشهد سابق. أخذتْ قنينة الكونياك إلى زاوية مطبخها.

صاحت عليّ من ركن المطبخ: «استرخ، واخلع حذاءك وجوربيك، وتفحّص كتبي، دائما أسأل نفسي ماذا كنت سأفعل في هذا العالم دون الكتب.»

خلعتُ حذائي وأسندتُ ظهري إلى أريكتها، محاولا عدم التفكير بشيء. لكني كنت أفكر أن ما فعلته مع جيوڤاني لا يمكن أن يكون أكثر انحطاطا ممّا أنا بصدد فعله مع سو. عادتْ بسرعة مع كأسَي براندي. جلستْ على الأريكة قُربي وقرعنا كأسينا. شربنا قليلا، راقبتني بُرهة، لمستُ نهديها. جزؤها العلويّ. وضعتْ كأسها

جانبًا بتراخ شديد واستلقتْ فوقي. كان ذاك دليلًا دامغًا على يأسها العميق، عرفتُ أنها لا تمنح نفسها لي، بل لذلك الحبيب الذي ربما لن يأتي.

فكّرتُ بأشياء كثيرة وأنا مستلقٍ مع سو في ذلك المكان المظلم. وتساءلتُ: هل احتاطت كي تمنع احتمال حملها، فكّرتُ في احتمال ولادة طفل ينتمي إليّ وإلى سو، وكيف ستُسجن حياتي إلى الأبد نتيجة ذلك. فكرتُ ببنطالها الجينز، فربما رمته فوق السيجارة التي كانت تدخنها. ربما هناك شخص لديه مفتاح شقتها، أو أن الجدران الهزيلة تسمح بسماع صوتينا. فكّرتُ بالكُره التي سنكنّه لبعضنا في بضع لحظات قادمة. اقتربتُ من سو كأنها عملٌ يجب عليّ تأديته، عمل كان من الضروري القيام به بأسلوب غير مألوف. أدركتُ في أعماقي أني عاملتها بخسّة، وعليّ تمويه هذه الحقيقة. حاولت إقناعها، عبر فعل الحب المروّع الذي كنّا نقترفه، أني لم أحتقرها أو أزدري جسدها، ولن تكون هي سبب عدم قدرتي على مجاراتها حينما نتعامَد مرّة أخرى.

ومرّة أخرى، أدركتُ أن خوفي المفرط لا أساس له، بل هو في الحقيقة كذبة. وفي كل لحظة يتضح أكثر أن ما أخشاه ليس له علاقة بجسدي. سو ليست هيلا، وهي لن تقلّل من فزعي لِما قد يحدث عندما تعود هيلا، بل هي ضاعفت خوفي وصار حقيقيًّا أكثر من أيّ وقت مضى.

عرفت أيضًا أن أداء جسدي لفعل الحب مع سو كان جيّدا جدا، وحاولتُ عدم الاستخفاف بها لأنها تعبتْ بسرعة. ارتحلتُ عبر شبكة من تأوّهات سو، وترْيِيت قبضتها على ظهري، وخمّنتُ

متى يمكنني أن أهرب من تشنّج فخذيها وساقيها. عرفتُ اقتراب النهاية، صارت تنهداتها أعلى وأقسى، كنتُ واعيًا جدًا للعرق البارد الذي نزَّ من ظهري. قلت لنفسي حسنًا، لتأخذني ولن أفكّر كثيرًا. وجاءت النهاية وكرهتها وكرهت نفسي. انتهى كلّ شيء، وهرع إلينا ظلام الغرفة الصّغيرة سريعًا. وكلّ ما أردته هو الخروج من تلك الغرفة. استلقَتْ ساكنة وقتًا طويلًا. شعرتُ بالليل في الخارج يناديني. تلفّتُ بحثًا عن سيجارة.

قالت: «يجدُر بنا أن ننهي شرابنا.»

جلستْ وأنارتْ المكان بمفتاح الكهرباء جانب سريرها.

كنت فزعا في اللحظة التي عمّ فيها الضياء أرجاء المكان، لكنها لم تر في عينَيّ فزعي. حَدّقتْ بوجهي كما لو أني مُنقذها، ووصلتُ توّا من رحلة طويلة على حصان أبيض إلى سجنها. رفعَتْ كأسها.

قلتُ: «لصحّتك.»

«لصحّتي أنا؟» وقهقهتْ ضاحكة قبل أن تقول: «لصحّتك أنت عزيزي!»

مالتْ نحوي وقبّلَت فمي. استرخَتْ ونظرَت إليّ بعينين نصف مغمضتين، وقالت بخفّة: «هل يمكننا القيام بذلك مجدّدًا، أحيانًا؟»

أخبرتها، محاولا الضحك: «لا أرى ما يمنع ذلك، نحمل عدّتنا دائما!»

صمتت، ثم قالت: «هل بإمكاننا تناول العشاء معًا– هذه الليلة؟»

«أنا آسف، أنا فعلا آسف، سو، لكني مرتبط بموعد.»

«أو غدًا، ربما؟»

«اسمعي سو، أكره الالتزام بالمواعيد. لكنّي سأفاجئك.»
أفرغتْ كأسها، وقالت: «أشك في ذلك.»
نهضتْ وخطتْ بضع خطوات عنّي: «سأرتدي ملابس بسيطة وآتي معك.» اختفتْ وسمعتُ جريان الماء. جلست في ذاك المكان عاريًا إلّا من جوربيّ، وملأتُ كأسي بالبراندي مجدّدًا. الآن أخشى الخروج إلى الليل الذي خُيّل إليّ قبل لحظات أنه يناديني.
عندما عادتْ كانت ترتدي فستانًا وحذاءً، وقد جمعت شعرها عاليًا فوق رأسها. بَدَتْ أجمل، وأقرب إلى كونها فتاة، طالبة مدرسة. نهضتُ وارتديتُ ثيابي. قلتُ لها: «تبدين جميلة.»
عرفتُ أن لديها كلامًا كثيرًا لتقوله، لكنها أرغمتْ نفسها على السكوت. لم أكن قادرًا على تحمّل رؤية الصّراع الذي يحدث أمامي في وجهها. لقد جعلتني أشعر بخجل فظيع. قالتْ أخيرًا: «ربما ستكون دون شريك مجدّدًا، أظنّ أنّه لا مانع عندي لو بحثت عني حينها» ثمّ ابتسمَتْ أغرب ابتسامة رأيتها في حياتي، كانت مزيجًا من الألم والنّقمة والخزي، لكنها لوّنتها بتلك الابتسامة الواسعة الفتيّة المشرقة المرحة والقاسية في آن، والتي تشبه هيكلها العظميّ تحت جسمها المترهل. ولو وضعني القَدَر مجدّدًا في متناول يد سو، فربما ستقتلني بابتسامتها تلك فقط.
قلتُ: «أشعلي شمعة وضعيها عند النافذة.» ثمّ فتحَتْ بابها، وخرجنا إلى الشوارع.

الفصل الثالث

متلعثمًا بأعذار طالب مدرسة، تركتُ سو في أقرب زاوية. راقبتُ هيئتها المتبلّدة وهي تعبر الشارع نحو المقاهي. كنت أجهلُ أين أذهب أو ماذا أريد أن أفعل. أخيرًا وجدت نفسي بمحاذاة النّهر، عائدًا إلى البيت على مهل.

كانت هي المرّة الأولى في حياتي التي أواجه فيها الموت كحقيقة. فكّرتُ في كلّ الناس الذين سبقوني ونظروا إلى الأسفل نحو النهر، واختاروا النوم في عمقه. فكرت فيهم، وكيف انتحروا بتلك الطريقة، وبفعل الانتحار ذاته. بالطبع حاولت الانتحار حين كنت صبيًّا، مثل أغلب الناس، ربما كنوع من الانتقام، أو طريقة ما لإخبار العالم بمدى قسوته التي جعلتني تعيسًا إلى درجةٍ رغبت عندها في الموت. لكن هدوء ذلك المساء وصمته، بينما كنت أتسكع عائدا إلى البيت، لا علاقة لهما بالعاصفة التي سبّبت تعاسة ذلك الفتى النائي البعيد. ببساطة كنت أفكّرُ في الأموات الذين انقضتْ أيّامهم، لأني كنت أجهل كيف سأنفق ما تبقّى من أيامي.

كانت باريس التي أحبها كثيرًا، صامتة تماما، كأنما هُجِرتْ شوارعها، رغم أن المساء كان في بدايته. ومع ذلك، فإنّه على امتداد ضفّة النهر، وتحت الجسور، وفي ظلال الجدران، أكاد أسمع

التأوّهات المرتعشة للعشاق والمخذولين، والنائمين، والمتعانقين، والمخمورين، مُنتظرين هبوط الليل.

خلف جدران المنازل التي عبرتها، كان الفرنسيون ينظّفون الصحون، ويضعون جان بيير الصغير وماري في سريرَيْهما، متجهمين في وجه مشاكلهم الأبدية والأسعار والكنيسة والأوضاع المتقلّبة. تلك الجدران والنوافذ المغلقة، تحبسهم وتحميهم من الظلام والعويل المستمر خلال هذا الليل الطويل.

وسيجد الصّغير جان بيير، والطفلة ماري نفسَيهما يتسكعان في الخارج بجانب النهر في غضون عشرة أعوام قادمة، وقد سقطا من شبكة الأمان، مثلي. ياللطريق الطويل الذي قطعته كي أبيتَ محطّمًا!

نعم، إنها الحقيقة التي أستدعيها الآن. ابتعدتُ عن النهر نحو الشارع الذي يقودني إلى البيت. كنت أريد أطفالًا، أريد أن أعود داخل الجدران مجددًا، مع الضوء والأمان، مع رجولتي التي لا أشك فيها، أراقب زوجتي وأضع أطفالي في أسرتهم. أريدُ السرير ذاته في الليل، والذراعين ذاتهما، أريد الاستيقاظ صباحًا عارفًا أين أنا. أريد امرأة تكون لي أرضًا ثابتة، مثل الأرض نفسها، حيث يمكنني الموت والانبعاث، والتجدّد الأبديّ. تقريبًا حصلتُ على ذلك مرّة؛ وسأتمكن من الحصول عليه مجدّدًا، وسأقدر على جعل أحلامي حقيقة.

كل ما يتطلبه الأمر مني هو إرادة قوية ولفترة قصيرة كي أستعيد نفسي مجدّدا. رأيتُ ضوءَ الغرفة ينبعث من أطراف الباب بينما كنت أقطع البَهو متّجهًا إليها. وقبل أن أضع مفتاحي في القفل،

فُتِحَ الباب، كان جيوڤاني واقفًا هناك ضاحكًا، يتدلّى شعره على عينيه، وفي يده كأس كونياك. اندهشتُ في البداية للسّرور الذي كسى وجهه. عرفتُ بعدها أن ما أدهشني لم يكن سرورًا، بل يأساً وهستيريا وهلوسات.

بدأت بسؤاله ماذا كان يفعل في البيت، لكنّه سحبني إلى داخل الغرفة. عقد ذراعيه حول رقبتي بإحكام. كان يرتجف. سألني: «أين كنت؟»، نظرتُ إلى وجهه وانسحبتُ برفق بعيدًا عنه. أكمل: «بحثتُ عنك في كل مكان.»

سألته: «هل ذهبت إلى العمل؟»

أجابني: «لا، صبَّ لنفسك كأسًا. اشتريتُ زجاجة كونياك كي أحتفل بتحرّري.» وصبّ لي كأس كونياك. لم أكن قادرًا على الحركة. اقترب منّي مجدّدا، ووضع الكأس في يدي.

«جيوڤاني، ماذا حدث؟»

لم يُجِب. وفجأة قرفص على حافة الفراش، حينئذٍ انتبهتُ إلى أنّه في حالة غضب شديدة.

«أولئك القذرون، أنت تعرف...» ونظر إليّ. كانت الدموع تملأ عينيه واستمرّ في كَيل الشتائم: «مجرّد قذارة، كلّهم منحطون وسافلون ورخيصون.»

مدّ ذراعيه وسحبني إلى جانبه على الأرض: «كلّهم ما عداك. الجميع ما عداك.»

ضمَّ وجهي بين يديه. أثارت رقّته الشديدة هلعي.

قال: «أتضرّع إلى الله ألّا تخذلني،» وقبّل فمي بلُطفٍ غريب.

أبدًا، لم تفشل لمساته في إثارة شهوتي؛ لكن أنفاسه الحارة هذه

المرة أثارت رغبتي في القيء. سحبتُ نفسي برفق منه ورشفتُ من كأس الكونياك.

قلتُ: «جيوڤاني، أرجوك قل لي ماذا حدث، ما المشكلة؟»

«لقد طردني، غيّوم. ألقى بي خارجًا.»

ضحك ونهض، وراح يذرع الغرفة الصغيرة ذهابًا وإيابًا.

«قال لي لا تأتِ أبدا إلى حانتي. قال لي أني سارق ومجرم وولد قذر من أولاد الشوارع وأني ركضتُ وراءه– أنا ركضتُ وراءه– لأني كنت أريد سرقته بعد ممارسة الجنس. القذر!»

وضحك جيوڤاني مجدّدا. عجزتُ عن التفوّه بكلمة. شعرتُ أن جدران الغرفة تُطبق عليّ. وقف جيوڤاني أمام نافذتنا المصبوغة بالطلاء الأبيض، يوليني ظهره، وقال: «قال تلك الأشياء كلّها أمام أناسٍ كُثُر، وسط المساحة الرئيسيّة من الحانة. كان ينتظر قدوم الناس لقول كلامه القذر. أردتُ قتله، وقتلهم جيمعًا.»

عاد مجددا إلى وسط الغرفة وصبَّ لنفسه كأسًا أُخرى من الكونياك. شربه في جُرعة واحدة، وفجأة قذف الكأس بكلّ قوته على الجدار. تلاشى صرير الارتطام سريعًا وتشظّى الزجاج إلى عشرات القطع فوق الفراش، وأرضية الغرفة. عجزتُ عن الحركة في الحال؛ شعرتُ كمن يقف على جزيرة صغيرة والماء يحيط قدميّ، لكني كنت أراقبُ نفسي التي تحرّكت سريعا. أمسكته من كتفيه. بدأ يبكي. عانقته. أحسستُ بحزنه يخترقني، وأن قلبي سينفجر لأجله. لا أدري لماذا حسبته دون دراية منّي قويًا. ابتعد عني وجلسَ مُسندًا ظهره إلى الحائط غير المغطّى بالورق. جلستُ أمامه.

قال: «وصلت في الموعد المعتاد، وشعرتُ بنشاط كبير هذا اليوم،

لم يكن غيّوم موجودا، نظّفتُ الحانة كما هي العادة، وتناولتُ شرابا بسيطا وأكلتُ قليلا من الطعام. أتى هو بعد ذلك ولاحظتُ مزاجه العكر الخطير – ربما تعرّضَ للإهانة من فتى صغير. أمرٌ مُضحك» وابتسم قبل أن يُكمل: «يُمكنك معرفة أن مزاجه في حالة خطيرة إذا انقلب إلى شخصٍ محترم جدًّا، هكذا يصير هو حينما يتعرض للإهانة التي تجعله يعرف ويرى جيدا، ولو لحظةً واحدة، مدى قُبحه، وضراوة وحدته، وعندها سيتذكر أصله وأنه أحد أفراد عائلة فرنسية عريقة. وقد يتذكر أيضًا أن اسم هذه العائلة سيندثر بموته. وعندها سيتحتم عليه فعل شيء ما على وجه السرعة كي يطرد إحساسه بالقبح والضّعة. ربما يثير ضجيجًا ما أو يمازح صبيًّا جميلًا أو يثمل أو يتعارك أو يُعيد تقليب صوره القذرة...»

قام جيوڤاني وبدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهابا مرّة أخرى، وأكمل: «لا أدري ما مشكلته اليوم، ما عن وصل حتى راح يحاول التصرّف بطريقة أرباب العمل. كان يبحث عن أيّ خطأ مني. لكني لم أقترف أي خطأ. لذلك صعد إلى مكتبه في الأعلى، وصاح عليّ لآتيه. كرهتُ الصعود إلى مكانه الضيق ذاك، الذي يشرف على الحانة، لكن تحتم عليّ الذهاب. وجدته يرتدي روبه، ويفوح العطر منه. في اللحظة التي رأيته فيها هكذا فقدتُ أعصابي، ولا أدري لماذا. نظر إليّ كما لو أنّه مِغناج أسطوري. لكنّه قبيح، قبيح، وله جسدٌ مثل حليب متعفن! وبعدها سألني عنك. اندهشتُ لأنه لم يكن يذكرك قبلها بتاتًا. قلتُ إنّك بخير. وسألني إذا ما كنّا نعيش معًا. كان يجب عليّ الكذب، لكني لم أرَ أيّ سبب يستدعي الكذب على

جِنيٍّ عجوزٍ مُقرِفٍ مثله، لذلك قلتُ: نعم. حاولت أن أكون هادئا. وبعدها سألني أسئلة مروّعة وبدأتُ أفقد أعصابي بينما أراقبه وأستمع إليه. ظننتُ من الأفضل أن أكون صريحًا وسريعًا معه، لذلك قلت له أن أسئلته لا يصح طرحها، حتى من قبل طبيب أو قسّ، ومن الأجدر أن يخجل من نفسه. ربما كان ينتظر ما قلته، كي يفقد أعصابه ويذكّرني أنه التقطني من الشوارع، وأنه فعل لي كذا وكذا، فعل كل شيء لي لأنه ظنّ أني فاتن وجميل، ولأنه أحبني- وأني عديم الوفاء والأخلاق. ربما تعاملتُ مع الموقف كله بشكل سيئ، أعرفُ، كان يجدر بي معاملته بطريقة أخرى قبل شهور، كنت سأجعله يصرخ ويُقبّل قدمي، أُقسم!- لكني لم أرد ذلك، حقا لا أريد أن أكون قذرا معه. حاولتُ أن أكون جادًّا معه ورسميًّا. أخبرته أني لم أكذب عليه قط وأني لا أرغب أن أكون عشيقه، ورغم ذلك فقد منحني فرصة العمل عنده. أخبرته أني عملتُ بجدٍّ في حانته وكنت أمينا معه، وليس ذنبي إذا-إذا -إذا لم أشعر نحوه، بمثل مشاعره نحوي. وبعدها ذكّرني أنّه في مرّة - مرة واحدة - أنّي لم أقل له لا، لكني كنت ضعيفًا من الجوع وقتئذ. حاولتُ الهدوء والتعامل مع الموقف بشكل صحيح. لذلك قلت له: في ذلك الوقت لم يكن عندي حبيب. لكنّي لستُ وحيدًا الآن، عندي صديق. ظننته سيفهم ذلك، لأنه كما يدّعي مولع جدًّا بالرومانسية والوفاء. ضحكَ وقال عنك أشياء مروّعة، وأنك مجرّد فتى أمريكي أتى إلى فرنسا لفعل أشياء لا يستطيع فعلها في بلده، وأنك سوف تتركني سريعًا. وأخيرًا، فقدتُ أعصابي، فقلت له أنه لا يدفع لي راتبًا لسماع الافتراءات. بعدها، سمعتُ أحدهم

يدخُل الحانة، لذا أدرتُ له ظهري ونزلت.»

وقفَ جيوڤاني أمامي، وسألني مبتسمًا: «هل لي بمزيد من الكونياك؟ لن أكسر الكأس هذه المرة.» أعطيته كأسي. أفرغه في جوفه وأعاده إليّ. راقبَ وجهي وقال: «لا تخف، سنكون على ما يرام. أنا نفسي لستُ خائفًا.»

غامتْ عيناه، ونظرَ مجدّدًا باتجاه النافذة.

قال: «حسنا، تمنيتُ أن الموضوع انتهى عند ذاك الحد. عملتُ في الحانة محاولا عدم التفكير في غيّوم أو فيما يفكّر أو يفعل في مكتبه العلويّ. انشغلتُ جدًّا. وفجأة، سمعتُ صوت اصطفاق الباب بقوّة في الطابق الثاني وعرفت أنّ شيئا مروّعا قد حدث. نزل غيّوم إلى الحانة، بكامل أناقته، كأيّ رجل أعمال فرنسي، وتوجّه مباشرة نحوي. لم يتحدّث مع أحد أثناء نزوله، وبدا شاحبا وغاضبا وذاك من شأنه أن يثير انتباه الآخرين. كان الجميع ينظرون إليه وما هو فاعل. ظننتُه سيضربني، أو ربما جنّ جنونه ويُخفي مسدّسًا في جيبه. لذلك كنت خائفا جدا، ولم يخفّف خوفي من غلوائه أيضا. ذهب خلف المشرَب وبدأ يردّد أني مجرّد سارق ولوطي وأمرني بالخروج من حانته حالا وإلا فإنه سيخبر الشرطة ويضعني خلف القضبان. كنت مصدوما جدا من كلامه لدرجة عدم القدرة على الكلام، وبدأ صوته يعلو ويُلفتُ انتباه الناس الموجودين. وفجأة، شعرتُ أني على وشك السقوط من مكان مرتفع. تبلّد إحساسي تمامًا ولم أشعر بشيء، ولا حتى بالغضب. لكنّي شعرت بدموعي حارة كالنّار تنزّ من عينيَّ. لم أسترد أنفاسي، ولا يمكنني التصديق أنه يقترف كل ذاك في حقّي. وبقيت أردّد: ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟

لكنّه لم يُجبني، بل استمرّ يصرخ عاليا، كأنه يصوّب طلقات مسدس إليّ: مرّ شهرٌ، يا قذرا أنت تعرف جيّدًا!" ولم يعرف أحد ماذا كان يقصد، وصوّر الأمر كما لو أنه حدث في ردهة المسرح قبل شهر حيث التقيته، هل تذكر؟ والكل عرف أنّي فعلتُ شيئا شنيعًا، وأن غيّوم على حقّ وأنّي المذنب. ذهب بعدها إلى آلة النقد وأخذ بعض المال- كنت أعرف أنه يعلم جيّدًا أن النقود في الدرج في مثل ذاك الوقت غير كافية- ودفعها إليَّ قائلًا: خذ! خذ! أفضّلُ أن أعطيك المال بنفسي على أن تسرقني آخر الليل! اذهب الآن! آه يا ديفيد، لو رأيتَ الوجوه في تلك الحانة، كان يتوجب عليك أن تراهم. كانوا في أشدّ حالات الانتباه والتعاطف معه، وعرفوا أنّهم قد عرفوا كلّ شيء الآن، وأنّهم دائما كانوا يعرفون هذا الشيء، وأنهم سعداء جدًّا لأني سرقتُ غيّوم ولم أسرق منهم شيئا. آه! أولاد العاهرات! اللوطيين!»

بكى جيوڤاني مجدّدًا، مع غضب جارف هذه المرّة، وأكمل: «ثمّ ضربته، وقبضَتْ عليَّ بعدها أيادٍ كثيرة، وبالكاد أذكر ما حدث بعدها، لكنّي وجدت نفسي في الشارع، مع فواتير كثيرة ممزّقة في يدي، وكل الناس يحدقون بي. لم أعرف ماذا أفعل، كرهتُ أن أهرب، لكني عرفتُ أنه لو حدث شيء آخر فإن الشرطة ستأتي وربما سيضعني غيّوم في السجن. لكننا سنتقابل مجدّدا، أُقسم! وفي ذاك اليوم...»

توقف جيوڤاني عن الكلام وجلس. نظر إلى الحائط. ثم التفت نحوي وراقبني بصمت وقتًا طويلًا. قال ببطء: «لو لم تكن أنت هنا، لحلّت نهاية جيوڤاني.»

قلت: «لا تكن سخيفًا، ليست مأساة كبيرة.» وسكتُّ بُرهة ثم تابعتُ: «غيّوم مقرف. كلهم مقرفون. لكن ما حدث اليوم ليس أسوأ حدثٍ في حياتك. أليس كذلك؟»

ردَّ جيوفاني كما لو أنه لم يسمعني: «ربما عندما تحدث لك أشياء سيئة تجعلك ضعيفا، وقدرتك على المقاومة تقلّ بالتدريج.» ثم نظر إليّ: «لا. أسوأ شيء حدث منذ فترة طويلة وصارت حياتي تعيسة منذ ذلك اليوم. أنت لن تتركني، أليس كذلك؟»

ضحكتُ: «بالطبع لا!» وبدأت أنفض شظايا الزجاج المتكسر عن فراشنا إلى الارض.

«لا أدري ماذا سأفعل إذا تركتني.»، وشعرتُ بنوع من التهديد في نبرة صوته – أو قد أكون أنا من وضع تلك النّبرة في صوته.

وأكمل: «كنتُ وحيدًا وقتًا طويلًا، ولا أعتقد أني قادر على تحمّل هذه الحياة إذا ما عُدتُ وحيدًا مرّة أخرى.»

قلتُ له: «لست وحدك الآن،»، ثم أردفتُ بسرعة، لأني في تلك اللحظة كنت عاجزًا تمامًا عن تحمّل لمساته: «هل يمكننا الخروج للتنزّه؟ لنخرج من هذه الغرفة.» ابتسمتُ وأمسكت به، على طريقة لاعبي كرة القدم، من رقبته بخشونة. ثم التصقنا ببعضنا لحظة. دفعته بعيدًا وقلت: «سوف أبتاع لك شرابًا.»

سألني: «وهل ستعيدني إلى البيت؟»

«نعم، سأعيدك إلى البيت مجدّدًا.»

«أنا أحبّك، هل تعرف هذا؟»

«أعرف، يا عجوز.»

ذهبَ إلى المغسلة لغسل وجهه. رجّلَ شعره. كنتُ أراقبه.

ابتسم لي في المرآة، وبدا فجأة جميلا ومرحا ويافعا- في تلك اللحظة، شعرتُ لأول مرة في حياتي بأني واهنٌ جدا وعجوز.
صاح: «لكننا سنكون على ما يرام! أليس كذلك؟»
قلت: «بالطبع.»
استدار ليواجهني، كانت ملامحه جادة: «لكني كما تعلم- لا أعرف متى سأحصل على عمل آخر. ونحن تقريبا دون نقود. هل عندك نقود؟ هل حصلتَ على بعض المال من نيويورك اليوم؟»
قلتُ بهدوء: «لم أحصل على نقود من نيويورك اليوم، لكن عندي بعض النقود في جيبي.» وأخرجتُ كل ما معي من مال ووضعته على الطاولة: «تقريبًا أربعة آلاف فرنك.»
«وأنا» وبحث في جيوبه، مبعثرًا الفواتير والعملات المعدنيّة البسيطة على الأرض. هزَّ كتفيه وابتسم، تلك الابتسامة الحلوة المؤثّرة والواهنة.
«المعذرة. فقدتُ عقلي قليلا.» ونزل إلى الارض مستندًا على ركبتيه ويديه وجمع النقود التي بعثرها ووضعها على الطاولة بجانب نقودي. أفرضْنا ثلاثة آلاف فرانك قيمة الفواتير التي ينبغي تسديدها، وما تبقّى من نقود على الطاولة فكانت تقريبا تسعة آلاف فرنك.
قال جيوڤاني: «لسنا أغنياء، لكننا سنأكل غدا.»
لم أكن أريده أن يقلق. لا أحتمل ذلك المنظر في وجهه.
قلتُ له: «غدًا سأكتب لأبي مرّة أخرى، سأطلب منه بعض كرمه ولطفه وسأجعله يرسل لي المال.» وتقدّمتُ نحوه كما لو أني مُساق، وضعتُ يديّ على كتفيه وأجبرتُ نفسي على النظر في

عينيه. ابتسمتُ كما لو أن المسيح ويهوذا التقيا في تلك اللحظة.
قلتُ له مرة أخرى: «لا تخف، ولا تقلق.»
أحسستُ حين اقتربتُ منه بالحنوّ الشديد عليه والرغبة في حمايته، هذا القرار – مرّة أخرى! – لم يعُد في يدي التحكّم به. لا شيء في تلك اللحظة كان حقيقيًّا بالنسبة لي. لا أبي ولا هيلا كان لهما وجود حقيقيّ، ما هو حقيقيّ فعلًا هو إحساس اليأس الذي انتابني، ولن يكون أيّ شيئا حقيقيًا بالنسبة لي مرّة أخرى باستثناء الشّعور بالسّقوط ذاك.

بدأت ساعات هذه الليلة بالتناقص، مع كل ثانية تمرّ، يبدأ الدم في صميم قلبي بالغليان، وكل شيء أفعله سيكون عديم الأهمية، لأن العذاب سيستولي عليّ في هذا البيت، مثل السكّين الكبيرة الفضية التي سيواجهها جيوڤاني عمّا قريب. الجلّادون هنا معي، يذرعون البيت جيئةً وذهابًا معي. يغسلون الأشياء ويحزمون الحقائب ويشربون خمري. هم في كل مكان ألتفتُ إليه. في الجدران، والنوافذ، والمرايا، في الماء، وفي الليل – هم في كل مكان. ربما سأصرخ، مثل جيوڤاني الذي يصرخ الآن مستلقيًا في سجنه، ربما سأصرخ. لكن لن يسمع صرخاتنا أحد. ربما أحاول الشرح، كما حاول جيوڤاني الشرح. ربما سأطلب الصّفح، لو باستطاعتي تسمية جُرمي ومواجهته، من أيّ كان أو من أيّ شيء في أيّ مكان، ما دامت لديه قُدرة العفو أو الصفح عنّي.
ربما سيساعدني الشعور بالذنب على التحرّر من الذنب. لأن الوصول إلى البراءة هو نهاية الذنب. يجب أن أعترف: لقد أحببته

ولا أعتقد أني سأحبّ أحدًا مثلما أحببته. عندما ستسقط المقصلة، فإن جيوفاني سوف يشعر بالانعتاق والرّاحة العظيمة، وربما يشكّل انعتاقه أخيرًا بعض الغوث لي.
أذرعُ هذا البيت جيئةً ورواحًا، مفكّرًا في السّجن. قبل وقت طويل، قبل أن ألتقي جيوفاني، عرفتُ رجلًا، في حفلة، في بيت جاك، كان يحتفل لأنه قضى نصف حياته في السجن. وكتب كتابا عن سنوات سجنه يفضح فيه إدارة السجن، وقد نال الكتاب جائزة أدبيّة. لكن حياة ذاك الشخص كانت قد تبدّدت تمامًا. كان مولعا بالقول إنه عندما كان سجينا فإنه ببساطة لم يكن حيًّا، وأن عقوبة الإعدام هي الحكم الرحيم الوحيد الذي يمكن أن تُصدره المحكمة. أذكر أنه جعلني أفكر بمعنى السجن، وأنه في الحقيقة لم يغادر السجن. كان السجن هو الحقيقة الوحيدة التي عاشها، لذلك لم يكن قادرا على الحديث عن شيء آخر. كانت كل لحظاته، حتى لحظة إشعاله سيجارة أخرى، عابرة بالنسبة له، بينما تحدّق عيناه في الجدران العالية. لون وجهه، يوحي بالظلمة والرطوبة، لو أنّ أحدًا ما جرحه، فإنّ لحمه سيظهر مثل نبتة فطر. وصف لنا بحنين كبير تفاصيل النوافذ ذات القضبان الحديديّة، والأبواب ذات القضبان، وثقوب الأبواب، والحراس الذي يقفون في نهايات الممرات، تحت المصابيح الكهربائية. السجن الذي يتكوّن من ثلاثة طوابق، ولوّنَ الصّدأ كلّ شيء داخله. كل شيء مظلم وبارد، عدا تلك البقع من الضوء، حيث يقف الحرّاس. الهواء هناك محمّل بذاكرة القبضات التي تلتصق وتعاند الحديد، محمّل باحتمالات الطنين الرتيب والثقيل، ومحمّل باحتمالات الجنون. يُدمدم

الحرّاس بينما يتحركون عبر الممرات ويهدرون جيئة وذهابا على السلالم. يرتدون ثيابا سود ويحملون مسدسات، وهم خائفون دائما، ونادرا ما يتجرأون على التلطّف. وفي الطابق السّفلي، في مركز السجن، في قلب السجن الكبير البارد، هناك نشاط لا يهدأ: السجناء الذين يحوزون الثقة يُديرون الأمور، يدخلون ويخرجون من غرفة إدراة السجن، يتملّقون الحرّاس للحصول على امتياز حيازة السجائر والكحول وممارسة الجنس. الليل في السجن أكثر ظلمة من الليل في الخارج، والدمدمة في كل مكان، والكل يعرف – بطريقة ما – أن الموت سوف يدخل باحة السجن مبكّرا كل صباح. مبكرا جدا، قبل أن يدفع السجناء الموثوق بهم عُلَب الطعام الكبيرة عبر الممرات، ثلاثة رجال يرتدون الأسود سيأتون دون ضجّة عبر الممر، أحدهم يدير المفتاح في القفل. وسوف يضعون أيديهم على أحدٍ ما، ويستعجلونه السّيرَ عبر الممر، أوّلًا كي يقابل رجل الدين، وبعدها يدخل بابًا لا يُفتح إلّا له، وربما يسمحون له بلمحة أخيرة من الصّباح في الخارج قبل أن يتمّ طرحه على بطنه، على لوح خشبيّ، ونصلٌ كبير سيهوي على عنقه.

أفكّر في حجم السجن الذي يقبع فيه جيوڤاني. أفكر إذا ما كان أكبر من غرفته. أعرف أنه أبرد. أفكر هل هو وحده في زنزانته، أو مع اثنين أو ثلاثة آخرين؛ هل يلعب الورق، يدخن، يثرثر، يكتب رسالة – ولمن ستكون تلك الرسالة؟ – أو يذرع السجن جيئة وذهابا. أفكّر هل يدري أن الصباح الآتي سيكون الصباح الأخير في حياته. السّجين لا يدري عن موعد إعدامه؛ المحامي فقط هو من يعرف ذلك فيجعل عائلة السّجين وأصدقاءه على علمٍ به،

لكنه لا يُخبر السجين. هل يكترث جيوڤاني للأمر كله؟ سواء كان يعرف أم لا، هل يهمه الأمر أصلا؟ لكنه دون شك خائف. وسواء كان بمفرده أو مع آخرين، هو بالتأكيد وحيد. أحاولُ أن أراه، يدير ظهره إليّ، يقف مقابل نافذة سجنه. وربما من ذلك المكان يكون قادرًا على رؤية الجانب الآخر من السجن؛ وربما يكون قادرا على رؤية بقعة صغيرة من الشارع، من فوق الجدار العالي، لو رفع نفسه قليلا. هل قصَّ شعره، أم احتفظ به كما هو؟ عليّ أن أخمن أنهم قصوه. أفكر إذا ما كان حليق اللحية. وأفكّر في مليون تفصيل من تفاصيله الحميمة التي تنهمر في ذهني. أتساءل إذا كان يشعر بالحاجة للذهاب إلى الحمام، وهل استطاع الأكل اليوم، وهل يتعرّق، أم لا؟ أفكّر فيما إذا مارس الحب مع أحد في السجن. هناك ما هزّني، أشعُر أنّ هناك ما يهزني بعنف وقسوة، كأني شيء ميت في صحراء. كم أتمنى لو أن أحدًا ما يضمّ جيوڤاني بين ذراعيه هذه الليلة. وأتمنى أن يضمني أحد ما أيضًا، وسوف نمارس الحب طوال الليل، مثلما كنا نفعل أنا وجيوڤاني، طوال الليل.

في تلك الأيّام التي تلت طرد جيوڤاني من عمله، كنّا نتسكع؛ نتسكع بتؤدة كمتسلّقي جبال يتدلّون بحبل ضعيف إلى هاوية الموت. لم أكتب لأبي، أجّلتُ الكتابة يومًا بعد آخر، كنت أعرف ما الذي يتوجّب عليّ قوله، لكني لم أكن متأكدًا إذا كان سيرسل لي المال أم لا. يوما بعد آخر نقضي الوقت بالكسل في تلك الغرفة، بدأ جيوڤاني في العمل على تحسينها مرّة أخرى. كانت لديه فكرة غريبة وهي حَفْر رفّ للكتب في الحائط. وحفرَ الجدار إلى أن وصل

إلى الطّوب، ثم راح يكسّره. كان عملًا شاقًا، وجنونيًا، لكني لم أقوَ على إيقافه. كان يفعل ذلك كي يبرهن لي حبّه. أراد أن يستبقيني معه في تلك الغرفة. وربما حاول بقوته الذاتية، دفع الجدران وتجاوزها، دون أن يجعلها تسقط.

الآن، الآن بالطبع، أستطيع رؤية شيء جميل جدًّا في تلك الأيام التي كانت مجرّد عذاب متواصل. حينها شعرتُ أن جيوڤاني كان يسحبني معه إلى قاع البحر. فشل في الحصول على عمل. لكني كنت أعرف أنه لم يكن جادًّا في البحث. كان مرضوضًا جدا، إذا جاز التعبير، ويمكن أن تمزّقه نظرات الغرباء. ولم يكن يقدر أن يبتعد عني فترة طويلة. كنتُ الشّخص الوحيد على الكرة الأرضية الذي يهتم لأمره، الذي يفهم كلامه وصمته، يحتضنه دون أن يطعنه. شعرتُ أن عبء خَلَاصِه يقع على كاهلي ولم أُطق ذلك العبء. تسكّعت النقود بعيدا عنّا أيضًا وتبدّدت بسرعة. حاول جيوڤاني إبعاد القلق من صوته عندما كان يسألني كل صباح:

«هل ستذهب إلى مكتب الأميريكان إكسبرس اليوم؟»

كنت أجيبه: «بالطبع!»

«هل تظن أن نقودك ستكون في انتظارك اليوم؟»

«لا أعرف.»

«وماذا ستفعل بنقودك في نيويورك؟»

ومع ذلك، لم أفعل شيئا. ذهبتُ إلى جاك واستدنتُ منه عشرة آلاف فرنك مرّة أخرى. أخبرته أن جيوڤاني وأنا نمرّ بوقت عصيب وسينتهي ضِيقنا سريعًا.

قال جيوڤاني: «ذاك لُطفٌ منه، أحيانًا يكون رجلًا لطيفًا حقًا.»

كنا جالسين في رصيف مقهى بالقرب من مسرح أودن. نظرتُ إلى جيوڤاني وفكرت لحظة، كم سيكون رائعا لو أخذه جاك من بين يدي.

سألني: «بماذا تفكر؟»

لوهلة خفتُ وشعرتُ بالخزي. أجبته: «كنت أفكر، بالابتعاد عن باريس.»

سألني: «وأين يعجبك أن تذهب؟»

قلت بعنفٍ باغتَنَا معًا: «آه، لا أدري. أيّ مكان. لقد ضجرت من هذه المدينة، تعبتُ من الأرصفة الحجرية القديمة هذه وكل هؤلاء البشر المتعجرفين. كلّما وضعت يدك على شيء هنا، انكسر.»

قال جيوڤاني بحزن: «هذا صحيح.» كان يراقبني بتركيز شديد. أجبرتُ نفسي على النظر إليه والابتسام.

سألته: «هل تحب أن تبتعد عن هنا لفترة؟»

قال بينما كان يرفع يديه بسرعة، مُبقيًا راحتيه مفتوحتين كنوع من التخلّي الوهمي: «آه، أتمنى الذهاب حيث تذهب، أشعر بالضجر من باريس كما تشعر أنت، لا أحب باريس جدا.»

قلتُ، ولم أكن منتبهًا لما أقول: «ربما أمكننا الذهاب إلى الرّيف، أو إلى إسبانيا.»

قال برفق: «آه، أنت تحنّ إلى عشيقتك.»، كنتُ أشعر بالذنب والضيق وبثقل الألم والحب. تمنّيتُ أن أرفسه وأن أحضنه في آن.

قلت بكدر: «ليس هذا هو سبب الذهاب إلى إسبانيا، أريد فقط زيارة إسبانيا. هذه المدينة في غلاءٍ مُستمرّ، هذا كلّ ما في الأمر.»

قال بحماس: «حسنًا، لنذهب إلى إسبانيا، فربما ستذكّرني بإيطاليا.»

«هل تفضّل الذهاب إلى إيطاليا؟ هل تفضّل زيارة بلدك؟»
ابتسَم: «لا أعتقد أن لي وطنًا، لا أود الذهاب إلى إيطاليا، ربما للسبب نفسه الذي يجعلك لا تحبذ الرجوع إلى أمريكا.»
قلتُ بسرعة: «لكنّي سأعود إلى أمريكا.» نظر إليّ بينما أكملتُ: «أعني أني سأعود إلى هناك يوما ما.»
قال: «كل الأشياء السيئة سوف تحدث يومًا ما.»
«ولماذا سيئة؟»
ابتسَم: «لماذا! حين تعود إلى بيتك وتجد أن ذلك البيت لم يعد بيتك. عندها ستكون في مأزق. طالما أنت بعيد، ستمنّي نفسك بكلمات مثل: يوما ما سأعود إلى البيت،» ثم داعب إبهامي وابتسم: «أليس كذلك؟»
قلتُ: «منطق جميل، أنت تعني أن لي بيتًا أحلم به، طالما أني لا أذهب إليه؟»
ضحك: «أليس صحيحا؟ أنت لا تشعر بأهمية البيت حتى تغادره، وعندما تغادره لا يمكنك العودة إليه.»
قلتُ: «يبدو أن تلك كلمات أغنية سمعتها من قبل.»
قال: «آه، نعم، وبالتأكيد سوف تسمعها مجدّدا. إنها إحدى الأغاني التي سيردّدها دائما شخص ما في مكان ما.»
نهضنا سائرين. سألته: «وماذا سيحدث لو سددْتُ أذني كي لا أسمع الأغنية؟»
سكتَ بُرهة طويلة ثم قال: «حينها ستذكّرني بالرجل الذي سجن نفسه كي يتفادى الاصطدام بالسيارات!»
قلتُ بجديّة: «يبدو أن ذلك ينطبق عليك أكثر مني.»

سألني: «ماذا تقصد؟»

«أنا أتكلم عن تلك الغرفة، الغرفة القبيحة. لماذا دفنتَ نفسك هناك طويلا؟»

«دفنتُ نفسي؟ أعذرني، عزيزي الأمريكي، لكن باريس ليست نيويورك؛ لا توجد فيها أماكن كثيرة للأولاد مثلي. هل تعتقد أنه يجب عليّ العيش في مدينة فَرساي مثلًا؟»

قلتُ: «لابدّ من وجود غرَف أخرى».

«لا شحّة في الغرف. هذا العالم مليء بالغرف. غرف كبيرة، صغيرة، مربعة، مستديرة، غرف عالية، غرف سفلية، كل أنواع الغرف! ما هو نوع الغرفة التي ينبغي أن يعيش فيها جيوڤاني؟ وكم من الوقت سيستغرق العثور على مثل تلك الغرفة؟ ومنذ متى، وإلى متى...» توقّف ودق بسبابته على صدري: «هل كرهتَ الغرفة إلى هذه الدرجة؟ ومنذ متى؟ أمنذُ البارحة، وإلى الأبد؟ قل لي!»

ارتبكتُ من مواجهته: «لا أكرهها. ولم أقصد أن أجرح مشاعرك.»

انسدلتْ يداه بجانبه، واتّسعتْ عيناه. ضحك وقال: «تجرح مشاعري! هل أنا غريب كي تكلمني بهذه اللهجة الأمريكية المهذبة؟»

«كل الذي قصدته يا طفلي أني تمنيت مغادرة تلك الغرفة.»

«بإمكاننا المغادرة، غدًا! لنذهب إلى فندق. هل هذا ما تريد؟ فندق كريلون، ربما؟»

تنهّدتُ، دون إجابة، وتابعنا المشي مجدّدا. لكنه انفجر بعد لحظة: «أعرف، أعرف! تريد ترك باريس، تريد ترك الغرفة – آه! أنت شرير. شرير حقّا!»

قلتُ: «لقد أسأتَ فهمي، أسأت فهمي.»

ابتسم بتهكّم وقال لنفسه: «أتمنى ذلك.»

حين عدنا إلى الغرفة وبدأنا بوضع أجزاء الطّوب الذي كسره جيوڤاني من الجدار، في كيس، سألني: «هل وصلتك أخبار من فتاتك في الفترة الأخيرة؟»

قلت دون أن ألتفت إليه: «ليس مؤخّرًا، أتوقع عودتها إلى باريس في أيّ يوم.»

نهض، ووقف وسط الغرفة تحت المصباح الكهربائي، ونظر إلي. نهضتُ أيضًا، بنصف ابتسامة وشيء من خوف خفيض وغامض.

قال: «تعال قبّلني!»

كنتُ واعيًا جدًّا لكِسرة الطّوب التي كانت في يده، وفي يدي أيضًا هناك كسرة أخرى. فكّرتُ لحظة، أنه إذا لم أذهب اليه، فإننا سنستخدم الطّوب في رشق بعضنا حتى الموت. ومع ذلك لم أتمكن من الحركة الفورية. حدّقنا ببعضنا في فضاء ضيّق مليء بالخطر. كان جيوڤاني يهدر مثل لهب.

قال: «تعال!»

رميتُ الحجارة من يدي وذهبتُ إليه. وفي لحظة تالية سمعتُ سقوطه. في اللحظات التي تشبه هذه اللحظة كنّا ببساطة نعاني من الحبّ ونقترف جريمة هيّنة، ومديدة، وأزليّة.

الفصل الرّابع

وصلتني أخيرًا برقيّة هيلا التي كنت أنتظرها، تخبرني عن اليوم والساعة التي ستصل خلالهما إلى باريس. لم أخبر جيوفاني بالتفاصيل، لكني ذهبتُ إلى المحطة في اليوم الموعود والتقيتها. كنت آمل، حين أراها، أن يحدث لي شيء ما، شيء آنيّ وحاسم، شيء يجعلني أُدرك أين كنت وأين ينبغي أن أكون. لكن لم يحدث شيء من هذا. عرفتها حالًا، حتى قبل أن تراني هي، كانت ترتدي فستانا أخضر، شعرها أقصر قليلا، ووجهها مسمرٌّ، ولها الابتسامة الرائعة ذاتها. أحببتها كما لم أحب في حياتي، وما زلت أحبها. عندما رأتني، وقفتْ بساقين منفرجتين وتسمّرتْ دون حراك على رصيف المحطة، شبكتْ يديها أمامها بهيئة صبيانية، وتفحّصنا بعضنا وهلة.

قالت: «حسنا، ألا تُقبّل زوجتك»

سُررتُ لرؤيتها جدّا، فأخذتها بين ذراعيّ. بَدتْ ذراعاي حين ضممتها، مثل بيت يرحّب بقدومها. كان حجم هيلا ملائمًا جدا لحلقة ذراعيّ، هي دائما مناسبة لي، وحين طوّقتُها شعرتُ بالفراغ الذي استوطن ذراعيّ منذ رحيلها. ثم عانقتها بقوة في ظلّ القطار الطويل وبارتباك شديد بسبب الناس حولنا. كانت تحمل رائحة

الريح والبحر والفضاء، وشعرتُ بالاستسلام الشرعيّ لجسدها النابض بالحياة. ابتعدتْ عني قليلا، كانت عيناها مبللتين بالدموع. قالت: «دعني أنظر إليك،» وطوّقت عنقي، وأخذتْ تتفحص وجهي: «آه. تبدو رائعا. أنا سعيدة جدًّا لرؤيتك مجدّدا.» قبّلتها بخفّة على أنفها وشعرتُ أني اجتزتُ أوّل جولة في التفتيش. حملتُ حقائبها وسِرنا نحو باب المحطّة. سألتها: «هل كانت رحلتك موفقة؟ وكيف وجدتِ أشبيلية؟ هل أعجبتك مصارعة الثيران؟ هل قابلتِ أحدَ مصارعي الثيران؟ أخبريني كلّ شيء!»

ضحكت: «إخبارك كل شيء سيستغرق وقتًا طويلا. كانت رحلتي مُتعِبة، أكره القطارات، كنت أتمنى لو عدتُ بالطائرة، لكني تنقلتُ في طائرة إسبانيّة من قبل وأقسمتُ أنّي لن أكرّرها. كانت تختض، يا عزيزي، في الهواء، مثل سيارة فورد موديل تي، وربما كان أصلها بالفعل سيارة فورد موديل تي! كنت جالسة فيها أشرب البراندي وأصلّي كي تمسّ قدميّ الأرض ثانية.»

عبرنا أسيجة المحطة إلى الشوارع القريبة. تطلّعتْ هيلا بفرح إلى كل شيء: المقاهي، والناس المتحفظين، والازدحام في حركة المرور، والشرطي ذي القبعة الزرقاء وهراوته البيضاء اللامعة.

قالت: «أخيرا عدتُ إلى باريس!»، وأردفتْ بعد لحظة: «باريس دائمًا جميلة ولا يمكن مقارنتها بأيّ مدينة أخرى.» دلفنا إلى سيارة أجرة، وأدار السّائق السيّارة بطريقة متهوّرة كي ينتظم في حركة السّير في الشارع.

قالت: «أظن أنّك حتى لو جئت إلى باريس وفي قلبك فشل وحزن كبيرين، فربما ستجد هنا النجاح والفرح من جديد.»

قلتُ: «لنأمل ألّا نضع باريس في ذلك الاختبار!»
كانت ابتسامتها مشرقة وسوداوية في آن واحد، قالت: «لنأمل.»
وأخذَتْ وجهي بين يديها وقبّلتني. كان في عينيها سؤال كبير، وأدركتُ أنها تتحرّق لمعرفة الإجابة عليه في الحال. لكنّي عجزتُ عن الإجابة. حضنتها قريبًا مني وقبّلتها وأنا مغمض العينين. كل شيء بيننا عاد كما كان من قبل، وكل شيء بيننا كان مختلفا، في الوقت ذاته.
سوف لن أفكر في جيوڤاني، ولن أقلق عليه بعد الآن، قلتُ لنفسي؛ وعلى كل حال، أنا وهيلا هذه الليلة معًا، ولن أسمح لشيء أن يفرّقنا.
عرفتُ جيّدًا أن هذا غير ممكن، (فهو قد فرّق بيننا مسبقًا)، حاولتُ عدم التفكير فيه وهو جالس في تلك الغرفة وحده، تعتريه الحيرة والحزن لبُعدي عنه ساعات طويلة.
ذهبنا معا إلى غرفة هيلا في شارع تورنو، نتذوّق الفوندادور الّذي جلبَته هيلا معها من إسبانيا.
قلتُ: «طعمه حلو جدا، هل هذا شرابهم المحلّي في إسبانيا؟»
قالت ضاحكة: «لم أر إسبانيًّا يشربه! بل يشربون النبيذ عادة. انا كنت أشربُ كوكتيلَ الجِنّ الفوّار، لكني حسبتُ أن الفوندادور صحيّ أكثر، لذلك جلبته معي.»
واصلتُ عناقها وتقبيلها محاولا العثور على طريقي فيها مجدّدا. لكن قبلاتي كانت في الحقيقة محاولة لتعطيل لحظة ممارسة الحبّ معها، أو لحظة فشل ممارسة الحب معها. شعرتُ بارتباك مبهم بيننا، وهذا الارتباك كان من طرفها. تذكّرتْ هيلا أن رسائلي

لها كانت قليلة، وهذا لم يقلقها حتى وقت قريب من نهاية إقامتها في إسبانيا؛ وإلى أن اتّخذتْ قرارها بالموافقة على الزواج مني، صارتْ رسائلي القليلة تثير مخاوفها، فربما توصّلتُ أنا إلى قرار يعاكس قرارها. ربما شعرَتْ أنها أبقتني معلّقا فترة طويلة. كانت صريحة مثلما هي طبيعتها ونافدة الصّبر؛ تتألم من الأمور غير الواضحة بالنسبة لها، ومع ذلك، أجبرتْ نفسها على التأني وأمسكتْ زمام رغبتها القويّة بإحكام بين يديها في انتظار كلمة منّي أو إشارة ما. أردتُ إجبارها كي تتخلّى عن كبح رغبتها. كنتُ معقودَ اللسان، حتى أخذتها. تمنّيتُ أن أُطفئ صورة جيوڤاني في داخلي بهيلا. وحقيقة أن لمساته وحدها ما يُثير فيّ رغبة جامحة. لكن وعيي بما كنت أفعله جعلني مزودج الذهن. سألتني أخيرا مبتسمة: «هل غبتُ عنك فترة طويلة؟»

أجبتها: «لا أدري، لقد مضى وقت طويل.»

قالت فجأة، وانسلّتْ قليلا من حضني، وهي مستلقية على جنبها وتنظر إلى النافذة: «كان زمن التوحد مع النفس طويلًا جدًّا، شعرتُ بعدم جدوى حياتي، كنت مثل كرة صغيرة تقفز وتقفز هنا وهناك في كلّ مكان، وسألت نفسي تُرى أين سأستقر. شعرتُ أني أضعتُ قاربي في مكان ما.»

حدّقتْ بي وأكملتْ: «أنت تعرف القارب الذي أتحدّثُ عنه. لقد صوّروا عنه أفلامًا في أمريكا، لو أضعته فإنه مجرد قارب، ولو دخلته، فإنه سفينة.» كان وجهها جامدا أكثر من أيّ وقت آخر.

سألتها بتوتر: «ألم تحبي إسبانيا، مطلقًا؟»

أدخلَتْ يدًا واحدة في شعرها بنفاد صبر: «آه، بالطبع، أحببتُ

إسبانيا، إنّها بلد جميل جدا. لكني لم أعرف ماذا كنت أفعل هناك. وشعرتُ بالتعب والملل من التنقل في أماكن عديدة دون أسباب مقنعة.»

أشعلتُ سيجارة وابتسمتُ لها: «لكنّكِ ذهبتِ إلى إسبانيا كي تبتعدي عني، أتذكرين؟»

ابتسمتْ وضربتْ خدّي برفق: «لم أكن لطيفة معك، أليس كذلك؟»

وقفتُ ومشيتُ بعيدا عنها قليلا: «كنتِ صريحة جدا، فهل فكّرت جيدا، هيلا؟»

«قلتُ لك في رسالتي، ألا تتذكر؟»

بدا كل شيء في تلك اللحظة ساكناً ومكتملًا، حتى الضجيج الباهت في الشارع تلاشى. كنت أدير لها ظهري لكني شعرتُ بعينيها. شعرتُ أنها تنتظر – كلّ شيء بدا في حالة انتظار.

أجبتها: «لم أتأكّد من الرسالة. يمكنني قراءتها مرّات دون أن أخرج بقرار واضح نوعا ما، أنتِ غير مكترثة بعض الشيء، ولا يمكنني معرفة هل أنت سعيدة أو آسفة بشأن علاقتنا.»

«آه، لكننا دائما كنا غير مكترثين. خَشيتُ أن أحرجك– ألا تفهم هذا؟»

افترضتُ أنها تسحبني بعيدا عن اليأس، ولم يكن سبب ذلك أنها تريدني، بل بسبب أني موجود فعلا في حياتها. أحسستُ ذلك ولم أستطع قوله لها، وربما يكون صحيحا، لكنّها لا تعيه.

قالتْ بحذر وانتظرتْ ردّي: «ربما تغيّرتْ مشاعرك الآن، أرجوك كن صريحا معي. أنت تعلم جيدا أني لست البنت المتحرّرة التي أحاول أن أكونها. أريد رجلا يعود إلى البيت كل مساء. أريد الاضطجاع

مع رجل دون الخوف من إمكانيّة الحمل منه. بحق الجحيم، أريد أن أحبل، وأكون أمًّا. هذا إذا وجدتَني أصلح لذلك.» ثم صمتنا وهلة. بعدها سألتني بإصرار: «هل ذاك ما تريده أنت أيضًا؟»

قلتُ: «نعم، لطالما أردتُ ذلك.»

استدرتُ إليها بسرعة شديدة، كأن يدين قويّتين حطتْ على كتفي وأدارتاني. كانت الغرفة معتمة، وهيلا مستلقية على السرير تراقبني، فمها منفرج قليلا وعيناها مشعّتان. كنت واعيا جدّا لجسدها وجسدي. مشيتُ إليها ووضعتُ يدي على نهدها. أردتُ أن أتمدّد هناك وأغيبُ وأهدأ. شعرتُ بها في أعماقي، تُسرعُ بفتح بوابات مدينتها ذات الأسوار القويّة، وتدعو ملك الألق إلى الدخول.

كتبتُ: "أبي العزيز، لن أخفي عنك أيّ سرٍّ بعد الآن، عثرتُ على فتاة وأريد أن أتزوجها، لم أقصد إخفاء أسراري عنك، كنت أريد أن أعرف ما إذا كانت الفتاة ستوافق على الزواج بي أم لا. لكنها وافقت أخيرا على المغامرة، يا لها من كائن مسكين ذي روح رقيقة. نحن نخطط أن نتزوج هنا ونرجع إلى الديار على مهلنا. هي ليست فرنسية، ربما هذا الموضوع يسبب لك بعض القلق (أعرف أنك لا تكره الفرنسيين، لكنك لا تظن أن لهم فضائل وعادات مثلنا، وربما أضيفُ أنّه ليس لهم فضائلنا نفسها.)، على كل حال، هيلا – اسمها هيلا لنكولن، وهي من مينابوليس، وما يزال أهلها هناك. والدها محام في شركة، وهيلا تحبّ أن نقضي شهر العسل هنا، وأنا أحب كل شيء هي تحبه. والآن، هل سترسل لابنك الحبيب بعضًا من نقوده التي جمعها بنفسه؟ والآن. هذه هيلا – الصورة

تظلم جمالها- أتتْ إلى باريس قبل سنتين لدراسة الفن. وبعد ذلك اكتشفَتْ أنها ليست فنانة. حين عرفتها، كانت محبطة وتتأهب لرمي نفسها في نهر السين، وبقيّة قصّتنا مجرّد تاريخ كما يقولون. أعرف أنك ستحبّها يا أبي، وهي أيضًا ستحبك. لقد جعلَتني فعلًا رجلًا سعيدًا جدًّا."

هيلا وجيوڤاني التقيا صدفة، بعد وصولها بثلاثة أيام. وخلال تلك الأيام الثلاثة لم أره، ولم أذكر اسمه.

حدث ذلك حين كنت برفقة هيلا نتسكع في باريس طوال اليوم، وهيلا تناقش موضوعا لم أعرف أنه يثير اهتمامها من قبل، موضوع: النساء. ادّعتْ أنّ الحياة عسيرة على عليهن دومًا.

«لا أرى أيّ صعوبات تخصّ النساء. ما دمن، على الأقل، حظينَ في حياتهن برجل.»

قالت: «وهل ذاك هو كلّ شيء؟ ألم يخطُر لك أن شرط حصول المرأة على رجل هو نوع من الإهانة؟»

قلتُ لها: «آه، كُفّي رجاء، لم يسبق لي قط إهانة أيّ امرأة عرفتها.»

«حسنًا، أنا متأكدة أنك لم تفكر بتلك الطريقة مع إحداهن.»

«أنا متأكد أني لم أفعل، وأتمنى أنهن لم يذللْني أيضا. لماذا تسألين، هل تعتقدين أنّك تعرّضتِ لموقف مشابه؟»

قالت: «لا أعتقد بشيء،» وترنّمتْ بصوت خفيض بما يشبه لحنًا لموزارت، وأضافتْ: «لا أعتقد، أبدًا، لكن كم هو صعبٌ أن تكون تحت رحمة غريب فظّ بشعر كثّ قبل أن تكون نفسك.»

قلتُ: «لا أعتقد أني أُشبه الذين تتحدثين عنهم، ومنذ متى صرتُ

فظًّا أو غريبًا في نظرك؟ نعم قد أحتاج إلى الحلاقة، لكن هذا خطؤك، فأنا لم أقو على تشذيب نفسي وأنت بعيدة.»

ابتسمّت فقبّلتها.

قالتْ: «حسنا، قد لا تكون غريبا الآن. لكنك كنت غريبا قبل أن أعرفك، وأنا متأكدة أنك ستكون كذلك لاحقًا، مرّاتٍ كثيرة.»

قلتُ: «إذا وصلنا تلك المرحلة، فستكونين غريبة عني أيضا.»

نظرتْ إليّ بابتسامة سريعة ومضيئة: «هل سأكون؟» ثم أضافتْ: «لكن ما أعنيه بشأن وجودي كامرأة هو أننا قد نتزوج الآن ونبقى متزوجين خلال الخمسين عامًا القادمة، وربما سأبقى غريبة عنك في كل لحظة في تلك السّنين الخمسين، وقد تجهل أنت هذا.»

«لكن لو كنتُ أنا الغريب، فهل ستعرفين ذلك؟»

قالت: «بالنسبة للمرأة، أعتقد أن الرجل غريبٌ دائما. أن تكون تحت رحمة غريب هو شيء فظيع حقًّا.» سألتُها: «لكن الرجال تحت رحمة النساء أيضًا، هل فكّرتِ في هذا من قبل؟»

ردّتْ: «آه! ربما الرجال تحت رحمة النساء – أعتقد أن الرجال يحبون هذه الفكرة لأنها تدغدغ بُغضهم للنساء. لكن لماذا يكون رجلًا ما تحت رحمة امرأة ما، هو إذن امرؤ كفَّ عن أن يكون رجلًا. والسيدة في هذه الحالة، محاصرة جدًّا بنعومته.»

«هل تقصدين أني لا أستطيع أن أكون تحت رحمتك؟ لكنك تستطعين أن تكوني تحت رحمتي؟» ضحكتُ مداعبًا: «آه كم أحبُ أن أراك تحت رحمةٍ ما، أيًّا كانت، هيلا.»

قالتْ: «ربما تضحك، لكن هناك شيء فيما قلته، بدأتُ أدركه حينما كنت في إسبانيا، هو أني لست حرّة، ولا يمكن أن أكون حرّة

ما لم أكن مولعة – دون قيد – بشخصا ما.»

«بشخص ما؟ وليس بشيء ما!»

«لا أدري،» ثم سكتتْ، بُرهة. قالت أخيرا: «لكني بدأت أعتقد أن النساء يولعن بشيء افتراضي. ويتنازلن عنه سريعًا إذا واتهن الجسارة، من أجل رجل. بالطبع، هن لا يعترفن بهذا، ولا تقدر معظمهن على التحرّر ممّا لديهن. لكني أظن أن عدم تحرّرهن من الوهم يقتلهن، ربما أعني نفسي فقط،» أضافت بعد لحظة: «هو الشيء ذاته الذي كان سيقتلني.»

«ماذا تريدين، هيلا؟ ماذا عندك الآن ويُحدث مثل هذا الاختلاف؟»

ضحكتْ: «ليس الموضوع هو ما الذي عندي، أو ما الذي أريده. الموضوع هو أنّك قد حصلتَ عليّ. وبالتالي أستطيع أن أكون خادمتك المُحبّة والمطيعة.»

شعرتُ ببرودة، هززتُ رأسي من الحيرة والالتباس: «صدقًا، لا أعرف عمّا تتحدثين.»

قالتْ: «أنا أتحدث عن حياتي. لقد اخترتك كي تعتني بها وتُشبعها وتعذّبها وتكذب عليها وتحبّها، اخترتك كي تحتملها معي. من الآن فصاعدًا يمكنني الحصول على وقت رائع للشكوى لأني امرأة. لكني لن أكون خائفة لأني أنثى.»

نظرتْ إلى وجهي وضحكتْ: «أو، سأفعل أشياء أخرى،» وبكتْ: «لن أتوقف عن أن أكون ذكية. سأقرأ وأناقش وأفكر، وسوف أبذل جهدي كي لا أفكر بأفكارك، أنا متأكدة أنك سوف تسعد بهذا، لأن اختلافنا سيكون سببًا كي تكتشف أن لديّ عقلَ امرأة محدود. وإذا كان الرّب رحيمًا بنا، فستحبني أكثر وأكثر ونكون

زوجين سعيدين.» وضحكتْ مجددا وأكملتْ: «لا تصدع رأسك بالتفكير في هذا، حبيبي، اتركه لي.»، أصابني مزاحها بالعدوى وهززتُ رأسي مجددا ضاحكا معها: «أنت فاتنة، وأنا لا أفهمك على الإطلاق.»

ضحكتْ مرة ثانية: «لا بأس بهذا، لنأخذ الأفكار كما لو أنها بطٌّ يعوم في ماء.»

مررنا بجانب متجر لبيع الكتب وتوقّفتْ هيلا أمامه. سألتني: «هل يمكننا الدخول دقيقة؟ هناك كتاب أحب جدًّا أن أقتنيه» وأضافتْ بعد دخولنا المتجر: «كتاب سخيف!»

راقبتها بدهشة بينما هي تكلم المرأة التي تدير المتجر. تجوّلتُ دون اكتراث حتى وصلت إلى أبعد رفّ للكتب. هناك رجل يقلّب صفحات مجلة. حينما وقفتُ بجانبه، أغلق المجلة ووضعها في مكانها والتفت. تعرفنا إلى بعضنا حالًا. صاح جاك: «ها! هذا أنت! بدأنا نظنّ أنّك عدتَ إلى أمريكا!»

ضحكتُ: «أنا؟ ما زلت في باريس. انشغلت فقط.» ثم سألته بعدها بشكّ كبير: «من هُم أنتم، الذين ظننتم؟»

بابتسامة خادعة أجابني: «لماذا تركتَ حبيبك وحده في تلك الغرفة، دون طعام، وبلا نقود، وحتى دون سجائر. اتّصل بي بعد أن أقنعَ البوّاب أخيرًا بإجراء مكالمة هاتفية وإضافة ثمنها على الإيجار. الفتى المسكين بدا صوته مثل شخص وضع رأسه في فرن الغاز، هذا لو كان...» وضحك «... يملك فرنًا للغاز!»

حدّقنا في بعضنا فترة، وتعمّد جاك عدم قول شيء. سكتُّ ولم أعرف ما الذي توجّب عليّ قوله.

قال جاك أخيرًا: «لقد وضعتُ في سيارتي قليلا من المؤن وأسرعتُ إليه. ظنّ إننا يجب أن نحفر النهر بحثا عنك. لكني أكّدتُ له أنه لا يعرف الأمريكيّين مثلي، وإنك لم تُغرق نفسك. أنت اختفيتَ كي تفكّر فقط. وأرى أنني كنتُ على حق. لقد فكّرتَ كثيرًا، ويتوجب عليك الآن معرفة هل الآخرين يفكرون بك؟ وجنِّب نفسك عناء قراءة الماركيز دي ساد!»

سألته: «أين جيوڤاني الآن؟»

قال جاك: «كان برفقتي. لكني تذكّرتُ أخيرًا اسم النُّزُل الذي تقطن فيه هيلا، أخبرني جيوڤاني أنّك تتوقع قدومها بين لحظة وأخرى لذلك نصحته بضرورة مهاتفتك هناك. وقد خرج للقيام بما اقترحته عليه. ربما هو يتّصل بك الآن.»

عادت هيلا مع كتابها. قلتُ مُحرجاً: «تقابلتما من قبل، هيلا تتذكرين جاك.»

هي تتذكره، وتتذكر أنه لم يعجبها. ابتسمتْ بأدب ومدَّتْ له يدها: «كيف حالك؟»

قال جاك: «يسعدني لقاؤك، آنسة.»

جاك يعرفُ أنه لا يروق لهيلا، وهذا بالضبط هو سبب استمتاعه! وكي يعزّز انزعاجها منه، ولأنه في تلك اللحظة كان يكرهني بشدة، فقد انحنى أمام يدها الممدودة، بطريقة مخنّثة مفضوحة وعدوانية.

راقبته كما لو أني أراقب وصول كارثة وشيكة، على مبعدة عدة أميال. التفتَ بغنج لي وقال: «ديفيد كان يختبئ عنّا، وها أنت الآن هنا من جديد!» وهمهم.

اقتربت هيلا مني وأخذت يدي وقالت: «آه؟ تصرّفٌ شقيّ منه، ما كنت أسمح له لو علمت به.» وابتسمت: «لكنه لم يذكر لي شيئا عنكم.»
نظر جاك إليها: «دون شك، فحينما تكونان معا يخبرك بمواضيع شيّقة أكثر من سبب اختفائه عن أصدقاء قُدامى.»
شعرتُ بحاجة شديدة إلى الخروج من المكان قبل أن يعود جيوڤاني.
قلتُ لجاك محاولا الابتسام، علَّ ابتسامتي تستجدي رأفته بي: «لم نتناول العشاء بعد، ربما نلتقيك لاحقًا؟»
في تلك اللحظة، رنّ الجرس الصغير الذي يرافق دومًا فتحَ باب المتجر، مُعلنًا دخول زبون ما. صاح جاك: «آه، ها هو جيوڤاني!» وفعلًا، شعرت به خلفي، يقف صامتا محدّقا. شعرتُ بانكماش قبضة هيلا في يدي وتقلّصٍ غريزيّ في جسدها، ولم يفلح اتّزانها في إبعاد ذلك الانكماش من الظهور على وجهها.
صاح جيوڤاني بصوت مثخنٍ بالاستغاثة والحنق الشديد والدموع الحبيسة: «أين كنت؟ ظننتك ميتا! أو دهستك سيارة، أو سقطتَ في النهر، ماذا فعلتَ كلّ تلك الأيام؟»
كنت قادرًا بما يكفي على الابتسام. واندهشتُ من هدوئي، قلتُ له: «جيوڤاني، أريدك أن تتعرف على خطيبتي، آنسة هيلا. مسيو جيوڤاني.»
كانت نظراته قد تفحصتها قبل أن ينتهي من بركان أسئلته، وهو الآن يلمس يدها بأدب صامت ويحدّق بها بعينيه السوداوين الهادئتين، كأنما لم يرَ امرأة من قبل. قال بصوت بارد وفاقد

للحياة: «تشرّفنا يا آنسة،» ثم نظر سريعا إليّ، ومجدّدا إلى هيلا. وللحظة كنا نحن الأربعة نقف هناك كما لو أننا نتهيّأ لأخذ صورة جماعيّة.

قال جاك موجّها كلامه إلى هيلا: «حقًّا، الآن نحن كلّنا معًا، أعتقد أنّه يجب أن نشرب شيئا. كأسًا سريعة...» وكي يقطع أيّ محاولة مؤدّبة للرفض، أخذ يدها، وأضاف: «لا يلتقي الأصدقاء القدامى كلّ يوم،» وفرض علينا كلنا أن نتحرك، هو مع هيلا، نسبقهما أنا وجيوڤاني. رنّ جرس باب المكتبة بشراسة بينما كان جيوڤاني يفتحه. صفعَنا هواء المساء كلهب. وبدأنا في السّير بعيدًا عن النهر في اتّجاه الشارع الرئيسي.

قال جيوڤاني: «عندما أقرّرُ مغادرة سكني، أخبر البواب بذلك لأنها، على الأقل، سوف تعرف أين ترسل بريدي.»، أحرجني سريعًا وشعرتُ بالتعاسة والغضب. لاحظتُ أنّه حليق الذقن ويرتدي قميصًا نظيفًا أبيض مع ربطة عنق، هي دون شك ربطة عنق جاك.

قلتُ له: «لا أعتقد أن هناك شيئًا يدعوك للتذمّر.»

غادرني غضبي وتمنّيتُ البكاء مع نظرته التي رمقني بها. قال: «لستَ لطيفا، ولستَ أنيقا على الإطلاق.» وسكتَ بعدها تماما. سِرنا بسكون إلى الجادة الرئيسية. كنتُ أسمعُ خلفنا صوت جاك الهامس. وقفنا عند ناصية الشارع، ننتظر جاك وهيلا كي يلحقوا بنا. قالتْ هيلا حينما لحقت بي: «عزيزي، ابقَ أنت مع أصحابك وتناول شرابًا معهم، إذا أحببت ذلك، لكني لا أستطيع، فعلًا، لا أستطيع، لا أشعر أني على ما يرام إطلاقًا.» والتفتتْ نحو جيوڤاني

قائلة: «اعذرني أرجوك، عدتُ من إسبانيا منذ وقت قصير، وتقريبًا لم أسترح منذ أن غادرتُ القطار، نلتقي في وقت آخر. يجب أن أنال قسطًا من النوم هذه الليلة.» ابتسمتْ ومدّتْ يدها إليه، بدا كأنّه لم يرغب بها.

قلتُ لهما: «سوف أرافق هيلا إلى النُّزُل، وبعدها ألتحق بكما إذا أخبرتماني أين ستكونان.»

ضحك جيوڤاني بغتة وقال: «سنكون في المنطقة التي تعرفها. لن تجد صعوبة في العثور علينا.»

قال جاك لهيلا مُنحنيًا ليقبّل يدها التي كانت ما تزال حائرة وممدودة في الهواء: «آسف أنك لست على ما يرام. ربما نلتقي في وقت آخر.»، ثم اعتدل ونظر إليّ: «يجب أن تأتي مع هيلا لتناول العشاء في بيتي يوما ما – وعمل حركة بوجهه – لا داع لأن تخبّئ خطيبتك عنّا.»

قال جيوڤاني: «ما من داع أبدًا! فهي لطيفة جدا ونحن...» وابتسم لهيلا «... نحاول أن نكون لطفاء معها أيضًا.»

قلتُ: «حسنا، أراكما لاحقا»، وأخذتُ هيلا من ذراعها.

قال جيوڤاني: «إذا لم تجدني، فستكون نقمتي ودمعتي يستلقيان معًا في مكاني وقت عودتك، سأكون في البيت. أنت تذكر أين البيت؟ هو قريب من محطة زولا»

«أذكر، أراك لاحقا. إلى اللقاء.»، وبدأت في الابتعاد كما لو أني أبتعد عن مصيدة.

قال جيوڤاني: «إلى اللقاء.»

كنت أشعر بعيونهما على ظهرينا بينما نبتعد أنا وهيلا عنهما.

سكتتْ هيلا فترة طويلة، ربما خشيتْ من قول أيّ شيء، مثل خشيتي .

أفصحتْ بعد ذلك: «حقّا لا يمكن أن أطيق ذلك الرجل. جعلني أشعر بالقشعريرة.» وأضافتْ بعد لحظة: «لم أعلم أنك كنت تراه باستمرار بينما كنتُ في إسبانيا.»

قلتُ لها: «لم أفعل.» وكي أمنح نفسي لحظة للتفكير، وأنشغل بشيء ما في يدي، توقّفتُ وأشعلتُ سيجارة. شعرتُ بعينيها تلاحقني، لم تكن نظرة شك؛ كانت نظرة مضطربة فقط.

سألتني: «ومن هو جيوڤاني؟»، بينما بدأنا السّير مجددا. وضحكتْ ضحكة خفيفة: «للتو أدركُ أني لم اسألك حتى أين كنت تسكن في غيابي. هل كنت تقيم معه؟»

قلتُ: «تقاسمت معه غرفة متواضعة نائية في ضواحي باريس.»

قالت هيلا: «إذن لم يكن تصرّفًا لطيفًا منك أن تغادر دون إخباره.»

«حسنا، هو مجرد رفيق سكن. من أين لي معرفة أنه سيفكر بحفر النهر لمجرد أني قضيتُ ليلتين خارج الغرفة؟»

«قال جاك إنك تركته في الغرفة دون نقود أو سجائر، وحتى دون أن تخبره أنك ستكون معي.»

«هناك أشياء كثيرة لم أخبر جيوڤاني بها. لكنه لم يتذمر من ذلك من قبل، أظنّه مخمور. سأتكلم معه لاحقا.»

«هل ستعود إليهما هذه الليلة؟»

«حسنا، إذا لم ألتحق بهما هذه الليلة، فعلي الذهاب إلى الغرفة لاحقا. كنت أنوي الذهاب إلى هناك في كل الأحوال.» وأضفتُ

محاولا الابتسام: «يجب أن أحلق ذقني.»
تنهدتْ هيلا وقالت: «لم أقصد جعل أصدقائك يقلقون عليك بشكل جنوني، يجب أن تعود إليهما وتحتسي شرابا معهما. قلتَ لهما إنك سترجع.»
أجبتها: «حسنا، ربما أذهب وربما لا أذهب. لست متزوجا منهما.»
«في الحقيقة أنت ستتزوجني أنا، لكن ذاك لا يعني أن تُخلّ بكلمتك معهم. ولا يعني أيضًا – أضافتْ بعد وهلة وجيزة – أن أحب كل أصدقائك.»
قلتُ لها: «هيلا، أنا على علمٍ بكل ذلك.»
انعطفنا من الجادة الرئيسية في اتجاه النُّزُل.
قالت: «هو عاطفيّ جدا، أليس كذلك؟» بينما كنتُ أحدقُ بالرابية المعتمة لمبنى السينات، وقد توارى قليلا حين انعطفنا إلى الشارع المرتفع المجاور.
سألتها: «من هو؟»
أجابتْ: «جيوڤاني. بالتأكيد هو يحبك جدا.»
قلتُ: «هو إيطالي. والإيطاليون يحبون المسرح والاستعراض.»
قالت ضاحكة: «هذا الشخص، له خصوصية ما، حتى لو كان في إيطاليا! منذ متى وأنت تشاطره الغرفة؟»
«منذ شهرين.»
رميتُ عقب سيجارتي وتابعتُ: «نفدت نقودي بينما أنتِ بعيدة – كما تعلمين ما زلت أنتظر المال من أبي – وسكنتُ معه لأنه كان الخيار الأرخص لي. في ذلك الوقت كان هو يعمل ويسكن مع عشيقته أغلب الوقت.»

سألتني: «ها؟ وعنده عشيقة؟»
قلتُ: «كانت عنده عشيقة ووظيفة، وخسر الاثنين معًا على حين غرّة.»
ردّتْ: «الفتى المسكين، لا عجب، فهو يبدو ضائعا تمامًا.»
قلت باختصار بينما كنّا أمام باب النُّزُل: «سيكون على ما يرام،» ثم ضغطتُ على مفتاح الباب.
سألتني: «هل هو صديق مقرّب من جاك؟»
قلتُ: «ربما، ليس مقرّبا جدا للحد الذي يُرضي جاك.»
ضحكتْ وقالت: «دائما أشعر بريح باردة تسبب لي رعدة عندما أجد نفسي قرب شخص يكره النساء بشدة مثل جاك.»
قلتُ وقبّلتها على أرنبة أنفها: «حسنا، لهذا أبقيه بعيدا عنك، لا نريد ريحا باردة تمرّ قرب فتاتنا.».
في تلك اللحظة سمعنا قعقعة آتية من عمق النُّزُل وتسبّبتْ في فتح الباب الرئيسي من تلقاء ذاته، بعنف بسيط. نظرتْ هيلا باستخفاف إلى الظلام وقالت: «أتساءل دائما هل أستطيع اختراق الظلمة؟» ونظرتْ إليّ مجددا: «حسنا؟ هل تريد تناول كأس قبل الذّهاب إلى أصدقائك؟»
قلتُ لها: «بالطبع.» ثم سِرنا على رؤوس أصابعنا داخل النُّزُل، وأغلقنا الباب برفق خلفنا. أخيرًا وجدتْ أصابعي زر المصباح وانتشر فوقنا ضوء أصفر ضعيف. صرخ بنا صوتٌ غير مفهوم تمامًا، وصاحتْ هيلا ردًّا عليه باسمها التي حاولتْ لفظَهُ بلكنة فرنسية. تلاشى الضوء الأصفر بينما كنّا نصعد السلالم، وبدأنا نحبو مثل رضيعين. لم نستطع العثور على زر المصباح في

السلالم، لا أدري لماذا، لكننا شعرنا بالمرح لفشلنا في العثور على المفتاح، وتمسّكنا ببعضنا قاطعين المسافة زحفًا إلى غرفة هيلا في الطابق العلويّ.

سألتني لاحقًا: «أخبرني عن جيوڤاني،» بينما كنا مستلقين في الفراش، نراقب الليل الأسود يمازح ستائر الغرفة البيض الخشنة: «إنّه يثيرني بطريقة ما.»

«هذا تصريحٌ أخرق نوعا ما، خصوصًا في هذه اللحظة. ماذا تعنين بحق الجحيم أنّه يثيرك؟»

أجابتْ هيلا: «أعني مَن هو، وبماذا يفكّر. ومن أين أتى بوجهه ذاك.»

«وما مشكلة وجهه؟»

«لا شيء. هو جميل جدًّا في الحقيقة. لكن هناك شيء ما في ذلك الوجه كأنه قديم الطراز جدا.»

قلتُ لها: «اخلدي إلى النوم، ولا تثرثري.»

«كيف التقيت به؟»

«في حانة، مع آخرين.»

«هل كان جاك هناك؟»

«لا أذكر، نعم على ما أظن، أعتقد أنه التقى جيوڤاني في الليلة ذاتها التي التقيته فيها.»

«وما الذي دفعك للعيش معه؟»

«قلت لك، كنت مفلسا وهو كان يقطن تلك الغرفة–»

«لكن لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الوحيد.»

قلتُ: «أوه حسنا، لقد أعجبني.»

«ولم يعد يعجبك الآن؟»

«أنا مُعجب بجيوڤاني جدًّا. لم يكن في أحسن حالاته هذه الليلة، لكنه شخص لطيف جدا.» ضحكتُ؛ وستر الليل ضحكتي، متشجعا بانكشاف جسد هيلا العاري وجسدي، ومحميًّا بنبرة صوتي، وجدتُ راحة عظيمة في الإضافة: «أنا أحبه بطريقة ما، فعلا أحبه.»

«يبدو أنه يعرف طريقتك المرحة في التعبير عن مشاعرك.»

«أوه حسنا، هؤلاء الناس لديهم أسلوب مختلفا عنا في التعبير عن مشاعرهم. إنهم يفصحون أكثر منا عن عواطفهم. لا أستطيع فعل شيء إزاء ذلك، فعلا لا أستطيع.»

قالت: «نعم، لاحظت ذلك.»

«ما الذي لاحظتِه؟»

«الصّغار هنا لا يجدون حرجا من التعبير عن عواطفهم بعضهم لبعض. ستشعر بغرابة ذلك بادئ الأمر، ثم تعرف أنه نوع من اللطف.»

قلتُ: «فعلا إنه لطف.»

«حسنا، يجب علينا دعوة جيوڤاني إلى العشاء أو شيئا من هذا القبيل في الأيام التالية. لقد أسدى لك معروفا بطريقة ما.»

قلتُ: «هذه فكرة حسنة، لا أعرف ما الذي يفعله في النهارات لكني أتخيل أنه حُرّ في المساءات.»

«هل يتسكّع مع جاك كثيرا؟»

«لا، لا أظن. ربما هو هرع إلى جاك هذه الليلة فقط.»، وسكتُّ وهلة، ثم أردفتُ بحذر: «بدأتُ أعرف صعوبة الظروف بالنسبة

للأولاد الصّغار مثل جيوڤاني. كما تعلمين، هذه ليست مدينة الفرص، ولا توجد احتياطات كافية لحمايتهم. جيوڤاني فقير، أعني هو من بيئة فقيرة وهو دون تعليم أو شهادة عليا ولا يمكنه أن يفعل كثيرًا. وهناك منافسة حامية حول اليسير الذي يمكنه القيام به. والمال القليل الذي يجنيه هو أو بقية الأولاد في مثل ظروفه، ليس كافيا للسماح لهم بالتفكير الجدي ببناء أيّ مستقبل لهم. ولهذا يتسكع كثيرون منهم في الشوارع ويتحولون إلى بائعي متعة لكلا الجنسين، أو يكوّنون عصابات، أو الله وحده يعلم ماذا أيضًا.»

قالت: «إنه صقيع العالم القديم.»

قلتُ: «حسنا، إن العالم الحديث بارد أيضًا.»

ضحكتْ: «لكن نحن لدينا حبّنا كي يبقينا دافئين.»

«لسنا الوحيدَين الّذين يفكران كذلك بينما هما في الفراش مع بعض.»، مع ذلك بقينا مستلقيين في السكون نحتضن بعضنا.

«هيلا،» قلتُ أخيرا.

«نعم؟»

«هيلا، عندما تصل النقود، دعينا نغادر باريس.»

«نغادر باريس؟ أين تريد أن نذهب؟»

«لا يهم، نغادر فقط. لقد سأمتُ باريس. أريد تركها فترة. دعينا نذهب إلى الجنوب حيث الشمس.»

«هل نتزوج في الجنوب؟»

«هيلا، صدقيني، لا أقدر على اتخاذ قرار أو فعل شيء الآن. لا أقدر حتى على الرؤية بوضوح ما لم أغادر هذه المدينة، لا أريد أن

نتزوج هنا؛ لا أريد حتى التفكير بالزواج هنا. دعينا نغادر فقط.»
قالت: «لم أكن أعلم أنك تشعر بهذا من قبل.»
«عشتُ في غرفة جيوفاني أيامًا كثيرة، لا أستطيع احتمال المزيد. يجب أن أغادر من فضلك.»
ضحكتْ باضطراب وابتعدتْ عني: «حسنا، فعلا لا أفهم، لماذا مغادرة غرفة جيوفاني تعني مغادرة باريس؟»
تنهّدتُ: «رجاءً، هيلا، لا أشعر بالقدرة على الشرح المطول الآن. ربما إذا بقيتُ في باريس فإنني سأهرع إلى جيوفاني و–» سكتُّ.
«ولماذا يزعجك هذا؟»
«حسنا، ليس في مقدروي فعل شيء لمساعدته، ولا أقدر على تحمّل نظراته المستجدية، هيلا، هو يعتقد أني أمريكيّ غني.»
نهضتُ ورحتُ أنظر إلى الخارج. راقبتني.
قلتُ لها: «هو رجل لطيف جدا، كما قلتُ لك، لكنه لجوج جدا، وهو يعتقد أني إله. وتلك الغرفة عطنة جدا وقذرة، وقريبا سيأتي الشتاء وستكون باردة جدا»، عُدتُ إليها وأخذتها بين ذراعيَّ: «اسمعي. دعينا نغادر فقط. سأفسّر لك أمورًا كثيرة بعد حين، حينما نكون خارج باريس.»
ساد صمتٌ طويل.
قالت بعدها: «وهل تريد أن نغادر حالا؟»
«نعم، حالما تصل تلك النقود، دعينا نستأجر بيتا.»
سألتني: «أنت متأكد أنك لا تريد العودة إلى الولايات المتّحدة؟»
ابتسمتُ: «لا. ليس الآن. ليس هذا ما أعنيه.»
قبّلتني وقالت: «لا أكترث أين نذهب ما دمنا معا.» ثم دفعتني

قليلًا: «حلّ الصباح تقريبًا، من الأفضل أن نخلد إلى النوم.»

ذهبتُ إلى غرفة جيوڤاني في وقت متأخر من المساء التالي. تمشيتُ مع هيلا على ضفة النهر، وشربتُ كثيرًا من الكحول في حانات عِدّة. تحطّم المصباح الذي يُنير الممر الخلفي المؤدي إلى الغرفة بينما كنت أمشي في اتجاهها، كان جيوڤاني جالسا في فراشه يصيح بصوت خائف: «مَن هناك؟ مَن هناك؟»

توقفتُ في مدخل الغرفة، وقلتُ له: «هذا أنا، جيوڤاني. اصمُتْ.»

حدّقَ بي جيوڤاني واستدار إلى جانبه، نحو الحائط، وشرع في البكاء.

ظننتُ أنه المسيح المخلص! وبحذر أغلقتُ باب الغرفة. أخرجتُ سجائري من جيب سترتي وعلقتها فوق الكرسي. ومع السجائر في يدي دخلت إلى الفراش وانحنيتُ فوق جيوڤاني وقلتُ له: «طفلي، توقف عن البكاء. رجاء توقف عن البكاء.»

استدار جيوڤاني ونظر إليّ. كانت عيناه حمراوتان ومبلّلتان، لكنه ابتسم ابتسامة غريبة هي مزيج من القسوة والخزي والسرور. فتح ذراعيه يستقبلني فانحنيت فوقه، مُزيحا شعره عن عينيه.

قال: «اشمّ فيك رائحة الكحول.»

«لم أشرب الكحول. هل هذا ما يخيفك؟ هذا هو سبب بكائك؟»

«لا.»

«ما المشكلة؟»

«لماذا تركتني؟»

لم أعرف كيف أرد عليه. استدار جيوڤاني نحو الحائط مرّة

أخرى. كنتُ أفترض وأتمنى أني لن أشعر بأيّ شيء نحوه، لكني شعرتُ بالضيق في نقطة ما في أعماق قلبي، كما لو أن أصبعًا ما نغزني هناك.

قال جيوڤاني: «لم أعرف كيف أصل اليك، ولا أعتقد أنك كذبت عليّ، لكنك لم تخبرني الحقيقة كلها، لماذا؟ عندما كنتَ هنا، كنت طوال اليوم تقرأ، أو تفتح النافذة، أو تطهو الطعام. كنتُ أراقبك. لكنك كنت صامتا طوال الوقت، ولم تفصح عن شيء، كنت تنظر إليّ بعينيك لكنك لا تراني. بينما أنا أعمل كي نقدر على العيش في هذه الغرفة.»

لم أقلْ شيئا. نظرتُ خلف رأس جيوڤاني، إلى النافذة المربعة التي تعكس ضوء القمر الذاوي.

تابع جيوڤاني: «ماذا كنت تفعل طوال الوقت؟ ولماذا لم تخبرني بكل شيء؟ أنت شرير، وأحيانا، حينما تبتسم لي، أكرهك. أتمنى ضربك. أردتُ جعلك تنزف. أنت تبتسم الابتسامة ذاتها مع كل الناس، وأخبرتني ما أخبرتَ به كل الناس، وكلها أكاذيب. ماذا كنت تخفي طوال الوقت؟ وهل ظننتني صدّقتك عندما مارست الحب معي، حينما قلت إنّك لم تكن تمارس الحب مع أحد؟ لا أحد! أو كلّ أحد؟ بالتأكيد أنا لا أعني لك شيئًا، لا شيء إطلاقًا، لقد سبّبتَ لي الحمى والمرض بدل السعادة.»

تحركتُ، أبحث عن السجائر التي كانت في يدي. أشعلتُ واحدة. فكرتُ: يجب أن أقول شيئا. أقول أيّ شيء ثم أغادر هذه الغرفة إلى الأبد.

كانت مشاعر جيوڤاني تتدفق: «كما تعرف، لا يمكنني العيش

وحيدا. أخبرتك. ما هي المشكلة؟ هل يمكننا أن نعيش حياتنا معا؟»
وبكى مجددا. راقبتُ دموعه الحارة وهي تنزل من زوايتي عينيه إلى الوسادة القذرة.

«إذا لم تبادلني الحب، سأموت، قبل أن تأتي كنت أريد الموت، قلت لك مرات عديدة. قسْوتك جعلتني أعيشُ فقط كي يكون موتي في النهاية رهيبا أكثر.»

كنتُ أريدُ قول أشياءً كثيرة، وعندما فتحتُ فمي، عجزتُ عن إصدار أيّ صوت. في تلك اللحظة، كانت مشاعري مبهمة تجاه جيوڤاني. لم أعرف ما كنت أشعر به تجاهه، شعرتُ بالرعب والشفقة والشهوة المتصاعدة الخانقة.

أخذَ السيجارة من بين شفتيّ وسحبَ نفسًا منها، ثم أصلح من جلسته على الفراش، وتدلّى شعره على عينيه مرّة أخرى.

«لم أعرف أحدا مثلك من قبل. ولم أكن هكذا قبل أن أعرفك. في إيطاليا، كان لدي امرأة وكانت تُحسن معاملتي. أحبّتني، أحبّتني كثيرا، واعتنت بي، كانت تنتظرني في البيت حتى أعود من العمل في حقول العنب، وما من مشكلة بيننا أبدًا. كنتُ صغيرًا وأجهل الأشياء التي تعلّمتُها لاحقًا، ولا الأشياء الرّهيبة التي علّمتَني أنت إيّاها. ظننتُ أن كل النساء يشبهن امرأتي وكل الرجال مثلي، ظننتُ أني مثل بقيّة الرجال. لم أكن تعيسا حينها ولا وحيدا – لأنها كانت موجودة في حياتي، ولم تكن لدي الرغبة في الموت. أردتُ البقاء إلى الأبد في قريتنا والعمل في حقول الكرم واحتساء النبيذ الذي نصنعه بأيدينا وممارسة الحب مع فتاتي. هل أخبرتك عن قريتي؟ هي قرية قديمة تقع على تلّ في جنوب إيطاليا. حينما كنا نمشي

ليلا، بمحاذاة جدران البيت في الخارج، كان العالم كلّه يتبدّا أمامنا أسفل التل، العالم المترامي الأطراف، العالم القذر. لم أتمنَ معرفته أبدًا. مارسنا الحب مرة تحت تلك الجدران.»

«أجل، أردتُ البقاء هناك إلى الأبد وتناول السّباغيتي وشرب النبيذ وإنجاب عديد من الأطفال، وأن أصبح بدينًا في سنواتي اللاحقة. حتما لو بقيتُ هناك، ولو لم تعرفني وتحبني هنا في باريس، لأمكنني تخيّلك بعد سنوات من الآن، تزور قريتنا بسيارتك الأمريكية القبيحة التي ستكون قد اشتريتَها، تنظر إليّ وإلى بقية سكان القرية وتتذوق نبيذنا وتتبرز علينا بابتساماتك الفارغة التي لا تفارقك طوال الوقت مثل بقية الأمريكيّين، وتترُك سيارتك خلفها ضجيجًا عظيمًا بصوت محركها المزعج، وسوف تخبر كل الأمريكيّين الذين تقابلهم أنه يجب عليهم زيارة قريتنا لأنها ذات طبيعة رائعة. وسوف لن تكون لديك أيّ فكرة عن حياة القرية هناك، عن تقطير وتعبئة النبيذ، والأشياء الجميلة والقبيحة التي تحدث كل يوم، مثلما لا فكرة لديك عن حياتي الآن. لو كنتُ قد بقيتُ هناك لكنتُ سعيدًا أكثر ولن تهمني ابتساماتك. كنتُ سأمتلك حياتي. لكني هنا، أستلقي لياليَ عديدة في انتظارك كي تعود إلى هذه الغرفة، وأفكر بقريتي وكم تبدو بعيدة، وأفكّر بالرعب الذي أشعر به في هذه المدينة الباردة، بين أناسٍ أكرههم، هذه المدينة الباردة والرّطبة والتي لا تعرف الدفء مِثل قريتي، هذه المدينة التي لا يجد فيها جيوڤاني من يحادثه ولا يجد فيها الرفيق، ووجد فيها حبيبًا لا هو رجل ولا هو امرأة. أنت لا تعرف، أليس كذلك؟ لا تعرف ماذا يعني أن تصحو ليلا وتنتظر شخصًا ما كي يعود إليك؟ أنا واثق أنك لا

تعرف. أنت لا تعرف الأشياء الرهيبة، وهذا هو سبب ابتساماتك ورقصاتك بتلك الطريقة، وظنّك أن المسرحية الكوميدية التي تؤديها مع الفنانة ذات الشعر القصير والوجه القمريّ هي الحب.»

أسقطَ السيجارة إلى الأرض، حيث احترقَتْ على مهل. وبكى مجدّدا. عاينتُ الغرفة، وأنا أفكر: لا أقدر على احتمالها.

تابع جيوڤاني: «غادرتُ قريتي في يوم لطيف وموحش في الوقت نفسه، لن أنساه أبدًا. كان ذلك اليوم هو اليوم الذي متُّ فيه – تمنّيت أن أموت فيه. أذكر أن الشمس كانت حامية وتخزّني في رقبتي، بينما أبتعد عن قريتي قاطعًا طريقًا وعرة تصعد إلى الأعلى ما دفعني للسّير محنيّ الظهر. وأتذكّر كل شيء: التراب البني في قدميّ، والحصى الصغيرة التي دستُ عليها، والأشجار القصيرة بمحاذاة الطريق، وكل البيوت المسطحة وألوانها التي تبرق تحت أشعة الشمس. أتذكّر بكائي، لكن ليس كبكائي هنا، دموعي الآن أسوا وأكثر حُرقة، منذ أن التقيتك وأنا أبكي، لكن ليس كما بكيتُ من قبل. أثناء صعودي الطريق بعيدًا عن قريتي، تمنّيتُ الموت، وتلك كانت أوّل مرة تمنّيتُ الموت فيها. كنتُ للتوّ قد دفنتُ طفلي في المقبرة خلف كنيسة القرية، حيث يرقد أبي وأبوه، وتركتُ فتاتي تصرخُ في بيت أمي. نعم، لقد كان لي إبن لكنّه وُلد ميتًا. كان لونه رماديًّا حينما رأيته أوّل مرة، وكان متكوّرًا ولم يصدر منه أيّ صوت، صفعناه على كفله، ورششناه بالماء المقدس وتضرعنا من أجله لكن لم تظهر عليه علامات الحياة. كان ميتا. كان ولدا صغيرا، كان يمكن أن يكون رجلا قويا ورائعا، وربما قد يكون هذا النوع من الرجال الذي تبحثون عنه، أنت وجاك وغيّوم وكل عصابتكم

المقرفة، طوال النهار والليل، وتحلمون به، لكنه كان ميتا، كان طفلي الذي خلقناه معا، أنا وفتاتي، لكنّه وُلد ميتًا. حين علمتُ أنه ميت، انتزعتُ صليبنا المعلّق عن الحائط وبصقت عليه ورميته على الأرض، ثم خرجتُ بينما كانت أمي وفتاتي تصرخان. دفنّاه في اليوم التالي، وبعدها غادرتُ قريتي وجئتُ إلى هذه المدينة، حيث عاقبني الله جرّاء ذنوبي الكثيرة وبَصقي على صليب ابنه المقدّس. بالتأكيد هذه المدينة هي المكان الذي سأموت فيه، ولا أظن أنه سيكون في مقدروي رؤية قريتي مرّة أخرى.»

نهضتُ واقفًا، كان رأسي يدور. مِلحٌ في فمي. كأن الغرفة تهتز بنا، مثلما أحسستُ أوّل مرة أتيتُ بها إلى هنا، في حيوات سابقة كثيرة. كنت أسمعُ أنين جيوڤاني خلفي.

قال: «حبيبي، لا تتركني، أرجوك لا تتركني.»

التفتُّ إليه واحتضنته بين ذراعيّ، وأنا أحدّق فوق رأسه إلى الجدار، إلى الرجل والمرأة الّذَين يمشيان معا بين الورود. كان جيوڤاني ينتحب، كما لو أن قلبه كُسر وتشظّى إلى قطع صغيرة كما يقال. لكني شعرتُ أن قلبي هو الذي كُسِرَ وتشظّى. كان شيئا ما قد كُسِرَ فعلا في داخلي، ما جعلني قاسيًا جدًّا وهادئًا تمامًا، ونائيًا.

ما يزال عليّ أن أتكلم. قلتُ: «جيوڤاني، جيوڤاني،»، وبدأ هو يهدأ، كان يستمع إليّ على مضض، شعرتُ مرارًا بدهائه عندما يَيْأس، لم تكن هي المرّة الأولى.

قلتُ له: «جيوڤاني، كنتَ تعرف أني سأتركك يوما ما. وكنتَ على علم أن خطيبتي ستعود إلى باريس.»

قال: «أنت لا تتركني لأجلها، أنت تتركني لسبب آخر. أنت تكذب

كثيرا وأتيتَ هنا كي تصدق كل أكاذيبك. لكني أعرف، أنت لا تتركني من أجل امرأة. وإذا كنت حقا تحب تلك الفتاة الصغيرة، فلن يتوجب عليك أن تكون قاسيا جدا معي.»

«هي ليست فتاة صغيرة، هي امرأة، ومهما كان الذي تعتقده، فإنني فعلًا أحبّها.»

اعتدل جيوڤاني في فراشه وصاح: «أنت لا تحبّ أحدًا! ولم يسبق لك أن أحببتَ أحدا، وأنا متأكد أنك لن تحب، أنت تحب نقاءك، تحب نفسك، أنت تشبه عذراء صغيرة ترتدي حزام العفة وتتجول كما لو أنك تملك معدنا نادرا وثمينًا، ذهبًا أو فضة أو أحجارًا ثمينة بين ساقيك! سوف لن تعطيه لأيّ كان، ولن تسمح لأحد بلمسه، امرأة كانت أو رجل. تريد أن تكون نظيفا. تظن أنك أتيت إلى هنا مغطّى برغوة صابون وستذهب مغطى برغوة صابون، ولا تريد أن تكون مُنتنًا، ولا حتى مُدّة خمس دقائق.»، قبضَ عليّ من ياقتي، دعكها حالا، رشّها بلعابه ودموع عينيه، ثم مسحها بعضلات وجهه وذراعيه، وقال بحُرقة: «تريد هجر جيوڤاني لأنه يجعل رائحتك نتنة، تريد إذلال جيوڤاني لأنه لا يخشى نتانة الحب. تريد قتله باسم كل فضائلك الكاذبة. وأنت عديم الأخلاق. بل أنت أكثر شخص عديم أخلاق قابلته في حياتي. انظر ماذا فعلتَ بي. هل تظن أنه بإمكانك أذيتي هكذا، لو لم أكن أحبك؟ هل هكذا نكافئ من نحب ومن يحبنا؟»

أخيرا خرج صوتي: «جيوڤاني، توقف! لأجل الرب، توقف! ماذا تريدني أن أفعل لك في هذا العالم؟ لا أستطيع مساعدتك بالطريقة مفسها التي أشعر بها نحوك.»

«وهل تعرف ماهو شعورك؟ هل تشعر بشيء؟ وماذا تشعر؟»
قلتُ: «لا أشعر بشيء الآن، أريد الخروج من هذه الغرفة، أريد الابتعاد عنك، أريد نهايةً لهذا المشهد الرهيب.»
كان يضحك ويراقبني؛ كانت المرارة في عينيه دون قعر ولا حدّ: «تريد أن تبتعد عني. أخيرًا قرّرْتَ أن تكون صادقًا. وهل تعرف لماذا تريد الابتعاد عنّي؟»
ثمّة شيء ما في أعماقي موصَد تمامًا. قلتُ له: «أنا – أنا لا أستطيع بناء حياة مشتركة معك.»
«لكنك تستطيع بناء تلك الحياة مع هيلا. مع تلك الفتاة الصغيرة ذات الوجه الدائري التي تظن أن الأطفال يأتون من نبات الملفوف. لستَ خبيرًا بكلّ خرافات وطنك. تستطيع أن تبني حياتك معها.»
قلتُ بضجر: «نعم، بمقدروي بناء حياة معها.»
كنت أرتجفُ فأردفت: «أيّ حياة يمكن أن تكون لنا في هذه الغرفة؟ هذه الغرفة الصغيرة القذرة. وعلى كل حال، كيف يمكن لرجلين تكوين حياة مشتركة؟ كل هذا الحبّ الذي تتحدّث عنه، تريده أن يستمر كي يُشعرك بالقوّة؟ تريد أن تذهب وتعمل بجدّ وتعود إلى البيت بالمال، وتريدني أن أبقى هنا، أغسل الصحون وأطهو الطعام، وأنظّف هذه الغرفة البائسة وأنتظرك على الباب وأقبّلك حين تعود، وأضطجع طوال الليل معك. تريدني أن أكون فتاتك الصغيرة. هل هذا ما تقصده حين تقول إنك تحبني؟ أنت تتهمني أني أريد قتلك حينما أتركك. كيف تصف ما فعلته أنت لي؟»
«أنا لا أحاول جعلك فتاتي الصغيرة. لو أردتُ فتاة، فسأكون مع فتاة.»

«ولماذا لا تفعل؟ لأنك خائف فقط؟ أنت تريدني لأنك لا تملك الشجاعة الكافية للحصول على امرأة، وهي ما تحتاجه حقًّا.»

بات جيوفاني شاحب الوجه: «أنت الوحيد الذي يستمرّ في الحديث عمّا أريده أنا. لكني قلتُ لك ما الذي أريده.»

صرختُ به: «لكنّي رجل، رجل! ماذا يمكن أن يحدث بيننا؟»

قال جيوفاني: «أنت تعرف جيّدًا ما الذي حدث بيننا. ولهذا السبب تريد أن تتركني.»، ثم نهض وسار إلى النافذة وفتحها: «حسنًا» قال، وضرب بقبضته إطار النافذة: «لو كنتُ قادرا على جعلك تبقى لفعلتُ» وصرخ: «لو كان بمقدروي ضربك، ربطك، تجويعك – لجعلك تبقى، لفعلتُ.»

ثمّ استدار إلى الغرفة؛ عبثت الريح بشعره. هزّ أصبعه الأوسط في وجهي بطريقة بذيئة ومنفرة وقال: «يوما ما، ربما، ستتمنى أن أفعل.»

قلتُ له: «الجو بارد، أغلق النافذة.»

ابتسم: «الآن، أنت تريد المغادرة وتريد إغلاق النافذة. بالتأكيد.»

فأغلق النافذة ووقفنا نحدّق في بعضنا في وسط الغرفة. قال لي: «سوف لن نتشاجر بعد الآن، الشّجار لن يجعلك تبقى معي. الفرنسيون يستعملون مفردة في هذه الحالة: الانفصال. ليس طلاقًا، لا، بل انفصالًا فقط. حسًنا. سوف ننفصل. لكن أعرف أنك تنتمي إليّ. أؤمن بهذا وأؤمن أنّك ستعود.»

قلتُ له: «جيوفاني، لن أعود، وأنت تعرف أني لن أعود أبدًا.»

لوّح بيده وقال: «قلتُ إنني لن أتشاجر معك بعد الآن. لا شعور بالذنب عند الأمريكيّين، وهم أبدًا لا يندمون. ولا يعترفون بالموت

حتى لو شاهدوه.» وأخرج زجاجة من تحت المغسلة: «ترك جاك قنّينة كونياك هنا. دعنا نتناول كأسًا صغيرة "فوق البيعة" كما يقول الناس أحيانا.»

راقبته. بحذر صبَّ كأسين. لاحظتُ ارتجافه حنقًا وألمًا.

ناولَني كأسي. قال: «لصحّتك.»

«لصحّتك.»

شربنا. لم أستطع منع نفسي من سؤاله: «جيوڤاني، ماذا ستفعل الآن؟»

«آه، عندي أصدقاء، سأفكر في أشياء أفعلها. هذه الليلة مثلا سأتناول العشاء مع جاك. ليل الغد دون شك، سأتناول العشاء مع جاك أيضا. جاك أصبح حنونًا معي جدًّا. وهو يظنّ أنّك وحش.»

قلتُ بيأس: «جيوڤاني، كن حذرًا. رجاءً كن حذرًا.»

رد عليّ بابتسامة سخرية: «شكرا لك، كان عليك أن تنصحني هكذا في الليلة التي التقينا فيها.»

تلك هي المرّة الأخيرة التي تبادلنا فيها الحديث. بقيتُ معه حتى الصّباح، وبعدها رميتُ أشيائي في حقيبة وأخذتها معي إلى حيث تقيم هيلا.

سوف لن أنسى ما حييت نظرته الأخيرة لي. ملأ ضوء الصباح الغرفة، وذكرني بالصباحات الكثيرة والصباح الأول الذي استيقظتُ خلالها في هذه الغرفة. جلسَ جيوڤاني في الفراش عاريًا تماما، يحمل كأس كونياك بين يديه. كان لجسمه لون الموت الأبيض، ووجهه رماديّ ومبلّل بالعرق والدموع. كنت واقفا على

الباب مع حقيبتي. ويدي على مقبض الباب، نظرتُ إليه. أردتُ التوسّل إليه أن يغفر لي. لكن بدا لي أن ذلك سيكون اعترافا عظيمًا؛ أيّ استسلام في تلك اللحظة كان من شأنه سجني معه في تلك الغرفةوإلى الأبد. وذلك بطريقة ما ما أردتُ بالضبط. شعرتُ باهتزازٍ في داخلي، مثل بداية الهزّات الأرضيّة، وأني أغرق في عينيه دون أمل في النجاة. التمع جسمه الذي عرفته جيدا في الضوء، وجعل الهواء بيننا مشحونا وثقيلا. ثم فُتَح بابٌ سريٌ دون صرير في دماغي، تأرجح مشرّعا، وأخافني؛ كأن لحظة هروبي من جسمه عززَتْ أبديّة استحواذ جسده عليّ. والآن يلتهب جسده في عقلي وفي أحلامي. كأنّما وُسِمْتُ به إلى الأبد، وكأنه طوال هذا الوقت، لم يحول عينيه عني. كأنه اكتشف أن وجهي شفاف مثل واجهة دكّان. لم يبتسم، لم يظهر عليه الأسى ولا الانتقام ولا الحزن؛ كان جامدا فقط. كان ينتظر، كما أعتقد، أن أعبر ذلك الفراغ وآخذه بين ذراعيّ مجددا – ينتظر، كما ينتظر المرء على سرير الموت المعجزة التي لا يجرؤ على تصديق عدم حدوثها. كان عليّ أن أغادر سريعا، لأن الحرب في جسدي والتي تريد سحبي إلى داخل الغرفة مجدّدًا تبدو جليّة جدًّا على وجهي. رفضَتْ قدماي حملي إليه مرّة أخرى. وكانت ريح حياتي تدفعني بعيدًا عنه.

«أورفوار، جيوڤاني.»

«أورفوار، عزيزي.»

أدرتُ ظهري له، وتركتُ الباب مفتوحا. كان زفير أنفاسه المنهكة مثل ريح شَعَثَتْ شعري ونفشت شعر حاجبيّ، كمن أصابه الجنون. مشيتُ في الممر القصير، متوقّعا في كلّ لحظة، سماع صوته خلفي.

عبرتُ الدهليز، وعبرتُ شرفة البواب التي كانت نائمة، إلى الشوارع التي يغمرها صباح جديد. ومع كل خطوة أخطوها، تصبح العودة إلى غرفة جيوفاني أكثر استحالة. كان ذهني فارغا، كأنه جرح هائل في حالة التخدير. قلتُ في نفسي، سيأتي يوم وسأبكي فيه لأجل ما فعلته بجيوفاني.

عند ناصية الشارع، في بقعة من شمس الصباح، أخرجتُ محفظتي كي أبحث عن بطاقات صعود الحافلة. وجدتُ في المحفظة ثلاثماءة فرانك أخذتُها من هيلا، وبطاقة هويتي، وعنواني في الولايات المتحدة، وقصاصات ورق، وبطاقات، وصور. مكتوب في كل قصاصة عنوان ما، وثمّة أرقام تلفونات، ومذكرات وملاحظات لمواعيد كثيرة مرّتْ، لكني احتفظت بتفاصيلها. تلتقي الناس وتفترق وتبقى ذكراهم، أو قد تُمحى حتى الذّكرى، فالآمال غالبا لا تتحقق، بالتأكيد لا تتحقق، وإلا ما كنت واقفا في ناصية ذلك الشارع.

وجدتُ أربع بطاقات للحافلة في محفظتي، ومشيتُ إلى حيث تقف، وثمّة شرطيّ هناك، وضع قلنسوته الزرقاء الثقيلة فوق هراوته البيضاء اللامعة. نظر إليّ وبتسم وصاح: «هل أنت على مايرام؟»

«نعم، ميرسي. وأنت؟»

«لا بأس. يوم جميل، أليس كذلك؟»

وبصوت مرتجف: «نعم، لقد بدأ الخريف.»

«صحيح.»

واستدار مبتعدا، عائدا إلى مراقبة الجادة الرئيسية. مشّطتُ

شعري بأصابعي. أحسسْتُ بالغباء لأني ارتجفتُ. راقبتُ امرأة تمرّ، آتية من السوق، حقيبتها النسيجية ممتلئة؛ تهتز في أعلاها زجاجة نبيذ أحمر. لم تكن شابة لكن وجهها كان صافيا وجريئا، وجسمها قويا ومكتنزا ويداها غليظتان. ناداها الشرطي بكلمة، وردّتْ عليه تشاكسه بكلمات فاجرة لكنها حسنَة النيّة. ضحك الشرطي؛ وشعر بالحرج من النظر إليّ مجدّدا. راقبتُ المرأة وهي تمشي إلى منزلها في نهاية الشارع، فكّرتُ أنها ستعود إلى زوجها، الذي يرتدي بذلة العمل الزّرقاء الوسخة، وإلى أطفالها. وصلتْ إلى ناصية الشارع حيث بقعة من ضوء الشمس، ثم عبرتْ الشارع. وصلت الحافلة، كنّا أنا والشرطي الوحيدين الّذين ننتظره. صعدنا. وقف الشرطي في مقدمة الحافلة، بعيدًا عني.

لم يكن الشرطيّ شابا أيضا، لكنه كان يمتلك حيوية أُعجبتُ بها. نظرتُ إلى الخارج عبر زجاج نافذة الحافلة، كانت الشوارع تُطوى. في زمن مضى، وفي مدينة أخرى، حينما كنت أركبُ الحافلة، وأجلس كي أتطلع عبر نافذتها، أنظر إلى الخارج، وأخترع حياة أخرى ومصيرا آخر لكلّ وجه عابر يستهويني قليلا، وأجعل لي دورًا ما في الحيوات الأخرى التي أخترعها. كنتُ أبحث عن بعض الهمس أو العلامات والإشارات، أو وعد ما لخلاصي المحتمل. كانت نفسي القديمة في ذلك الصباح تحلُم بأكثر الأحلام خطورة.

مرّتْ الأيام التي أعقبت ذلك الصباح سريعًا. بدأ الطقس يبرد فجأة. رافق ذلك اختفاء آلاف السياح مع تبدل الوقت وقصر ساعات النهار. تتساقط أوراق الأشجار على رأس المرء حينما يمشي في الحدائق، وتُدعَك فتتأوّه تحت قدميه. تبهت تدريجيًّا

الأسوار الحجرية اللامعة على ضفتي النهر، والتي تغيّر ألوانها بفعل أشعة الشمس، وتتحول ببساطة ودون تردّد إلى أحجار رماديّة. ويوميًا يتناقص عدد الصيادين عند النهر، إلى أن يأتي يوم تخلو فيه ضفّتا النهر منهم تمامًا. تُكسى أجساد الشباب والفتيات بالملابس الثقيلة: الكنزات، والشالات، وأغطية الرأس. يبدو الرجال المتقدمون في العمر أكبر عمرا، والنساء العجائز يصرنّ أبطأ. تتلاشى ألوان النهر ويهطل المطر، ويبدأ مستوى مياه النهر في الصعود. ويبدو جلياً أن الشمس سوف تتخلّى قريبا عن كفاحها الهائل للسطوع، وهذا يعني عددًا أقل من الساعات التي تشرق فيها عبر سماء باريس.

قلتُ لهيلا بعد وصول المال من أبي: «سيكون الجو دافئا في الجنوب.» كُنّا أنا وهيلا منشغلين طوال اليوم بالبحث عن بيت للإيجار في ايز، وفي كانيو-سورمير، وفي فينيسيا، وفي مونت كارلو، وفي أنتيب، وفي اليونان، وكنّا نادرًا ما نذهب إلى مركز المدينة.

بقينا أغلب الوقت في غرفتها نمارس الحب كثيرا، ونشاهد الأفلام في السينما، ونتناول العشاء بانتظام وكآبة في مطاعم غريبة على ضفة نهر السين اليُمنى. من الصعب معرفة سبب الكآبة، والتي كانت أحيانا تستقر فوق رأسينا مثل ظل شاسع لطائر يتحين فرصة الانقضاض على فريسته. لا أظن أن هيلا كانت تعيسة، لأنه لم يسبق لي أن تشبّثتُ بها كما فعلتُ في ذلك الوقت. ربما أحسّتْ، من حين لآخر، أن تشبّثي بها كان لجوجًا جدا ولا يمكن الوثوق به، ولا يمكنه أن يدوم. كنت أتلهف لرؤية جيوڤاني، من حين لآخر، في الحي وحوله. لقد فزعتُ من رؤيته طوال الوقت

تقريبًا مع جاك، ورغم هندامه الحسن، فإنه لم يبدُ في صحّة جيدة. ولم أكن قادرا على رؤية شيء خسيس وخبيث في عينيه، ولا طريقته في الضحك على نكت جاك البذيئة، ولا تأنقه المستخنث الذي بدأ يتظاهر به. لم أكن أريد معرفة حقيقة وضعه مع جاك؛ لكني عرفتُ ذلك يوما ما من عينيّ جاك المنتصرتين والحاقدتين.

كان جيوڤاني في وسط الشارع وقت الغروب، ثملا جدا وأهوجًا ويتصرف بغنج أنثوي بذيء وطائش؛ تجمهر الناس علينا، كأنه كان يُرغمني على تجرع كأس المهانة التي جعلتُه أنا يتجرعها من قبل. وكرهته لأجل ذلك. رأيته مرة أخرى صباح أحد الأيام، كان يشتري صحيفة، نظر إليّ بوقاحة، مباشرة في عينيّ، فحوّلتُ بصري عنه، راقبته وهو يمشي ويغيب أسفل الجادة. حينما عدتُ إلى نُزُل هيلا، أخبرتها عنه، محاولا تحويل الأمر إلى ضحك.

بدأت أراه في الحي بعد ذلك وحده دون جاك، مع أولاد الشوارع الذين ينتشرون في الأزقة، الذين قال عنهم جيوڤاني مرّة أنهم بائسون. لم يعُدْ حسن الهندام. بدا كما لو أنه واحد منهم. كان صديقه المقرب من بينهم يُشبهه: شابًّا طويلًا ذا بثور في وجهه، اسمه إيف، أذكر أني رأيته من قبل يلعب لعبة الكرة والدبابيس. وبعدها رأيته يتحدث إلى جاك في ذلك الصباح حيث تناولنا الفطور في ليال.

كنت مخمورًا ليلة ما، أتسكع في الحي وحيدا، رأيتُ ذلك الفتى إيف فابتعتُ له شرابًا. لم أتحدث عن جيوڤاني، لكن إيف تبرعَ بإخباري أنه لم يعد مع جاك بعد الآن. بدا كأنه عاد إلى وظيفته في حانة غيّوم. ولم يمضِ سوى أسبوع واحد على ذلك حتى وجدوا غيّوم مخنوقًا بحزامِ روبه في مكتبه الخاص، أعلى الحانة.

الفصل الخامس

كانت فضيحة مرعبة واستثنائيّة. سمع بها كل سكان باريس في ذلك الوقت، وشاهدوا صور جيوفاني التي نشرتها الصحف، بعد أن أُلقي القبض عليه. كُتِبتْ تفاصيل الجريمة وأُثيرَ لغط كثير حولها. وأُغلقتْ حانات كثيرة من نوع حانة غيّوم، لكن سرعان ما فتحتْ تلك الحانات أبوابها مجدّدا.

جالَ الحيّ رجالُ شرطةٍ متخفّين في ملابس مدنيّة، وطلبوا بطاقات السكّان التعريفية. هجرَ المثليّون الحانات. اختفى جيوڤاني ولم يجدوه. الأدلة كلّها، إضافة إلى اختفائه بالطبع، تُشير إليه بصفته القاتل. صدى فضيحة كهذه تسبّب بقلقٍ وبلبلة لمؤسسة الأمن في الدولة. ومن الضروري أن يجدوا تفسيرًا وحلًّا، وأن يعثروا على ضحيّة في أقصى سرعة ممكنة لتهدئة الرأي العام. لم يكن غالبية من أُلقي القبض عليهم لصلتهم بهذه الجريمة، مشتبهًا بهم في جريمة القتل، بل ألقي القبض عليهم لأنهم يصلحون أن يكونوا ضحايا، أو كما جرتْ تسميتهم بالفرنسية "طُعمًا"، ومع أن هؤلاء "الطُّعوم" ليست لهم علاقة بالجريمة، لكن النظرات المستهجنة والمحتقرة من قبل الناس ظلت تلاحقهم، حتى بعد أن ثبتت براءتهم التامة.

حينما اكتُشفتْ جثة غيّوم في حانته، لم يرتعب أولاد الشوارع فقط، بل إن خوف أولئك الأولاد أقل بكثير من خوف الرّجال ذوي الوظائف والمراكز المرموقة، الذين يتجوّلون في الشوارع لاصطياد الأولاد، والذين لا يمكنهم النجاة من فضيحة كهذه لو زُجّت أسماؤهم فيها.

لذلك تخبّط أرباب العوائل، وأبناء البيوتات العريقة، والمغامرون أصحاب الشّهوات اللجوجة من منطقة بليفيل*، ولم يعرفوا كيف يتصرّفون: هل يتظاهرون أنهم مجرد ضحايا لمثل هكذا نوع من الجرائم؟ أم يعلنوا أنهم أناس بسطاء ولا يتسامحون أبدا مع المجرمين والخارجين عن القانون ويتلهفون كي تأخذ العدالة مجراها وتطبق العقوبة على الجاني؟ كانوا قلقين جدا ويريدون غلق ملف هذه الجريمة سريعًا، والعودة إلى ممارسة حياتهم الطبيعية، وكي لا يجلد ظهورهم سوط الفضائل الرهيب الذي رفعته ولوحث به عامة الناس فجأة.

لذا، كان من حُسن حظهم أن جيوفاني ليس فرنسيًّا، كما لو كان ذلك اتّفاقًا ضمنيًّا رائعًا بينهم وبين ظروف الجريمة. ومع كل يوم يمر على جيوفاني هاربا، كانت الصحافة تشهّر به أكثر وتتساهل مع غيّوم. تذكّروا فجأة أن غيّوم سليل إحدى أعرق الأسر في فرنسا وأن اسم هذه الأسرة قد مات بموته. نشر ملحق الصحف في يوم الأحد تاريخ عائلته؛ وصوّروا وقابلوا أمّه العجوز الأرستقراطيّة، والتي ماتت كمدًا على ابنها حتى قبل أن تشهد محاكمة قاتله. أشادتْ الأم بصفات ابنها النّبيلة، وأسِفتْ على أن الفساد تفشّى في فرنسا إلى درجت باتت معها جريمة كهذه تحدث ويمرّ على حدوثها

وقت طويل دون محاسبة مرتكبها. ومع مشاعر استنكار الناس لجريمة مروّعة كهذه، صار اسم غيّوم متداخلًا بغرابة وغباوة مع التاريخ الفرنسي، الشرف الفرنسي، والزهو الفرنسي، وأصبح قريبًا جدًّا من كَونه رمزًا للرجولة الفرنسية.

قلتُ لهيلا: «اسمعي، كان غيّوم شاذًّا عجوزًا مقرفًا، وهذه هي حقيقته!»

«حسنًا، وهل تتوقع أن يعرف الناس الذين قرؤوا الصحف ذلك؟ لو كان غيّوم هكذا، فلماذا لا يُعلنون عن شذوذه بصراحة ويسألون معارفه.»

قلتُ لها: «أحد ما يعرف حقيقته. أحد هؤلاء الذي كتبوا هذا الهراء يعرف ذلك.»

«لا توجد مصلحة في التشهير بميت،» قالت بهدوء.

«لكن الحقيقة هي الغاية، أليس كذلك؟»

«إنهم يقولون الحقيقة. هو ابن عائلة عريقة وقد قُتِل. أعرف ما تعنيه. هناك حقيقة أخرى لم يقولوها. لكن الصحف لا تفعل ذلك أبدًا، هذا ليس همّهم.»

تنهدتُ: «مسكين، مسكين، مسكين جيوڤاني.»

«هل تعتقد أنه هو من فعلها؟»

«لا أدري. يبدو كذلك. كان هناك في تلك الليلة. شاهدوه يصعد إلى غرفة غيّوم العلوية قبل إغلاق أبواب الحانة، ولم يشاهده أحدهم وهو ينزل.»

«هل كان يعمل هناك في تلك الليلة؟»

«لا أعتقد، كان يشرب هناك كزبون، ربما هو وغيّوم تصاحبا مجدّدا.»

«يبدو أنك كوّنت صداقات غريبة أثناء سفري.»

«لا يظهر عليهم أنهم مختلفون عن الباقين، لو لم يُقتل أحدهم. على أيّ حال هم ليسوا أصدقائي عدا جيوڤاني.»

«لقد عشتَ معه. ولا تقدر على الجزم إذا كان بمقدوره القتل أم لا؟»

«كيف؟ أنت تعيشين معي، هل تستطيعين الجزم إن كان بإمكاني ارتكاب جريمة قتل؟»

«أنت؟ بالطبع لا.»

«كيف تعرفين ذلك؟ أنت لا تعرفين. كيف تعرفين أنّي الشخص ذاته الذي ترين؟»

«لأنّي...» ومالت إليّ وقبّلتني «... أحبّك» قالت هيلا.

«ربما ارتكبتُ جريمة قتل بالفعل، رغم معرفتك بي. كيف تجزمين؟»

«لماذا أنت مُستاء جدًّا؟»

«وكيف لا تستائين إذا كان أحد أصدقائك متّهمًا بجريمة قتل ويختبئ في مكان ما؟ ماذا تقصدين بسؤالك لماذا أنا مستاء جدًّا؟ وماذا تريديني أن أفعل، أغني تراتيل عيد الميلاد؟»

«لا تصرخ. لم أُدرك أنّه يعني كثيرًا لك.»

قلتُ لها بحدّة: «كان رجلًا لطيفًا، وأكره رؤيته يقع في مأزق كبير.»

اقتربتْ مني ووضعت يدها بهدوء على ذراعي: «حسنا ديفيد، سنغادر هذه المدينة سريعا. ولن تفكر في هذه الأمور مجدّدًا. الناس يقعون في المشاكل، ديفيد. لكن لا تتصرف كما لو أن الخطأ خطؤك.»

«أعرف أنه ليس خطئي، أنا فقط...» وسكتُّ، بينما كانت عينا

هيلا تجبراني على الصمت.

شعرتُ بالرعب وأوشكتُ على البكاء.

ظلّ جيوڤاني هاربًا مدّة اسبوع تقريبًا. كلما تطلّعتُ إلى الشارع من نافذة هيلا، مع كل مساء يزحف فوق باريس، أفكر بجيوڤاني الذي ربما يكون في مكان ما، تحت أحد الجسور، خائفًا ومرتجفًا ولا يعرف أين يذهب. ظننتُ أنه ربما وجد أصدقاء وفّروا له مكانًا للاختباء – من المدهش أنه يستطيع الفرار في مدينة صغيرة والشرطة تبحث عنه في كل مكان. أحيانا كنت أصاب بنوبات ذُعر، من المحتمل أن يبحث عنّي – ليطلب مني المساعدة أو ربما يقتلني. ومن المحتمل أنه يعتبرني لا أستحق عناء السؤال بالمساعدة؛ ولا أستحقُ حتى القتل. لجأتُ إلى هيلا لتساعدني. حاولتُ أن أدفن فيها خوفي وإحساسي بالذنب، كلّ ليلة. كانت الحاجة إلى فعل شيء ما تجتاحني مثل حُمّى تنهش داخلي، وكان الفعل الوحيد المتاح أمامي هو ممارسة الحب.

قبضوا عليه أخيرا، في صباح أحد الايام، في سفينة حمل راسية على ضفة النهر. تكهّنَتْ بعض الصحف أنه قد وصل بالفعل إلى الأرجنتين. لذا كانت صدمة اكتشاف أنه لم يذهب أبعد من ضفّة نهر السين، كبيرة. وفي المقابل فإن نقص حيلته في الهرَب لم يحسّن من موقفه في نظر الرأي العام. كان جيوڤاني من أغبى المجرمين، وأحمقهم؛ لديه الدافع لقتل غيّوم وسرقة المال من جيوبه، لكنه لم يمسّ النقد في خزانة الحانة، ولم يخمّن، كما يبدو، أن غيّوم لديه أكثر من مئة ألف فرنك يحتفظ بها في محفظة أخرى في حجرته العلويّة. وجدوا المال الذي أخذه من

جيوب غيّوم، في جيوبه دون نقصان، حينما أُلقي القبض عليه؛ لم يكن قادرا حتى على إنفاقه. كان ضعيفا وشاحبا وقبيحا ولم يكن قد تناول الطعام يومين أو ثلاثة. استحوذ وجهه على واجهة أكشاك الصحف في كل باريس. شاب، حائر، مذعور، وحقير؛ لم أصدّق أن جيوڤاني انتهى إلى هذا، ووصل سريعًا إلى هذه النهاية، ولا يملك أن يغير مسار نهايته. بدا عصبيًّا ومُستفزا، كل جزء من جسده ثائرٌ رغم نظرته الجليدية. وكان يبدو عليه، مثل مرات كثيرة من قبل، أنه يطلب المساعدة مني. أخبرت الصحف، العالم عديم الرحمة، كيف ندم جيوڤاني على فعلته، وكيف بكى طلبًا للرحمة، وتضرُّعه إلى الله كي يغفر له لأنه لم يقصد القتل. وأخبرتنا الصحف بتفاصيل مثيرة أخرى، وكيف ارتكب جريمته؛ لكنهم لم يخبرونا لماذا ارتكبها. كانت الإجابة على "لماذا" ستكون أكثر سوادًا من حبر ورق الجرائد، وأكثر من قدرة جيوڤاني على البوح.

ربما أكون الرجل الوحيد في باريس الذي يعرف أن جيوڤاني لم يكن يقصد القتل بالفعل، والرجل الوحيد في باريس الذي أقدر على قراءة ما خلف التفاصيل التي تنشرها الصحف. استعدتُ مرّة أخرى ذلك المساء الذي عدتُ فيه إلى غرفته، حينما أخبرني كيف طرده غيّوم من عمله.

سمعتُ صوته مجدّدا ورأيتُ الغضب ينزُّ من جسده كما الدموع من عينيه. أعرفُ تبجّحه وكم يعجبه أن يشعر بنفسه واسع الحيلة، وقادرا على مواجهة أيّ ظرف. كأني أراه يتبختر في حانة غيّوم. من المؤكد أنه قد شعر، بعد أن استسلم لجاك، أن فترة التمرين قد انتهت، والحب قد انتهى، وأن بإمكانه تلبية ما يريده

غيّوم منه. كان بإمكانه فعل أيّ شيء مع غيّوم، لكنه لم يستطع فعل شيء مع ذاته كجيوڤاني. من المؤكد أن غيّوم عرف، فربما أخبره جاك سريعا، أن جيوڤاني لم يعد مع الشاب الأمريكي؛ وربما كان غيّوم قد حضر حفلة أو حفلتين من حفلات جاك، محاطًا بكل حاشيته؛ وعرف، مثل بقية أصحابه، عن حريّة جيوڤاني الجديدة، وكونه دون حبيب، بإمكانية تحويله إلى عشيق مباح، أو إلى فتنة– أحدهم.

كانت ليلة عودة جيوڤاني إلى حانة غيّوم، لا تشبه غيرها من الليالي، جيوڤاني يتبختر هناك. بإمكاني سماع الحوار – يسأله غيّوم بنظرة ساخرة ومغناجة: «إذن، عدتَ مرة أخرى؟»

لا يريد جيوڤاني أن يُذكر غيّوم بآخر نوبات غضبه الكارثية تلك التي تسببت بطرده، ويريد أن يبقيه كصديق فقط. في اللحظة نفسها، ضربَه قُبح وجه غيّوم، وصوته، وتصرفه، ورائحته؛ إنّه فعلا في مواجهة غيّوم، إنّه لا يستدعيه في ذاكرته وحسب. جعلته الابتسامة التي استجاب بها لغيّوم، على وشك أن يتقيأ. لكن غيّوم لا يرى هذا، بالطبع، وقدّم لجيوڤاني شرابا.

قال له جيوڤاني: «أظنك تحتاج إلى نادل في الحانة،»

«هل تبحث عن عمل؟ خمنتُ أن صديقك الأمريكي قد اشترى لك بئر نفط في تكساس!»

رد جيوڤاني: «لا. الأمريكي...» وأشار بيده «طار!» فيضحكان.

«الأمريكيّون دائما يطيرون. إنهم ليسوا جيدين.» يقول غيّوم.

«بالفعل،» يُجيب جيوڤاني وينهي كأسه. يحوّل نظره بعيدا عن غيّوم. بدا خَجِلًا جدا، ربما يصفّر دون وعي. لا يقدر غيّوم الآن

أن يرفع عينيه عن جيوڤاني، أو يسيطر على يديه.
قال أخيرا: «تعال مرة أخرى في موعد غلق الحانة وسنتكلم لاحقا عن العمل.»

أومأ جيوڤاني برأسه وغادر. بمقدروي تخيّله، وجد بعدها مجموعه من فتيان الشارع، تناول الشراب معهم، وضحك، يستجمع شجاعته كلما مرّت ساعة أخرى. هو يتمنى أن يقول له أحد ما "لا تذهب إلى غيّوم، ولا تدعه يلمسك". لكن كل أصدقائه أخبروه عن ثروة غيّوم، وأنه سخيف وعجوز، وعن مقدار المال الذي يمكن أن يحصل عليه منه لو تحلّى بالذكاء الكافي. لم يظهر أحد في الشارع كي يتحدث إليه وينقذه، شاعرًا أنه سيفقد عقله أو سيموت.

حانت الساعة المحدّدة للذهاب إلى حانة غيّوم. مشى وحده. وقف في الخارج فترة. يريد أن يعود أدراجه، والهرب. لكن لا مكان يهرب إليه. ينظر إلى الشوارع المظلمة المتعرجة كما لو أنه يفتّش عن شخص ما. لكن لا أحد هناك. يدخل إلى الحانة. يراه غيّوم حالا وبسريّة يُشير له أن يصعد إلى الأعلى. يتسلق السلالم. ساقاه ضعيفتان. يجد نفسه في غرفة غيّوم، محاطا بالقمصان الحريرية الملونة، والعطور. يحدق في سرير غيّوم. يدخل غيّوم بعده إلى تلك الغرفة العلوية، يحاول جيوڤاني أن يبتسم. يتناولان شرابًا. غيّوم متهور ومترهل ومبلل، ومع كل لمسة من يديه، يزداد غضب جيوڤاني وينكمش أكثر. يختفي غيّوم كي يغير ملابسه، ويعود مجددا وهو يرتدي روبه المسرحيّ.

طلب غيّوم من جيوڤاني أن يتعرى. ربما في تلك اللحظة بالذات،

أدرك جيوڤاني جيدا أنه لا يستطيع الاستمرار، وأن إرادته تعجز عن إخضاعه لرغبات غيّوم. يتذكر العمل، يحاول أن يتكلم كي يكون عمليًّا، وأكثر عقلانية، لكن بالطبع، هذا متأخّر جدا، لأن غيّوم يطوّقه كما يطوّق البحر الغريق.

أعتقدُ أن جيوڤاني قد عُذِّبَ إلى مرحلة الجنون، وشعر أن روحه تغادره، وأن نفسَه تُقهر، وأن غيّوم قد تمكن منه. ولو أن هذا لم يحدث، فإن جيوڤاني ما كان ليقتله. وعندما حصل غيّوم متعته، وبينما جيوڤاني ما يزال مستلقيا ومخنوقًا، تحوّل غيّوم إلى رجل أعمال مرّة أخرى، يتمشى جيئة وذهابا، ويُعطي أسبابًا ممتازة لعدم موافقته على تشغيل جيوڤاني عنده مرّة أخرى. ورغم كل الأسباب التي اخترعها غيّوم، ظلّ السبب الوحيد مبهمًا، يعرفه كلاهما، ولو بشكل باهت، وكل منهما يراه بطريقة مختلفة. "جيوڤاني مثل بطل فيلمٍ مهزوم، خسر قدرته على المناورة، انكشفتْ أسراره، وبات يعرفه الجميع."

بالتأكيد عرف جيوڤاني أن غيّوم يعتبره ورقة لعب خاسرة ومحترقة، لكن فورة الغضب التي كانت تتراكم في داخله منذ شهور بدأت الآن بالانتفاخ مع ما تبقّى من آثار فم غيّوم ويديه عليه. حدّق في غيّوم بصمت بُرهة وبعدها انفجر في الصراخ. وغيّوم يجيبه بهدوء. ومع كل كلمة يتبادلانها، يدور رأس جيوڤاني أكثر، وحلكة الغضب الجارف تتأرجح أمام عينيه، بينما يتبختر غيّوم في أرجاء الغرفة بأقصى درجات السعادة، فلم يسبق له أن حصل على كثيرٍ مقابل لا شيء هكذا! تحوّل وجه جيوڤاني إلى لون قرمزي من شدّة الغضب، وثخن صوته، وغيّوم ما يزال يؤدّي

دور رجل الأعمال المتزن ويراقب بفرح عميق ومتعة، عضلات رقبة جيوڤاني المتشجنة. وربما قال غيّوم شيئًا، لظنه أن الطاولة انقلبت لصالحه؛ ربما قال كلمة ما، عبارة واحدة، أو إهانة واحدة، كلمة ساخرة؛ وفي جزء من الثانية، وفي الصمت المشدود والحائر في عينيّ جيوڤاني، أدرك غيّوم أنه أطلق العنان لشيء لا يمكن لجمه مرة ثانية. لم يقصد جيوڤاني القتل بالتأكيد. لكنه أمسك بغيّوم، ضربه. ومع تلك الضربة، ومع كل ضربة انهالت على غيّوم، يخف الثقل الذي لا يُطاق في عمق قلب جيوڤاني؛ الآن جاء دور جيوڤاني ليكون فرحا. انقلبت الغرفة عاليها سافلها، تمزّقت الملابس، وعمّت المكان رائحة العطور الثّقيلة. قاوم غيّوم كي يخرج من الغرفة، لكن جيوڤاني لحقه. الآن جاء الدور على غيّوم ليكون محاصرًا. وربما، في اللحظة نفسها، ظنّ غيّوم أنه أفلح في الهرب، وعندما وصل إلى الباب، هرع جيوڤاني خلفه وجره من حزام روبه الحرير ولف الحزام على رقبته. وببساطة ضيق ربط الحزام بعدها. بدأ شهيق غيّوم يتناقص مع كلّ ثانية تمر، وبدأ يزداد ثقلا، بينما يشدّ جيوڤاني الحزام أقوى ليشتدّ عذاب غيّوم. ثم يسقط غيّوم. ويسقط جيوڤاني أيضًا. تسقط الشوارع، ويسقط العالم كله في ظلال الموت.

في الوقت الذي عثرنا فيه على هذا المنزل الرائع، كان واضحًا أني خسرتُ حقي في المجيء إلى هنا ومرافقة هيلا. بحلول الوقت الذي عثرنا فيه على المنزل، لم أكن أريد حتى رؤية المنزل. لكن بحلول ذلك الوقت، لم يعد أمامي شيء أريد فعله. فكّرتُ أنه من الأفضل

لي البقاء في باريس كي أكون قريبا من المحاكمة، وربما أزوره في السجن. لكني عرفتُ أنه ما من سبب كي أفعل ذلك. كان جاك على تواصل منتظم مع محامي جيوڤاني وعلى اتّصال منتظم بي. رأى جيوڤاني مرّة وأخبرني بما أعرفه فعلا، وأنه ليس في إمكاني ولا في إمكان أيّ أحد آخر فعل شيء لجيوڤاني. ربما هو أراد الموت. اعترفَ بالذنب، بقصد السّرقة. استقبلتْ الصحافة الظروف التي ترافقتْ مع طرده من قِبَل غيّوم بكثير من التهويل.

انطبعت في أذهان الناس صورة غيّوم الذي صوّرته الصحافة على أنه إنسان ذو قلب طيب، أو بصورة أخرى: المُحْسِن الذي أساء التقدير فأخطأ في العطف على المغامر غليظ القلب وعديم الامتنان: جيوڤاني. غابت بعدها أخبار القضية عن عناوين الصحف.

حُبِسَ جيوڤاني في السجن انتظارا للمحاكمة. أتينا أنا وهيلا هنا. ربما فكّرتُ –وأنا متأكد أني فكرت في ذلك منذ البداية – رغم عدم استطاعتي فعل شيء لجيوڤاني، فربما كان بمقدروي فعل شيء لهيلا. وقد تمنيتُ من هيلا أن تفعل شيئا من أجلي بدورها. وربما أمكننا ذلك لو لم تجري الأيام بي، مثلما تجري لمسجون بين القضبان. لم أكن قادرًا على إخراج جيوڤاني من ذهني أو تناسيه، كنت تحت رحمة الأخبار التي تصلني بشكل متقطع من جاك. وكل ما أتذكره من الخريف الماضي هو انتظاري محاكمةَ جيوڤاني. وصلتْ القضية إلى المحكمة أخيرًا، وتمّتْ إدانته، وحُكِمَ عليه بالموت. وبقيتُ طوال الشتاء أحسب الأيام حتى موعد تنفيذ الحكم فيه. وبدأ كابوس هذا البيت. كُتِبَ كثيرٌ عن الحبّ الذي يتحول إلى كره، عن القلب الذي يصبح باردًا مع موت الحب. إنها

رحلة استثنائيّة، وهي أكثر ترويعا من كل ما قرأتُ عنها، ومخيفة أكثر من قدرتي على الوصف.

لا أعلم متى حدث أن نظرت إلى هيلا أوّل مرّة، فوجدتها واهنة، وأن جسدها غير مثير، وحضورها مزعج. يبدو أن ذلك حدث فجأة، وذاك يعني في الوقت نفسه أنه حدث منذ وقت طويل. كنت أغضب بسهولة من أشياء عادية تحدث كل يوم، مثل أن تمسّ حلمة ثديها ساعدي بخفّة كلّما انحنَت عليّ كي تقدّم لي العشاء. كنت أشعر بالاشمئزاز من رؤية ملابسها الداخلية معلّقة في الحمّام كي تجفّ، ظننتُ أن لها رائحة طيبة من كثرة الغسل. تبدّل الأمر وصرت أراها غير جذابة وغير نظيفة. بدا لي الجسم الذي يُغطّى بمثل تلك القطع الخبيثة منفّرًا. كنتُ أحيانًا أنظر إلى جسدها العاري وهو يتحرّك وأتمنى لو كان أكثر صلابة وشدًّا. فيما مضى كنت مسحورًا بنهديها، كنتُ عندما أكون في داخلها ينتابني شعور أني على حافة الإغماء. كل الذي كان يسعدني مع هيلا، صار مثل حامض حارق يُصَبّ في جوفي. وأظنّ، أظن أني لم أشعر بالخوف في حياتي مثلما شعرتُ بالخوف حينما بدأت أصابعي، لا إراديا، تفقد قدرتها على مسّ هيلا، أدركتُ أني كنت أتدلّى من مكان عال وأتشبثُ بها من أجل إنقاذ حياتي. وفي كل لحظة، كانت أصابعي فيها تنزلق على جسد هيلا، كنتُ أشعر بدوّامةٍ تحتي، وكل شيء فيّ يتقلص بمرارة، ويزحف بشراسة محاولا الصعود ضد ذلك السقوط الطويل.

في البداية ظننتُ أن ذلك يحدث بسبب أننا نقضي وقتًا طويلا معًا. قمنا برحلات إلى نيس ومونت كارلو وكان وأنتيب. لكننا لم

نكن أغنياء، وجنوب فرنسا في الشتاء خاصة هو مسرح للأغنياء فقط.

كنّا نذهب إلى السينما كثيرا ونجد أنفسنا بعدها جالسين في حانات رخيصة فارغة. نتمشى كثيرا في صمت. يبدو أننا لم نعد نرى الأشياء ونلفت انتباه بعضنا إليها. كنا نشرب كثيرا، أنا بالأخص. هيلا التي كانت ذات لون برونزي ومشرقة وواثقة من نفسها بعد عودتها من إسبانيا، بدأت تفقد ميزاتها الأنثوية: تحوّلتْ إلى فتاة شاحبة مصابة بالأرق ومتردّدة. توقفتُ عن سؤالي ما هي مشكلتي، لأنها اعتقدتْ إمّا أني لا أعرف بالضبط ما هي مشكلتي، أو أنني لا أريد البوح. كانت تراقبني طوال الوقت. وكنت أشعر بمراقبتها وقد صيّرتني حذرًا منها وجعلتني أكرهها. كنت أشعر بالذنب عندما أنظر إلى وجهها عن قرب وتلتقي أعيننا. كنا تحت رحمة مواعيد وصول الحافلة، وغالبًا ما وجدنا نفسينا منكمشين على بعضنا وفي أشد النعاس في غرفة انتظار الحافلة في صباح شتوي، أو متجمّدين في ناصية شارع في مدينة فارغة تماما. وصلنا إلى هذا البيت في صباح رماديّ، كنّا مشلولين من التعب، وذهبنا مباشرة إلى النوم. كنت قادرا على ممارسة الحب في الصباحات. ربما يرجع السبب إلى الإرهاق العصبيّ الذي أعانيه أثناء الليل؛ أو ربما يؤجّج التجوال الليلي في داخلي إثارة فضولية يتعذّر كبتها. لكنها لم تكن الإثارة الحارقة نفسها. شيء ما اختفى: الدهشة، الرغبة، أو غياب الفرح، وغياب الوئام والسلام.

غالبا ما كانت الكوابيس تنتابني، أحيانا يوقظني صراخي وأحيانا أخرى يوقظ عويلي هيلا، فتهزّني كي أصحو. «أتمنى أن تقول لي

ما المشكلة. قل لي ما الذي يشغلك؛ دعني أساعدك.» قالت لي يومًا ما. هززتُ رأسي وتنهّدتُ حيرة وحزنا. كنا جالسين في الغرفة الكبيرة، حيث أقف الآن. كانت هيلا جالسة في المقعد المريح ذي المسندين، تحت المصباح، مع كتاب مفتوح في حضنها. قلتُ لها: «أنتِ فاتنة، لا شيء، سأكون على ما يرام، ربما هو إجهاد فقط.»
قالت: «إنّه جيوڤاني.»، نظرتُ إليها، وأضافتْ: «أليس كذلك؟»
ثمّ سألتني بحذر: «وتظنّ أنك فعلت معه أمرًا شنيعًا عندما تركته في تلك الغرفة؟ وتلوم نفسك لِما حصل له. لكن، حبيبي، لم يكن في استطاعتك فعل شيء لمساعدته. كُفّ عن تعذيب نفسك.»
قلتُ لها: «لقد كان جميلًا.» لم أكن أعني ما قلته. وبدأتُ أرتجفُ. كانت تراقبني بينما كنت أسير نحو الطاولة – كان عليها زجاجة كما الآن – وصببتُ لنفسي كأسًا.
لم أكن قادرا على عدم الكلام، مع أني خشيتُ، في كل لحظة، أن أبوح أكثر ممّا يجب. وربما كنتُ أريد قول الكثير. «لا أقدر على تحمّل شعوري بالذّنب لأني وضعته تحت رحمة السكّين. كان يريدني أن أبقى معه في تلك الغرفة؛ توسّل لي أن أبقى. لم أخبركِ – إننا تعاركنا بشدّة، في الليلة التي ذهبتُ فيها إلى غرفته لجلب أشيائي.» توقّفتُ عن الكلام ورشفتُ من كأسي. «لقد بكى.»
قالت هيلا: «كان يحبك، لماذا لم تخبرني؟ أو لعلّك لا تعرف؟»
استدرتُ عنها، وشعرت بالحرارة تلفح وجهي.
أكملَت كلامها: «ليس ذنبك، ألا تفهم هذا؟ لم يكن في مقدروك منعه عن حبّك. ولم يكن في مقدروك منعه عن... عن قتل ذاك الرّجل القبيح.»

تمتمتُ: «أنت لا تعرفين شيئًا، أنت لا تعرفين.»
«بل أعرف كيف تشعر...»
«أنت لا تعرفين كيف أشعر.»
«ديفيد. لا تُخرسني. أرجوك لا تُخرسني. دعني أساعدك.»
«هيلا، حبيبتي، أعرف أنك تريدين مساعدتي. لكن اتركيني فترة. سأكون على ما يرام.»
قالت بعد أن نفد صبرها: «أنت تقول هذا منذ فترة طويلة.»، نظرت إليّ بتمعّن بُرهة، ثم قالت: «ديفيد، ألا تظنّ أنه يتوجب علينا العودة إلى الديار؟»
«العودة إلى الديار؟ لأجل ماذا؟»
«وما هو سبب بقائنا هنا؟ وإلى متى تريد الجلوس في هذا البيت، وأكلَ قلبك؟ وماذا ينفعني ذلك؟»
وقفتْ وخطتْ نحوي: «أرجوك أريد العودة إلى الوطن. أريد الزواج. أريد إنجاب طفل. أريد لنا أن نعيش في بيت يجمعنا، أريدك. أرجوك ديفيد. لماذا نحسب مرور الوقت هنا؟»
ابتعدتُ عنها سريعا. بينما وقفتْ هي خلفي بهدوء. «ما المشكلة، ديفيد؟ ماذا تريد؟»
«لا أدري. لا أدري.»
«ما الذي تخفيه عني؟ لماذا لا تخبرني الحقيقة؟ أخبرني الحقيقة.»
استدرتُ كي أواجهها: «هيلا، تحمّليني، تحمّليني بعض الوقت.»
«أنا أريد ذلك أيضًا،» وبكتْ: «لكن أينك أنت؟ لقد ذهبتَ إلى مكان مجهول ولا أقدر أن أجدك. لو تدلّني فقط كيف أصل إليك!»
وتواصل بكاؤها. أخذتها بين ذراعيّ. كنتُ متبلّد الحسّ تماما.

قبّلتُ دموعها المالحة، وغمغمتْ هي بشيء لم أفهمه. شعرتُ بجسدها يتلوّى ويجتهد كي يحتكّ بجسدي، وشعرتُ بجسدي ينكمش وينسحب بعيدا عنها. علمتُ أنّي بدأت درب الانحدار الطويل. ابتعدتُ عنها. بينما تأرجحتْ هي، في المكان الذي تركتها فيه، مثل دمية مسرح معلقة بخيط.

«ديفيد، أرجوك، دعني أكون أنثى. لا آبه بما تفعله معي. ولا آبه بما يكلفني ذلك. سأُطيل شعري ولن أقصه مجددا، وسأمتنع عن التدخين، وسأرمي الكتب.»

حاولتُ الابتسام؛ أخذتْ نبضات قلبي تتسارع. «فقط دعني أكون أنثى، خذني. هذا ما أريده. بل إن ذلك هو كل ما أريد. لا أكترث لأيّ شيء آخر.» وتحرّكتْ نحوي، بينما وقفتُ في مكاني دون حراك. لمستني، رفعتْ بثقة ويأس رأسها إلى رأسي: «لا ترمِني إلى البحر مجددا، ديفيد. دعني أبقى هنا معك.» تفحّصتْ وجهي تبحث عن أجوبة، وقبّلتني. كانت شفتاي باردتين، غاب عنهما أيّ تأثير للقبلة. قبّلتني مرة أخرى وأغمضتُ عينيّ، شاعرا بالأغلال القوية تسحبني نحو الحريق. كنت يائسا من جسمي وظننته لن ينهض مجددا. لكنه قريبا من دفئها، ومن إلحاحها، وبين يديها، بدأ يستقيظ، لكن توجّب عليّ الرحيل بعيدا عنه. ومن علوّ شاهق، حيث الهواء المحيط بي أبرد من الصقيع، كنت أرقب جسدي بين ذراعي إنسان غريب.

في تلك الليلة، أو في ليلة أخرى بعدها مباشرة، تركتُ هيلا نائمة في السرير ورحلتُ إلى نيس، وحدي.

تسكعتُ في حانات تلك المدينة المتلألئة. في نهاية الليلة الأولى،

أصابني العمى بتأثير الكحول وضراوة الشهوة، صعدتُ سلّم فندق مظلم مع بحّار. عرفتُ في صباح اليوم التالي، أن البحّار يتمتع بإجازة وأن له أصدقاء، ذهبنا معًا لزيارتهم ونمنا تلك الليلة معهم. وقضينا اليوم التالي معا، واليوم الذي تلاه. وفي الليلة الأخيرة من إجازة البحار، كنّا نحتسي النبيذ في حانة مزدحمة. وكنا في مواجهة مرآة كبيرة في أحد جدران الحانة. كنتُ ثملًا جدًّا، ومفلسًا تقريبا. فجأة، رأيتُ وجه هيلا في المرآة. ظننتُ أني على وشك الجنون وأدرتُ وجهي. لكنها كانت متعبة جدًّا وشاحبة وضئيلة. وقفنا متجمدين بمواجهة بعضنا عدّة دقائق. كان البحّار يحدق بنا.

سألني البحّار أخيرًا: «ألم تُخطئ الاستدلال على الحانة؟»

التفتتْ هيلا أليه وابتسمتْ قائلة: «لم يكن هذا هو الأمر الوحيد الذي أخطأتُه.»

في تلك اللحظة، حدّق بي البحار وأنا أقول لهيلا: «حسنًا، لقد عرفتِ الآن.»

قالت بينما تهمّ بالاستدراة مبتعدة: «أعتقد أني كنت أعرف منذ وقت طويل.»

هممتُ باللحاق بها. لكن البحار أمسك بي وقال: «هل أنت... هل هي؟» هززتُ رأسي. كان وجهه مضحكا بفم مفتوح بفعل الدهشة. رفعَ يده عني فاجتزتُه مُسرعًا، حين وصلتُ إلى باب الحانة، سمعتُ ضحكاته.

مشيتُ مع هيلا وقتًا طويلًا خلال أزقّة حجرية باردة، صامتين. كانت الشوارع خالية تماما، وبدتْ كما لو أن الضوء لن يزورها مجدّدا.

قالت هيلا: «حسنا، سأعود إلى الوطن، كم تمنّيتُ لو أني لم أغادره أصلًا.»، وفي الصباح التالي لتلك الليلة، بينما كانت تحزم حقيبتها قالت: «إذا بقيتُ هنا مدّة أطول، فسوف أنسى أنني أنثى.» كانت باردة جدًّا وغدا جمالها مُرًّا جدًّا.

قلتُ لها: «كيف لأنثى نسيان أنوثتها؟»

«كوني أنثى لا يعني قبول التعرّض للإذلال، ولا يعني تجرّع المرارة والألم. ونكاية بك، سوف لن أنسى أنوثتي. سأغادر هذا المنزل، بعيدًا عنك، وبأسرع ما تستطيعه سيّارات الأجرة والقطارات والبواخر التي ستحملني إلى أمريكا.»

وفي الغرفة التي كانت غرفة نومنا في بداية حياتنا في هذا البيت، تنقّلتْ هيلا في عجلة يائسة لشخص على وشك الهرب، بين حقيبتها المفتوحة على السرير، والخزانة ذات الأدراج، وخزانة الملابس.

كنت أراقبها، واقفا عند باب الغرفة، مثل ولد صغير بلّل ملابسه ويقف أمام معلمته. أوصدتْ الكلمات التي وددتُ قولها حنجرتي مثل الأحراش الضارة، وعطّلتْ فمي.

«تمنّيتُ، في كلّ الأحوال، أن تصدّقيني عندما قلتُ لك إني لم أكذب عليك.»

أدارتْ نحوي وجهًا مروّعًا: «كنتُ الشخص الذي تتحدّث إليه، الشخص الذي اخترتَ أن تكون برفقته في هذا البيت المروّع، وسط اللامكان. كنتُ الشخص الذي قلت إنك تريد الزواج منه!»

قلتُ لها: «كنت أكذب على نفسي.»

قالت هيلا: «آه، وهل تظن أن يغيّر من الأمر شيئًا؟»

صرخـتُ بها: «لقد قصدتُ أني مهما جرحتك، فأنا لم أكن أقصد ذلك!»

«لا تصرخ، قريبا سوف أرحل، وعندها سيكون بمقدروك أن تصرخ في وجه التلال في الخارج، أصرخ في وجوه القرويين، أصرخ أنّك مُذنب، وأنك تُحبّ كونك مذنبًا!»

عادت إلى حزم أمتعتها مرّة أخرى ببطء، من حقيبتها إلى الخزانة ذات الأدراج. كان شعرها رطبا ويتدلى على جبهتها، ووجهها نديّا. كنت أتوقُ إلى أن أخطو نحوها وآخذها بين ذراعيّ وأريحها. لكن ذلك لن يجلب أيّ راحة بعد الآن، بل سيجلب العذاب لكلينا. لم تنظر إليّ بينما كانت تحزم أمتعتها، بل تنظر إلى الثياب التي تضعها في الحقيبة، كما لو أنها غير متأكدة أنها ثيابها.

قالت: «لكني كنت أعرف، أعرف، هذا ما يجعلني أشعر بالخزي. عرفتُ في كلّ دقيقة نظرتَ فيها إليّ. عرفتُ في كل مرة نمنا معا، لو كنتَ فقط أخبرتني الحقيقة. ألا ترى كم تسبّبت بظلمي وتركتني كي أعثر على الحقيقة بنفسي؟ أنت وضعت العبء كله على كاهلي، كان من حقي سماع الحقيقة منك. المرأة دائما تنتظر من الرجل البدء بالكلام. أو لعلّك لم تسمع بهذا؟»

لم أقل شيئًا.

«لو قلت لي الحقيقة بنفسك، لكُنتَ جنّبتني العذاب الطويل والحيرة وكل الوقت المهدور في هذا البيت؛ كيف بحق السماء سأحتمل رحلة العودة الطويلة إلى أمريكا. لو قلتَ لي الحقيقة بنفسك، لكنتُ في الوطن الآن، أرقص مع رجل آخر يُشعرني بأنثوتي ويداعبني، ولكنتُ أنا من أسمح له بذلك.»

وابتسمتْ بحيرة لحشد الجوارب النسائيّة الشفافة في يدها، وبحذر، حشرتها في الحقيبة.

بالكاد قدرتُ على القول: «ربما لم أعرف نفسي جيدا. عرفتُ فقط أني أردتُ الهروب من غرفة جيوفاني.»

قالت: «حسنًا، أنتَ خارج تلك الغرفة. والآن أنا من عليه أن يخرج. يا لجيوفاني المسكين الذي فقد عقله.»

كانت جملتها الأخيرة نكتة باردة قالتها بقصد أن تجرحني؛ ومع ذلك فهي لم تتقن تلك الابتسامة السّاخرة التي حاولت رسمها على وجهها. قالت: «سوف لن أفهم،» ورفعتْ عينيها لتواجه عينيّ، كما لو كان في مقدوري مساعدتها على الفهم: «كيف دمّر حياتك ذلك المجرم الصغير القذر. أعتقد أنه دمّر حياتي أيضًا. على الأمريكيّين ألّا يأتوا إلى أورُبا أبدًا» قالتْ ذلك وهي تحاول الضحك، لكنها بكتْ بدلا من ذلك، وأكملتْ بصوتها المتحشرج: «فمجيؤهم إلى هنا معناه أنهم لن يستطيعوا العيش بسعادة مجدّدا. ما جدوى حياة الأمريكيّ إذا لم يكن سعيدًا؟ السعادة هي كلّ ما لدينا» ثمّ رمتْ نفسها بين ذراعيّ، للمرة الأخيرة، بين ذراعيّ، وهي تنتحب.

تمتمتُ: «لا أصدق، لا أصدق. لدينا أشياء مشتركة كثيرة، دائما كنا نتقاسم أشياء أكثر بكثير من هذه. لا أحتمل خروجك من حياتي، هيلا.»

«يا إلهي، أنا أريدك، كلّ رجل سوف ألتقيه سيجعلني أفكر فيك، يا لبؤس الرّجل! يا لبؤس كلّ الرّجال! يا لبؤسي!»

«هيلا، هيلا، يومًا ما، حينما تكونين سعيدة، حاولي أن تسامحيني.»

ابتعدَتْ عنّي: «آه، لن أعرف معنى السعادة بعد الآن. ولا أعرف معنى المغفرة. من المفترض أن النساء يتبعن الرجال، لكن ماذا يحدث لو لم يجدنَ رجلًا يتبعنه، ماذا يحدث عندها؟»

خطتْ نحو خزانة الملابس وأخذتْ معطفها؛ بحثت عن علبة البودرة في حقيبة يدها، ومسحتْ دموع عينيها برفق بينما كانت تنظر إلى المرآة الصغيرة في العلبة، ولوّنت شفتيها بأحمر الشفاه. «هناك فرق بين الأولاد الصغار والبنات، تمامًا مثلما قرأنا في كتب الأطفال. البنات يُردنَ الأولاد. لكن الأولاد...» وأطبقت غطاء عُلبة البودرة.

«سوف لن أعرف ابدا، مهما تقدّم بي العمر، ماذا يريد الأولاد. والآن أعرف أنهم أبدًا لن يبوحوا ماذا يريدون. ولا أعتقد أنهم يعرفون ماذا يريدون.» مرّرت أصابعها خلل شعرها، رجّلته إلى الخلف، وأزاحته عن جبهتها، ومع أحمر الشفاه على شفتيها، ومعطفها الأسود الثقيل، صارت مرة ثانية قاسية، متألقة، بائسة، امرأة غريبة ومخيفة.

«صُبّ لنا شرابًا، لنشرب نخب الأوقات الجميلة الماضية إلى أن تصل سيارة الأجرة. لا أريدك أن تأتي معي إلى محطة القطار. أتمنى مواصلة الشرب طوال الطريق إلى باريس وطوال الطريق، بعد ذلك، عبر ذلك المحيط القاسي.» شربنا في صمت، منتظرين سماع صوت إطارات سيارة الأجرة وهي تدعك الحصى في الخارج. ثم سمعنا ذلك الصوت، ورأينا مصابيح السيارة، وبدأ السائق بتنبيهنا ببوق السيارة. وضعتْ هيلا كأسها على الطاولة، ولفّتْ نفسها بمعطفها وبدأت تخطو نحو الباب. حملتُ عنها حقيبتها

وتبعتها. وضعنا أنا والسائق الحقيبة في صندوق السيارة، كنتُ طوال الوقت أفكر بالكلمات الأخيرة التي أحاول قولها لهيلا، كلمات علّها تمسح بعض المرارة. لكني عجزتُ عن إيجاد أو نطق أيّ كلمة. ولم تقل لي هي شيئا. كانت تقف منتصبة تحت سماء الشتاء المعتمة، ترنو إلى البعيد. وحينما صار كل شيء جاهزًا للمغادرة، التفتُّ إليها: «هل أنتِ متأكدة أنك لا تريديني أن أرافقك إلى المحطة، هيلا؟»

«نظرت إليّ ومدّت يدها: «وداعًا، ديفيد.»

أخذتُ يدها. كانت باردة وجافّة، مثل شفتيها.

«وداعًا، هيلا.»

استقلّتْ سيارة الأجرة. راقبتها وهي تجلس خلف السائق، وهي تبتعد باتجاه الطريق. لوّحتُ لها آخر تلويحة بيننا، لكن هيلا لم تستجب ولم تلوّح لي.

خارج نافذتي بدأ الأفق في الظهور، وتحوّلت ألوان السّماء من رماديّة إلى أرجوانيّة ممزوجة بزُرقة. حزمتُ أمتعتي ونظّفتُ البيت. وضعتُ مفاتيح الأبواب على الطاولة أمامي. عليّ فقط تبديل ثيابي. عندما ينكشف الأفق أكثر، سأنتظر الحافلة التي سوف تقلّني إلى المدينة، إلى محطّتها، إلى القطار الذي سيحملني إلى باريس. لكنّي ما زلت غير قادرٍ على الحركة.

على الطاولة أيضًا، ثمّة ظرف صغير أزرق، البرقية التي وصلتني من جاك يُعلمني فيها بموعد تنفيذ حكم الإعدام بجيوڤاني. صببتُ لنفسي كأسا صغيرة أخرى، وأنا أراقبُ انعكاسي الباهت في زجاج

النافذة. أبدو كأني أتلاشى أمام ناظريّ، وهذه الصورة المتلاشية سَلّتني قليلا وجعلتني أضحك من نفسي.

ربما فُتِحتْ البوابات لجيوڤاني ثمّ أغلِقَتْ خلفه مع صرير فظيع، وتلك ستكون المرّة الأخيرة التي تُفتح له أو تُغلق خلفه. ربما انتهى كل شيء الآن. ربما هو في البداية. ربما ما يزال ساكنًا في سجنه، يراقب مثلي طلوع الصباح. ربما يهمسون الآن في نهاية ممرّ السّجن، وثلاثة رجال غلاظ يرتدون السواد، يحمل أحدهم حلقة مفاتيح، والسجن كله يغرق في الصمت ويُشحَنُ بالرهبة، وهو ينتظر. يبدأ النشاط في الطابق السفليّ الحجريّ من السجن تمهيدًا لتنفيذ الحُكم، وبعدها يعمّ السكون، ويُشعل أحدٌ ما سيجارة. هل سيموت وحده؟ لا أعرف هل الموت في هذا البلد انفراديّ أم مسألة جماعية. وماذا سيقول لرجل الدين؟

شيء ما يقول لي: غيّر ثيابك، لقد تأخّر الوقت.

خطوتُ إلى غرفة النوم حيث هيّأتُ الملابس التي سأرتديها على السّرير، وجهّزتُ حقائبي. بدأتُ في خلع ثيابي. هناك مرآة في الغرفة، مرآة كبيرة. دائما أعي وجود المرايا من حولي بشكل رهيب. يتأرجح وجه جيوڤاني أمامي مثل فانوس يزيح الظلام، ظلام الليل. عيناه – عيناه تلتمعان مثل عينيّ نمر، تحدقان مباشرة إلى الأمام، تراقبان دنوّ موعده الأخير، ينتصب شعر جسمه واقفا. لا أستطيع قراءة ما في عينيه؛ كأنه الفزع، لكنه ليس أيّ فزع جرّبته من قبل. كأنّه عذاب، لكنه ليس كمثل العذاب الذي خبرته من قبل. يصل الرجلان بالملابس السوداء الآن، يدور المفتاح في القفل. يأخذانه.

يصرخُ مرّة واحدة. ينظران إليه. يسحبانه إلى باب زنزانته. يميد به ممرّ السّجن، مثل مقبرة تدفن كل ماضيه، ويدور السجن فيه. ربما بدأ بالنحيب، ربما لم يصدُر أيّ صوت منه. بدأتْ الرحلة. ربما حين بدأ بالصراخ، لم يتوقف؛ ربما يبكي الآن، محاصرًا بكل ذاك الحجر والحديد. أرى ساقيه ملتويتين، وفخذيه رخوتين، ردفيه ترتعشان. بدأت مطرقة الدقائق السريّة هناك بالطّرق. هو يتعرّق، أو ربما لا يتعرّق. هل يجرّونه جرًّا، أم أنه يمشي بمفرده؟ قبضاتهم مخيفة، وذراعاه لم يعودا ذراعيه بعد الآن.

اجتازَ ذلك الممر الطويل، ونزلَ تلك السلالم الحديدية، إلى قلب السجن، ومن ثم إلى خارجه. أوّلًا إلى مكتب القس. يركع. تحترق شمعة. تراقبه السيّدة العذراء.

مباركة هي مريم العذراء أمّ المسيح.

يداي رطبتان، وجسمي كليل وأبيض وجاف. أراه في المرآة، من زاوية عيني.

مباركة هي مريم العذراء أمّ المسيح.

يُقبّل الصّليب ويتشبث به. يرفع القسّ الصّليبَ بعيدًا عنه برفق. ثم يرفعون جيوڤاني. بدأت الرحلة. يتقدمون باتّجاه باب آخر. جيوڤاني ينتحب. يريد أن يبصق، لكن فمه جاف. لا يقدر أن يسألهم السماح له بالتوقف دقيقة كي يتبوّل. اللحظة القادمة سوف تدبّر نفسها بنفسها. هو يعرف أن النّصل ينتظره خلف ذلك الباب الذي سيصله بسرعة. ذلك الباب هو البوّابة التي سعى إليها طويلًا للخروج من هذا العالم القذر، والجسد القذر.

تأخّر الوقت.

الجسم في المرآة يجبرني أن ألتفت كي أواجهه. وأنظُر إلى جسدي، هو تحت حكم الإعدام أيضًا. إنه هزيل، وجافّ وقاسٍ، هو تجسيد للغموض. ولا أعرف ما الذي يمور في هذا الجسد، وما الذي يبحث عنه. هو محاصر في المرآة ومحاصر بالوقت ويتعجّل الانعتاق.

«لَمَّا كُنْتُ طِفلاً كَطِفْل كُنْتُ أَتَكَلَّمُ، وَكَطِفْل كُنْتُ أَفْطَنُ، وَكَطِفْل كُنْتُ أَفْتَكِرُ. وَلكِنْ لَمَّا صِرْتُ رَجُلاً أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ.»[12]

أتوقُ إلى تحقيق تلك النبوءة. أشتهي أن أكسر تلك المرآة وأتحرّر. أنظر إلى جِنسي، إلى جِنسي الحائر المزعج، وأتساءل كيف يمكن أن يُفتدى، وكيف يمكنني أن أنقذه من النّصل. الرحلة نحو القبر بدأت بالفعل، الرحلة المستمرة إلى التحلّل والتعفّن هي في منتصفها بالفعل. ومع ذلك فإن مفتاح خلاصي وانعتاق روحي، يبقى مخفيًّا في جسدي، رغم أن ذاك المفتاح يعجز عن إنقاذ جسدي.

الباب أمامه. الظلام يحيطه، والخرس في داخله. ثم يفتح الباب ويقف بمفرده، كل العالم يتساقط بعيدا عنه. لم يسمع أيّ صوت. لكن الزاوية الضيقة من السماء، في طرف عينه، قد انكمشتْ. طرحوه على وجهه في الظلام، دارتْ به الارض، وبدأتْ رحلته.

ابتعدتُ أخيرًا عن المرآة وبدأتُ في تغطية ذلك الجسد الذي يجب عليّ احترامه وسجنه بالثياب، رغم أنه ليس خبيثًا أبدًا، بل صُقل مليًّا بأملاح الألم في حياتي. يجب أن أؤمن بأنّ نعمة الرب الثقيلة التي جلبتني إلى هذا المكان، بإمكانها حملي بعيدا عن هذا المكان أيضًا.

---

(12) آية من الإنجيل من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس.

وأخيرًا خطوتُ نحو الصّباح. أقفلتُ الباب خلفي. عبرتُ الشارع ووضعتُ المفتاح في صندوق بريد السيدة العجوز. نظرت إلى الطريق، حيث يقف أناس قليلون، رجالًا ونساءً، ينتظرون موعد وصول الحافلة الصباحيّ. يتمتعون بحيوية شديدة تحت سماء مستيقظة للتوّ، وتوهّج الأفق وراءهم. أحملُ عبء الصّباح على كتفي مع عبء أملٍ مُخيف، وفي يدي أُمسك الظرف الأزرق الذي أرسله لي جاك. مزّقته ببطء. وراقبتُ كيف تتبعثر وتطير بعيدًا قصاصاته في الريح. رحتُ أسير باتجاه الناس الذين ينتظرون الحافلة، بينما الريح تنفخ بعض مِزَق الظّرف الأزرق عائدةً إلي.

دليل القارئ إلى تحليل الرواية

1. إلى أيّ مدى يكون ديفيد مسؤولاً عمّا حدث لجيوفاني؟ إلى أيّ مدى خرجت الأحداث عن سيطرته؟
2. ما الذي كان ديفيد يركض بعيدًا عنه؟ وما الذي كان يبحث عنه عندما غادر منزله في بروكلين؟ إذا كان يركض بعيدًا عن شيء ما، فهل استطاع الابتعاد عنه؟ وإذا كان يبحث عن شيء، فهل عثر عليه؟
3. ما الدور الذي يمكن أن تلعبه تجربة جيوفاني داخل قريته الإيطالية في علاقته الحالية مع ديفيد؟ أو في علاقاته مع الرجال بشكل عام؟
4. ما أهمية هيلا في القصة؟ هل كانت شخصية كاملة ومركبة مثل ديفيد وجيوفاني؟
5. ما أهمية غرفة جيوفاني نفسها؟
6. يُفترض أن المجتمعات ذات الدخل المنخفض تتسبب في ظهور عددٍ من الصراعات داخل الأسر. ناقش هذا الافتراض استنادًا إلى الرواية.
7. كيف شرح جيمس بالدوين الاقتصاد الاجتماعي للحبّ الرومانسيّ أو الرغبة الجنسية في روايته؟ وكيف تؤثّر الطبقة والعِرق والهويّة الوطنيّة والهجرة على ذلك؟

8. ما العلاقة بين البراءة والحياة الجنسية المُعرَّفة في الرواية؟ هل كانت أي من الشخصيات المذكورة في النص "تعرف" بعضها بعضًا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تعرّف بعضها على بعض...؟

جيمس بالدوين

ولد جيمس بالدوين في هارلم بمدينة نيويورك عام 1924، ونشأ في بيئة شديدة الفقر. ولأنه كان ابناً غير شرعي، فهو لم يعرف والده الحقيقي قط.

حين كان في الثالثة من عمره تزوجت والدته من رجل قاس كان عاملًا في معمل، إضافة إلى كونه كاهناً. وتعوْد كنية "بالدوين" إلى زوج أمه الذي قضى آخر أيامه في مشفى للأمراض العقلية حيث مات هناك عام 1943. ولم يعرف جيمس بالدوين والده الحقيقي قط.

كان بالدوين في طفولته قارئاً نهماً. في الثانية عشرة من عمره ظهر عمله الأول في صحيفة تعود لإحدى الكنائس. وفي السابعة عشرة، استقل بالدوين عن عائلته. وبعد تخرجه من المدرسة الثانوية، اشتغل في عدة أعمال بأجور زهيدة، وبدأ مرانه الأدبي.

اشتهر جيمس بالدوين برواياته التي تبحث في مواضيع الجنس وهـواجس الهوية الضائعة أو المحاصرة أو المخنوقة لإنسان بذاته وبالتالي لأي إنسان. كما عرف بمقالاته الحادة اللهجة حول الصراع المتعلق بحقوق الإنسان. إضافة إلى ذلك صدر لبالدوين ثلاث مسرحيات، وقصة للأطفال، ومجموعة قصصية واحدة. وقد نال شهرته عقب إصدار روايته الأولى "أعلِنـوا مولـده فوق الجبـل" (1953)، والتي تتحدث عن معاصٍ خفيّة، وآثام وعذابات دينيّة. يتضح في أعمال بالدوين امتزاج السيرة الذاتية بسيرة الظلم الاجتماعي وتحليل

كنه هذا الظلم وبالتالي البحث عن العدالة فوق هذه الأرض. ففي روايته "أعلِنوا مولده فوق الجبل" يتحدث عن تجربته كقس وواعظ للناشئة في كنيسة صغيرة عندما كان في الرابعة عشرة، حيث شكّل له ذلك مهرباً من الفقر. وتتشابه حياة الكاتب مع حياة شخصية جون في الرواية إذ أن حياة أمه مليئة بالأسرار، وهو ابن غير شرعي تربّى في كنف غابرييل الذي يعمل كاهناً!

إن علاقة بالدوين المهتزة والقاسية بزوج أمه، وانتحار صديق له، إضافة إلى العنصرية، كل ذلك قاده إلى باريس ولندن عام 1948، حيث عاش عشر سنوات في أوروبا، وعلى الأخص في باريس واسطنبول، لكنه عاد في عام 1957 إلى الولايات المتحدة للمشاركة في نضال المدرسة الجنوبية ضد التمييز العنصري.

أقلقت مشاعر الغربة والحنق بالدوين خلال السنين التي قضاها في أوروبا. ففي مقالة له تحمل عنوان "غريب في قرية" (1953)، يصف زيارته لقرية سويسرية صغيرة، حيث أدرك في هذه الزيارة أن سكّان تلك القرية أقوياء إلى حد أنهم لن يشعروا يوماً بالغربة في أية بقعة من بقاع العالم. أما الأطفال فقد اعتبروه دخيلًا غريباً طريفاً وكانوا يصيحون في الطرقات: «زنجي! زنجي!.»

كان بالدوين يرى في أعين جيرانه نظرات مليئة بحقد مريب رغم كل ما كان يتبادله معهم من عبارات تحية وسلام. فالأوربيون "لا يتصفون بالبراءة"، وما يتبناه الأمريكيون من معتقدات، إنما تعود في أساسها إلى أوروبا. "لقد ذكرتني هذه القرية بحقيقة أن الأمريكيين، ومنذ فترة ليست بالبعيدة، لم يكونوا أمريكيين بالمطلق، وانما أوربيين منبوذين، وجدوا أنفسهم في مواجهة قارة عظيمة لا تُهزم، يتجولون في أسواقها، مثلًا، ويرون الرجال السود للمرة الأولى."

كتابه الأكثر مبيعاً هو "الحرب في المرة القادمة" (1963)، أشاد فيه الكاتب بحركة المسلمين السود، وحذر من انتشار العنف إن لم تغيّر أمريكا البيضاء

مواقفها تجاه الأمريكيين السود.

إن تقارير بالدوين التي جاءت ضمن نشاطاته في مجال حقوق الإنسان عام 1960، جعلته مستهدفاً من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي جمع وحده ملفاً حول بالدوين يقع في 1750 صفحة.

بعد اغتيال مارتين لوثر كينغ عام 1968 وتراجع حركات حقوق الإنسان، بدأ بالدوين يصرّح بأسى أن العنف قد يكون السبيل الوحيد للوصول إلى العدالة في مواجهة العنصرية. لكنه فيما بعد، استعاد شيئاً من الأمل حول إمكانية نجاح عملية السلام، ليعود في بداية السبعينيات ويعيش حالة إحباط الكاتب.

ففي مراجعته لرواية آليكس هالي "الجذور" نظر بالدوين إلى العمل من خلال الإمكانيات المتاحة في عام الانتخابات الرئاسية، وأكد أن "السود في هذا البلد يتحملون مسؤولية كبيرة، وهو ليس أمراً جديداً، رغم ما يبدو عليه من غرابة، كما أنهم مقبلون على مستقبل لا يقل بؤساً عن الماضي الذي قادنا إلى هنا، وإن كان بطريقة مختلفة."

أظهرت رواية "لو كان لشارع بيل أن يتكلم" تجديداً فنياً لدى بالدوين من خلال قصة حب مثيرة وشاعرية أكد فيها بالدوين على أهمية الروابط العائلية والحب كسبيل إلى الخلاص.

أثّرت الموسيقا الإفريقية الأمريكية عميقاً في بالدوين بشكل عام، وهذا ما يلاحظ أيضاً من عناوين كتبه وتلميحاتها إلى الأغنيات الأمريكية الإفريقية التقليدية.

عام 1983 عمل بالدوين أستاذاً في قسم الدراسات الأفرو-أمريكية في جامعة ماسوشيستس في أمهيرست. وقضى سنواته الأخيرة في سان بول دو فانس في الريفييرا، في فرنسا، حيث مات هناك بعد إصابته بسرطان المعدة في 30 تشرين الثاني عام 1987.

فيء ناصر

ناقدة فنيّة وأدبيّة من العراق. أعدّت وترجمت مختارات شعريّة لكارول آن دوفي، وفلورنس آنتوني، وروزماري تونكس من بين آخرين. ولها دراسات وتغطيات فنيّة غزيرة ومتواصلة لأشهر المعارض الفنيّة العالميّة. تنشُر مقالاتها وترجماتها في عددٍ من المجلّات والصّحف العربية والمواقع الإلكترونيّة.

يتساءل بالدوين، في حديث له حول هذه الرواية، ما الذي يحدث عندما يُصبح شخصٌ ما غير قادر على أن يُحبَّ أيَّ أحد؟ ماذا يحدث لو كان خائفًا جدًّا من نفسه، وخوفه ذاك يمنعه حتى عن الوقوع في الحُبّ والانكشاف التّام أمام الآخر؟ هل يغدو إنسانًا متوحّشًا؟ هل يصبح خطيرًا إلى درجة وجوب ابتعاد الناس عنه؟ «قلّة من الناس تموت من الحب، لكن الكثرة تهلك وتفنى كلّ ساعة – وفي أكثر الأماكن غرابة – بسبب فقدانه.»

لن تعود الغُرَف تشبه بعضها بعد غرفة جيوفاني. أما شخصيّة جيوفاني نفسها فستغدو – لبراعة الكاتب في رسمها – غير قابلة للنسيان أبدًا.

ولد جيمس بالدوين في هارلم بمدينة نيويورك عام 1924، ونشأ في بيئة شديدة الفقر. ولأنه كان ابناً غير شرعي، فهو لم يعرف والده الحقيقي قط. كان في طفولته قارئاً نهماً، ففي الثانية عشرة من عمره ظهر عمله الأول في صحيفة تعود لإحدى الكنائس.

اشتُهر برواياته التي تبحث في مواضيع الجنس وهواجس الهوية الضائعة أو المحاصرة أو المخنوقة. كما عُرف بمقالاته الحادة اللهجة حول الصراع المتعلق بحقوق الإنسان. إضافة إلى رواياته الكثيرة، صدر لبالدوين ثلاث مسرحيات، وقصة للأطفال، ومجموعة قصصية واحدة. وقد نال شهرته عقب إصدار روايته الأولى "أعلِنوا مولده فوق الجبل" (1953)، والتي تتحدث عن معاصٍ خفيّة، وآثام وعذابات دينيّة. ويتضح في أعمال بالدوين امتزاج السيرة الذاتية بسيرة الظلم الاجتماعي وتحليل كنه هذا الظلم وبالتالي البحث عن العدالة فوق الأرض. إن تقارير بالدوين التي جاءت ضمن نشاطاته في مجال حقوق الإنسان عام 1960، جعلته مستهدفاً من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي جمع وحده ملفاً حول بالدوين يقع في 1750 صفحة.

عام 1983 عمل بالدوين أستاذاً في قسم الدراسات الأفرو-أمريكية في جامعة ماسوشيستس في أمهيرست. وقضى سنواته الأخيرة في سان بول دو فانس في الريفييرا، في فرنسا، حيث مات هناك بعد إصابته بسرطان المعدة في 30 تشرين الثاني عام 1987.

تجري الرواية في باريس الخمسينيّات. تعجّ المدينة بالمغتربين والعلاقات المحرّمة والعُنف الخفيّ، فيزورها ديفيد الأمريكيّ ليقف عاجزًا عن قمْع نوازعه رغم معرفته بخطورتها وآثارها القاتلة. إذ بعد أن قابل فتاةً أحبّها وعرض عليها الزواج، يُصادف عامل حانةٍ إيطاليّ، جيوڤاني، ذا الفلسفة والرؤية المختلفتين تمامًا عن الأفكار الأمريكية المتفائلة التي يحفظها ديفيد عن ظهر قلب، فتتغيّر حياته.

«مُذهل... كتابٌ ينتمي إلى الصفّ الأوّل من أدب الرواية.»

The Atlantic

«حجزَ المؤلّف له مكانًا في مجموعة خاصّة جدًّا؛ إنّه من بين أولئك الكتّاب الأمريكيين الخالدين»

Saturday Review

«أن تكون جيمس بالدوين يعني أن تلمس مناطق خفيّة كثيرة في الثقافة الأوروبية، والأمريكية، والزنجيّة، وثقافة الرّجل الأبيض عمومًا – يعني أن تفهم كثيرًا، أكثر من اللازم»

Alfred Kazin

Cover by: Natasha Michaels
Author Photograph © Carl Mydans

ISBN 9789948101109
9 789948 101109

روايات
REWAYAT